



میں وراء الجدار

محمد کیہونی

مقدمة

لم أرد أن أضع كتاباً وأرسم له أصولاً وأهدافاً وأحدد له غرضاً كما يعمل المؤلفون عند الكتابة ، وإنما أحداث مرت بي وتمر بكل بحارٍ مثلي فعمدت إلى تسجيلها ، وتسجيل تأثرى بها غير عامد نشر هذه الفصول في يوم ما . فكأنى كنت أكتب لنفسي أحسن فأبجل ما أحس ، وأنظر فأصف ما أنظر ، ومرت رحلة ورحلة ، واستمر هذا الشعور حتى كانت الرحلة السادسة في تريستا وفيها فكرت في نشر ما تجمع لدى لأعطي صورة عن حياة البحّار الواقعية . حياة أبلوها في البحر عند ما تضرب الباخرة في البحر ، وفي الموانئ الخارجية عند ما ترسو الباخرة على إحداها . حياة يحياها البحارة المصريين والأجانب على سفنهم المتعددة الأجناس ، فهي تكاد أن تكون متشابهة . بحر شاق طويل مجهد في أيام تطول أو تقصر تعقبها أيام معدودة في أحد الموانئ . مفعمة باللذة واللهو وما تحدثه اللذة واللهو من تفكير وتأمل وعاطفة ، ويختلف ذلك التفكير والتأمل في شخص ما عن الآخر باختلاف مزاجه وميوله ، ولكنها تتفق في أنه ليس للإنسان الواعي أن يلتذ ويلهو كما تلهو السوائم وإنما يميزه أن يفكر ويتأمل ليس في لذته ولهوّه فحسب ، بل في كل

وجه من أوجه الحياة . عشت هذه السنين مفكراً متأملاً . بل كثير التفكير والتأمل في كل صورة تعرض لي وما أكثر ما تعرض لي الصور مسجلاً ذلك أولاً بأول ، وما أن خطر بذهني أن أنشر هذه الفصول في يوم ما حتى زاد نشاطي في الحركة والتنقل والمشاهدة ، وزاد تبعاً لذلك الأثر الذي يحدثه كل ذلك في التفكير والتأمل حتى صرت في النصف الثاني من هذه الفصول أتحرك وأنتقل وأشعر لكى أكتب بعد أن كنت أكتب ما يحدث بغير عمد للحركة والتنقل والشعور ، ومعنى ذلك أنتى صرت أكتب ليقراً الناس ما أكتب ، وأحس لأصور للناس ما أحس ، وأنظر لأصف إلى الناس ما أنظر .

لست أدري هل تروق هذه الطريقة بعض الناس أم لا وهل تعجبهم هذه الحياة الواقعية التى أعرضها أم تسوءهم ، ولكن الذى أدريه أن هذه حياة حقيقية أحيائها ويحيها العشرات بل المئات والآلاف من البحارة فى جميع البحار فى جوف السفن وفى الموانى الكثيرة التى لا تعد . وقد حاولت أن أعبر عنها كما هى ولم أفكر أن أرضى شخصاً ما أو أسئ إلى شخص ما ، وليس يهمنى أن يرضى هذا أو يسوء ذاك بقدر ما يهمنى أن أوفق فى تصوير الحياة التى أريد تصويرها .

ولست أريد أن أكون واعظاً أو معلماً ، وكذلك لست أريد أن أكون برهيمياً ، ولا أعرف أنتى ضقت بمهنة ما كما ضقت بمهنة

التعليم ، وكيف أكون معلماً وما زالت الأيام تعلمنى كل جديد ،
وكيف أكون أستاذاً وما زلت تلميذاً فى مدرسة الحياة ، ولست
أريد أن أكون بوهيمياً أو بطلاً من أبطال المغامرات ولكنى أريد
أن أصور حياتى كما هى بما فيها من ملل وسأم ، وألم ولذة ، وما فيها
من نفس الانسانية ضعيفة أقهرها مرة وتقهرنى فى أغلب المرات .
إذن فقد اخترت أن أكون كاتباً أو قل اختارت لى الظروف
ذلك . فمن أى لون أريد ؟ لقد انقضى ذلك الزمن الذى كان الشعراء
يتكسبون فيه بالشعر ، يقصرون مديحهم على بعض الناس يحمونهم
ويكفلون لهم العيش . ويستأثرون بعد ذلك بما ينتجه لهم الشعر
والأدب الذليل الذى يعيش لهم كما يعيش صاحبه لهم . وصاحبه
لا يستطيع أن يقف بمفرده ويواجه الحياة والناس ، وما ينتجه من
الآثار المكتوبة لا يستطيع أن تدور حول صاحبها أو تعيش له
وإنما تبحث عن شخص آخر تدور حوله وتعيش له .

لست أريد لنفسى مثل ذلك . لست أريد لهذا القلم أن يمالئ
إنساناً أو يحميه إنسان يكفل له العيش الذليل والحرية الذليلة ، وإنما
أريد أن يكون قلبى جزءاً منى ، كعنى التى أبصر بها ، وحواسى التى
تسع الأحياء والأشياء جميعاً . أريد أن أخوض بقلبى الموضوع
الذى أريد ، فى الوقت الذى أريد ، متمتعاً بهذه الحرية التى وهبها الله
 لعباده ، فبغير هذه الحرية المطلقة لن أنتج أدباً يستطيع أن يقف
على قدميه .

أريد أن أصور نفسى عارية كما أرادها الله أن تكون وأعلم أن ذلك سيئ. إلى كثير من يتصدرون للدفاع عن العرف والتقاليد والأوضاع القائمة ، وقد يشاركوني بينهم وبين أنفسهم فيما أقول . حتى إذا هوجمت هذه التقاليد كسروا عن أنيابهم دفاعاً عنها . مثل هؤلاء كثيرون يعلقون شعورهم على شعور الجماعة ورأيهم على رأيها يرون حسناً ما تراه الجماعة حسناً من غير أن يحدوا لأنفسهم غرضاً وهدفاً ومعنى .

ومثل هؤلاء سيسوءهم ما أكتب لأنى أجرد هذه النفس كما أجرد ما ألقاه من النفوس عارية كذلك ، لا يستر عريها شيء ، ولكنى سأسيء إلى نفسى أكثر مما أسيء إليهم لو عمدت إلى الأدب المتكلف الذى يبحث عما يرضى الناس ويتجنب ما يسوؤهم .

فإذا كنت أرى قطاراً يسير وعصفوراً يغرد ومياه تصطفق وأوراق تهتز ويعبث بها الريح فأحاول أن أجعل كل ذلك على الورق أحاول أن أنقل هذه الطبيعة بألوانها المتعددة بأدواتى من الكلمات والألفاظ كما يعمل الرسام بأدواته من الأصباغ والألوان ، وقد أنجح فى ذلك أو لا أنجح ، فإذا كنت حراً فى وصف هذه الطبيعة الصامتة فلماذا لا أكون حراً كذلك فى وصف هذه الطبيعة الإنسانية الحافلة بالمشاعر والأحاسيس ، وما يمنعنى من أن أظهر دخيلة نفسى ودخائل هذه النفوس الكثيرة التى يضل الإنسان فى متاهاتها ؟

الرحلة الأولى

الملايو

الخميس ١٣ مارس

كانت أيامى هادئة وادعة فى المستعمرة الجبلية الملحقة بمصنع
السماد فى مدينة السويس . كنت أعشق الاستقرار وأضيق
بالمغامرة والتنقل ، تروقنى هذه الحياة فى جو السويس الدافئ ،
عتمزجاً على الفنى بالكيمياء والميكانيكا متصلًا بهذين اللونين الحبيبين
الى نفسى .

حتى جاء نوفمبر وجدت خطوب وحدثت أحداث . وذلك
أن نشر الانجليز الرعب فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة الوادعة ،
وسفك أول دم وتوالى سفك الدماء بعد ذلك ، وحوصرت
المستعمرة الصغيرة الملحقة بالمصنع حتى عزلت تماماً عن السويس
كما عزلت السويس عن باقى مدن القطر .

وتعرضت العائلات لأزمات نقص الطعام — ثم انعدامه عن
المستعمرة المحاصرة المعزولة ، زيادة على رعب النساء وجزع
الأطفال وخلو أيدينا من شىء ندافع به عن أنفسنا .

وبين كل هذه الانفعالات - عمل | أريد له أن يثمر ويستمر
ويتصل ولكنه تتجاذبه أيد كثيرة ومشكلات عدة تريده أن
ينقطع وينفصل ، وكان ذلك .

غادرت هذه المدينة الخائفة مخترقاً الحصار الذى فرضه الإنجليز
على أبوابها ، كما غادرها الكثيرون ، وأرسلت كما يرسل الناس فى
مثل هذه الحال خطابات كثيرة لشركات كثيرة متنوعة ، ثم وجدتني
فى إحدى شركات الطيران أنفق شهرين هادئين فى العاصمة بين عملي
فى أقصى مصر الجديدة وسكنى فى حى القلعة ، وفيما بين هذين الطرفين
من حياة صاخبة فى بعض الأحيان هادئة فى كثير من الأحيان تأتى
على كل ما عندى من وقت وجهد وفراغ .

حتى كان ذلك اليوم الخميس ١٣ مارس سنة ١٩٥٢ عندما أقبل
عامل التلغراف يحمل بريقة صغيرة تدعونى لى الحق بوظيفة
مهندس بحرى على إحدى السفن . لم أتردد كثيراً وإنما هى دقائق
أستعرض فيها حياتى الحاضرة الهادئة نوعاً يقرب من الكسل وبين
حياتى المستقبل على ظهر إحدى السفن أو فى إحدى هذه البلاد التى
تروى لنا حياة أقل ما توصف به أنها شاقة بمجهددة وإن كانت رائعة
ممتعة - اذا كانت حياة الفوضى رائعة ممتعة .

رأيتنى بعد دقائق أقرر أن أجرب المغامرة وما قد تجره المغامرة
من ربح محتمل . وأخوف ما كان يخيفنى أن تعارض أسمى فى ذلك

فتضطرنى الى الجدل والحوار الذى أضيق به وقد تضطرنى الى أن
أتى من الأمر ما لا تحب . وكـم كان سرورى عند ما رأيتها تفكر
قليلا ثم توافق .. ثم تشجع وتقضى بذلك على البقية الباقية لى من تردد .
كان الوقت صباحا عندما وقفت الباخرة بعض لحظات فى ذلك
الفضاء الواسع بعد أن عبرت القناة . ذلك الفضاء الواسع العريض
الذى كنت أنظر إليه من نافذة غرفتى فى مستعمرة السويس ، حيث
كانت تسليتى أن أرسل الطرف الى هذه السفن الرابضة على بعد
٣ أميال بعد أن عبرت القناة أو فى انتظار دورها لتعبرها . وما هى
إلا ساعات أو لحظات حتى تختفى ولا تترك أثرا ما بعد أن كانت
متلاثة الأنوار كأنها شعلة متوهجة فى مياه امتزج بها ضوء القمر
فشفت وصفت وسحرت الالباب .

كنت أرى هذه السفن التى لا ينقطع ورودها مستقبلة الهند أو
مقبلة منها ، وما قد دارت الأيام ورأيتنى أقف على حاجز السفينة
التي توقفت لحظات فى مياه السويس ثم أخذت تنساب ببطء مارة
بهذه المستعمرة التى أنفقت فيها عامين ، حياة مضت بحلوها ومرها ،
وحياة أقبلت لا أدرى ماذا تنخبى لى الأيام فيها .

كنت أكرم الألم الشديد وأنا أغادر حياة ألفتها ولا أدرى متى
سأعود إليها . وقد لا أعود .

انطلقت الباخرة ١٣ يوماً فى بحر هادى ساكن وريح معتدلة

طبية . لم أشعر بذلك الدوار الذي كنت أعد نفسي لمناوئته والصمود له حتى رست الباخرة في مدينة بينانج Penang وكانت أول مدينة غربية تقع عليها عيني ، مدينة نظيفة ذات طرقات مستقيمة جميلة تذرعها عرائس جميلة تخطر في بيجامات أنيقة ملونة . هن سحنة اليابانيات بشرة صفراء وعيون ضيقة مائلة متجهة الى أعلى .

والأهالي تجار أغنياء يتكلمون الإنجليزية والأردية ولغة الملايو التي تكتب بحروف عربية ثم السنسكريت ذات الرموز والصور التي تشبه لغة اليابان . ومنهم من يجيد العربية إجادة تامة . ومن التقاليد التي يحرصون عليها هي خلع أحذيتهم ونعالهم قبل دخول منازلهم . ففي كل مكان سواء كان متجراً أو معرضاً أو مطعماً ، في كل هذه الأماكن كنا نرى درجا خشبياً صغيراً منزوياً في أحد الأركان يؤدي الى صاحب ذلك المكان سواء كان مطعماً أو مخزناً من مخازن التجارة وأمام هذا الدرج يخلعون نعالهم .

والجمال لا بأس به في هذه البلاد النظيفة نوعاً ما وإن كنا في الواقع نحتاج إلى بعض الوقت لنفهم هذا الجمال وتعود عليه ، فهو لأول وهلة غريب علينا غير مألوف ، ولكنه بعد يوم أو يومين عند ما نقلب الطرف فلا نجد غير ذلك النوع المتشابه عند ذلك تألفه عيوننا وتستسيغه نواظرنا حتى أن هناك بعض الإنجليزيات

المستوطنات كن يظهرن أمام أعيننا فى جمال عادى يقل كثيراً عن
جمال ذوى البشرة الصفراء .

والتاكسى فى هذه البلاد يشبه الدراجة ذات العجلات الثلاث
اللى تنقل عليها البضائع فى مصر ، فهى لا تزيد عن صندوق خشبى
مفتوح به أريكة خشبية نظيفة تتسع لشخصين والسائق على كرسىه
الخلفى يجهد نفسه فى سباق زملائه ومنافستهم فى الطرقات المضئنة
المنزلة بما فيها من مياه الأمطار ، فخوراً بما تحمل عربته ، التى لا تخلو
أحياناً من عروس فاتنة جميلة .

والأراضى جبلية مرتفعة كانت تلوح لنا ونحن على سفينتنا
على بعد عدة ساعات كأنها جبال سوداء حالكة السواد حتى أننا
تشاء منا منها ، وعند ما أتيت لى الفرصة ورأيت هذه الجبال عن
قرب رأيتها جبال مزروعة خضراء كثيفة الخضرة زاخرة بالشجر
والنخيل . وفى يوم من أيام الأحاد انتقلت إلى إحدى هذه الجزر
الصغيرة على ظهر سفينة بخارية تحمل الأهالى وبضائعهم وعرباتهم
من جزيرة إلى أخرى . قضيت يوماً كاملاً فى إحدى هذه الجزر
مشاهداً الفلاحين عن قرب فى بيوتهم الخشبية الأنيقة ، والقرويات
يحففن حبوب القمح القليلة الثمينة على أغطية من الخوص اللين
فى الطريق الريفى الخالى تحت أشعة الشمس الحامية .

وفى أحضان ذلك الجبل مستعمرات صغيرة أنيقة مكونة من

عدة بيوت متقاربة تشيع فيها البهجة ، وتنطلق منها نغمات الموسيقى كما تنطلق من المقاهى والأسواق المكتظة بالمانجو والآناس . وعلى امتداد البصر يربض الجبل العالى الشديد الاخضرار كأنه الهرم الحارس على هذه القرى الآمنة الوادعة .

واللغة العربية مقروءة مسموعة فى كل مكان بجوار لغة الملايو وإن كانت اللغة الانجليزية هى الأكثر انتشاراً من هاتين اللغتين .

ولست الجماعة فى هذه البلاد منسجمة متجانسة وقد تكون أصبحت كذلك الآن بعد أن مضى على زيارتى لها عامين تقريباً ، فهناك التجار المسلمون ومعظمهم أغنياء يصرفون بأيديهم التجارة الرئيسية فى البلاد ، وهؤلاء ينطقون اللغة العربية بجوار لغة الملايو وهم سكان البلاد الأصليين ، وبجانبيهم جالية كبيرة من الصينيين يصرفون تجارة عريضة ناجحة ولهم لغتهم وتقاليدهم وولاؤهم لأهمهم الكبرى الصين .

ثم جالية أخرى للهنود مسلمين وغير مسلمين ولهم لغتهم الخاصة وإن كانوا أقرب اندماجاً من غيرهم مع أهل البلاد الأصليين . وبين كل هؤلاء الانجليز المقيمين للتجارة والسيطرة على كل شئون البلاد ، ومهاجرون نازحون من اليمن وعدن وشبه جزيرة العرب . وبين هذه الجماعة الغير منسجمة المتباينة المشارب والأهواء والميول

كانت فكرة الاستقلال نائمة في الصدور لا يظهر منها ما يدل على وجودها ، ولكننا بعد أن تجاوزناهم بشهور قليلة سمعنا الكثير بعد ذلك عن نشاط الثوار ومقاومتهم للإنجليز . وليس عجيباً أن توحد الحرب بين جماعات مختلفة ومصالح مختلفة في شهور قليلة ، ولا يستطيع السلم أن يؤدي ذلك في بضعة سنين .

والأهالي يحبون اليابانيين جداً فقد تأثروا بهم وبنهضتهم في خلال حكمهم الطويل لهذه البلاد بقدر ما يكرهون الإنجليز كراهة مطلقة ، وقد تتجه أنظارهم اليوم إلى الصين الشيوعية التي تنزع هذه المنطقة الآن ، وتحتل المنزل التي كانت تحتلها اليابان في أذهانهم .

ولعلها أي الملايو قد عرفت الشيوعية ولم تكن تعرفها من قبل أو لعلها نهضة شعب يريد أن يتحرر من مستعمره فيتهم بالشيوعية من هؤلاء المستعمرين ثم يحارب بعد ذلك .

وإن أنظارهم لتتجه إلى مصر ولكن مصر البعيدة النائية لا يبدو عليها أنها تلتفت إلى هذه الأقطار أو تشعر بوجودها .

والإنجليز بين هذه الجماعات وبين هذه الانفعالات المختلفة يعيشون ويقومون بمهمتهم في خدمة الامبراطورية العجوز الفانية ففي مثل هذا التباين والاختلاف يستطيع الاستعمار أن يقوم بدوره كأحسن ما يمكنه أن يقوم .

وسياق اليوم الذي تتوحد فيه هذه الجماعة ، وتشعر بجنسيتها وتتقدم مشاعرها وميولها ومصالحها وعندئذ تسير في طريق الخلاص

كلكتا

مايو . . . لم أكن أدري وأنا أقرأ كتاب كلية ودمنة أنه سيكتب لي أن أرى الهند والهندود في بلادهم . وكانت مدينة كلكتا هي أول مدينة خرجنا منها لا نستطيع أن نحكم لها أو عليها . فقد رأينا فيها حسنات كثيرة ومساوى . كثيرة ونحن بين هذه وتلك لا نستطيع أن نحكم لها أو عليها . وهي بذلك تشبه مدينة بينانج في الملايو إلا أن هذه صورة كبيرة واضحة أمانا عيوبها كما هي واضحة أمانا محاسنها . أما في الملايو فهي مدينة صغيرة تفتنا محاسنها التي قد تفوت علينا ملاحظة عيوبها .

وكلكتا مدينة كبيرة لا حد لاتساعها ونهايتها تختلط فيها القصور المترفة بالأكواخ الفقيرة البائسة . وبها الطرق النظيفة التي تذرعها العربات والترام وتزدحم بالمارة وينظم فيها المرور كما ينظم في بلاد الإنجليز حيث الجانب الأيسر للذهاب دائماً بدلاً من الجانب الأيمن . بها بجانب ذلك هذه الطرق التي لا تقل عن مثلها في عواصم الدول الكبرى طرقاً مطروقة ضيقة تذرعها قوافل الحيوان وتترك فيها ما تترك من روث .

وملابس الهندوك تكاد تكون على الفطرة يغلب عليها اللون

الأيض كهذه الصورة التي تتخيلها عن البراهمة . فيرتدى الرجل سروالا من القماش القطنى الأبيض الخفيف كذلك الذى يلبس عند النوم فى غير أناقة أو عناية ، وفوقه قميص من نفس اللون وهو كل ما يمكن أن يعتبر من الزى الأوروبى ، وفى قدمه نعل خفيف مفتوح تبرز منه أصابعه . ويتميز الغنى والفقير منهم فى هذا الثوب بدرجة نظافته ونوع القماش الذى اتخذ منه . ولا يرتدى الزى الأوروبى غير رجال البوليس والمرور . أما النساء فيرتدين ذلك الزى الوطنى « السارى » متعدد الألوان يلحن فيه فى جمال شرقى فريد . وكانت إحداهن تقف على شاطئ النهر المقدس وقد انحسر الماء عن حصواته الدقيقة الصغيرة ، وبرزت أصابع قدمها الجميلة البيضاء من طرف حذائها المترف المكشوف وبرز ذراعها الناصع البياض من ذلك السارى الأبيض الأنيق وتناثرت على كتفها جدائل شعرها الأسود اللامع يميزها النعيم بطابع غير طابع البائسات الكثيرات فى شوارع كلكتا — ولا عجب فإن للنعيم سحراً يجريه على هذه الوجوه فيخلع عليها جمالا فوق جمال وسحراً فوق سحر . وكم من جميلات حرمن من ذلك النعيم ، ومن ردائه الساحر الجميل ، وخلع عليهن الفقر الذبول والنحول ، فترك فيهن آثاراً تنبؤ فى العين وتبعث فى النفس الإشفاق والحسرات . وكيف إذا اجتمع النعيم والجمال وتعاوننا على خلق صورة نادرة المثال تستهوى القلوب وتفتن العقول والأرواح

كانت تقف على شاطئ . ذلك النهر الذى يعبد الهنود خاشعة صامته
كتمثال جميل تتم شفتاها بكلمات لا تزيد على أن تكون همساً
لا ندرى نحن أهي نجوى تناجى بها ذات نفسها وتشهد عليها ذلك
النهر أم هي رسالة تبلغها إلى هذه الأجساد التى احترقت وذر
رمادها فيه . أهي عبادة لذلك النهر كما يقال عن الهنود أم هي عبادة
لمرب ذلك النهر ، ولكن الناس أخطأوا فهمها فنسبت لذلك النهر
الوادع بدلاً من أن تنسب لخالقه .

رأينا ذلك النهر حين يكون وادعا تجرى أمواجه حمراء هادئة
كأنها تروى قصص الدماء التى رويت بها وتحمل بين طياته الهادئة
أرواح الملايين المعذيين فتسير هادئة رفيقة بما تحمل تصور يبطئها
وكسلها الرضا والأمن والدعة .

ثم رأينا هذه الأمواج تثور وترتفع كما لم يرتفع أى موج قط
يجابوها البرق والرعد كأنها صرخات المعذيين الذين اختير هذا النهر
ليكون قبراً لأجسادهم ، فهي لا تصور الآن أمناً ولا رضى ولا دعة ،
إنما تصور الذعر الذى انتشر فى كلكتا فتعطل المرور ووقف الترام
وطغت مياه النهر على الشاطئ . وتعاونت جميع عناصر الطبيعة البرق
والرعد والمطر كأنها قد فككت من عقالها واتفقت على أن تحول
النهار إلى ليل مظلم والأمن إلى خوف ثقيل والحياة المطلقة إلى
خمود وركود أقرب إلى الموت .

فوجدنا بهذه العاصفة المروعة تجصرنا بعيداً عن السفينة التي
حجبها عن أعيننا الظلام والضباب والظوفان . ولجأنا إلى جانب
الطريق وإلى جانب هذه الكتل البشرية التي اعتصمت بالشرفات
البارزة من نقمة الأمواج وهي تسفع الوجوه ، والريح التي تصفر
في الآذان بموسيقى مخيفة مرعبة . وهكذا انقلب النهر الوداع في
بضع لحظات إلى نقمة مسلطة وعذاب مقيم .

ومن العادات البغيضة في بلاد الهند ، شيء لا أستطيع أن أسميه
عدة أخلاط وألوان يجلس بها الباعة على قارعة الطريق كأنها الألوان
التي يستعين بها الرسام على رسم ما يريد .. فهي ألوان أحمر وأخضر
وأصفر يخلطها الباعة في ورقة من أوراق الشجر ملفوفة كالكرة
ويبتاعها المارة في نظير بضع أنات يعضغوها بعد ذلك ، يعضغها
الرجال والنساء والصبيان وإن كانت أكثر شيوعاً بين الرجال عنها
بين النساء .. يعضغونها في غير رفق ويلوكونها بألسنتهم كما تلوك
الريفيات في مصر قطع اللبان . فتصطبغ شفاههم وثنائياهم بلون أحمر
كما تصطبغ شفاه النساء سواء بسواء ، ويتصل بألسنتهم بعض ذلك
اللون ويصبح الفم كالجرح الذي يقطر منه الدم فيثير في نفس الأجنبي
كثيراً من الاشتماز والنفور . ويظل الرجل لا يكف حلقه عن
الطحن والابتلاع والمضغ حتى يبلغ من كرتة ما يريد أن يبلغ ويلفظها

بعد ذلك بجانب الطريق ولا يفكر في أن يغسل ما أصاب فيه بعد ذلك بل يروح ويحيى. وعلى فيه ذلك اللون الذى يميز النساء .

ومن العيوب التى لا تنسى الريكشا ، وهى التاكسى فى مدينة كلكتا عبارة عن عربة كالتى تجرها الخيل فى مصر ، ولكن يجرها آدمى فى كلكتا نصفه الأعلى عار فى غالب الأحيان يعدو جافياً وهو يجر عربته تحت حرارة الشمس القائلة فى شوارع كلكتا الطويلة لمدة قد تصل إلى نصف الساعة فى نظير روية واحدة . أى سبعة قروش ، وكما كان ألماناً شديداً أن نركب هذه العربات التى يجرها آدمى مثلنا . يلهث كما تلهث الخيل ، يعدو عدواً سريعاً لعل فى سرعته أن ترفق الأرض الملتهبة بأقدامه الحافية .

اضطررنا إلى ركوب هذه العربة اضطراراً عند ما أضرب عمال الأتوبيس فى أحد الأيام التى أقنأها ، وتعذر علينا السير فى الشوارع الطويلة الملتهبة ، الشوارع طويلة لاحت لطلوها حتى أن أقصرها يبلغ طوله عدة كيلومترات ملتبة تحت حرارة الشمس القائلة التى تجعلنا نلهث إذا سرنا بضع خطوات ، ثم نجد فى نفس الوقت أحد هؤلاء البؤساء يستجدون يلحفون علينا بالركوب ، فنضطر إلى الركوب ولا بد مما ليس منه بد ، فلم نكن نريد النزهة وإنما نريد الطبيب وقد كان أحدهنا مريضاً لا بد له من العلاج ، وانطلقت العربة سريعة كما ينطلق بها الحصان السريع ، ونحن نكتم فى نفوسنا

الآلم على ذلك المصير الويل الذى يتساوى فيه الإنسان والحصان .
وقد دفعت هذه الصورة أحد زملائنا بعد ذلك أن يتعاون هو
وذلك الحصان الآدمى على جر العربى فلم تكذب تنطلق به منتصف
المسافة التى يريد ما حتى أمره بالوقوف وأجبره على ركوب العربى
وأخذ نفسه فى موضع الحصان وانطلق بها حتى وصل إلى غايته بين
فترات الأهلين الذين وقفوا ينظرون كأنما ينظرون إلى مجنون .
دفعه ذلك زميل رقيق القلب والعاطفة أن يقوم بذلك الدور
الذى لا أشك فى أنه لم يقوم أحد به من قبل ولن يقوم به أحد بعد
ذلك فيما يجد من أيام .

أما نحن فقد امتنعنا عن ركوب هذه العربات ، وأخذنا أنفسنا
بالمشى ، والمشى الطويل إذا لم نجد أى طريقة سليمة من طرق
المواصلات ، وكنا نتعمد أن يكون سيرنا ليلاً حتى نتجنب كثيراً
من المناظر العنيفة المؤذية فكان الليل ستاراً يحجب عنا أشياء كثيرة
لا يستطيع أن يحجبها ضوء النهار ، وكان الليل جمال يخلعه على
الأحياء والأشياء فيستر الكثير عن البؤس والشقاء .

ففى ضوء النهار نرى كتلاً كثيرة عارية من اللحم البشرى تفتش
الأرض فى الأماكن الضيقة القليلة التى يغمرها الظل فى الطريق العام .
ومن أشد هذه المناظر ألماً عجوز وقد التصق صدرها وظهرها
التصاقاً شنيعاً ، وبرزت أعضاء جسدها من ثوبها المهلهل المعزق ،

وليس يؤلمنا هذا الثوب المهلهل الممزق ، وإنما يؤلمنا أكثر الألم ذلك الجسد كأنه هيكـل عظمى ، والوجه الأصفر كأنه وجه طفل حديث الولادة ، وقد يجرى فى وجه الطفل لون يدل على الحياة . أما على وجه هذه البائسة فليس هناك لون ما . ليس هناك ما يدل على جسم رجل أو امرأة ، طفل أو طفلة إلا ذلك السارى الذى كان يفتننا على النساء الجميلات ، ولكن هنا لا يثير إعجاباً ولا فتنة وإنما يثير الألم الذى يصل إلى درجة البكاء ، فهى لا تستطيع أن تسير أو تتكلم ، أو حتى تستجدى وتعمل عمل الآخرين الذين يكدون خلف كل سائح يلحون فى السؤال ويمعنون فى الإثقال يكررون الجملة الوحيدة التى يحفظونها حفظاً ويرددونها دواماً وهى ليس لى أب أو أم يا سيدى . مثل هؤلاء يحيطون بنا محاصرين ملحقين حتى يجهدوتنا ولا يبلغ الجهد منهم شيئاً ، نشق طريقنا وسطهم بصعوبة شديدة وكفاح مرهق عنيف حتى كنا نضطر لزجرهم لنجد مكاناً للهروب . فلو أعطينا واحدة فعلى بعد يرقبنا العشرات رجالاً ونساءً ليتراكموا علينا فلا نستطيع الخلاص .

مثل هؤلاء كانوا يستطيعون الكلام والحديث ، يستطيعون الجرى والعدو كالحصان ؛ أما هذه فكانت تسير عاجزة عن الكلام

والنطق بل عاجزة عن السير ، تسير كما يسير الهيكل العظمى وعلى شفتيها ابتسامة لا يفهم لها معنى — حواس متبلدة لا تفهم شيئاً أو تعي شيئاً ، وهل يترك الجوع شيئاً يجعل الإنسان إنساناً ؟ لا . لا يترك الجوع والفقر للحواس أن تعمل وللعقل أن يفكر ، أو يتذمر أو يشكو ، فهو في هذه الدرجة الشديدة من الجوع والفقر لا يميز بين السخط والرضا ، ولا يعرف التذمر والشكوى ، ولا يعرف لكل هذه العواطف والانفعالات معنى ، ولا يحس لها وجوداً ، فهو كما يقول الشاعر عن الحمام الذى سلم فملاً الدنيا صياحاً ونواحاً ، ثم كسر جناحه فسكت ولم يملأ الدنيا صياحاً أو نواحاً .

لقد رأيت المتسولين في كل بلد من البلاد التى رأيتها في رحلاتي الكثيرة رأيت المتسولين في روسيا التى كنا نعتقد أن الرغيف فيها قد أمم وأصبح مباحاً كالماء والهواء .

رأيت المتسولين في بلاد الإنجليز وتصرف الحكومة هناك معاشاً ثابتاً منتظماً لمن يقعدهم العجز عن العمل ثم ينفق أحد هؤلاء المتقاعدين ما معه من نقود على الخمر ثم يلجأ إلى التسول .

رأيت المتسولين في هولنده وكندا وفيها يلجأون إلى الآلات الموسيقية يسIRON صامتين يعزفون فقط في الطريق والكافية ولا يطلب أحدهم شيئاً فهو يريد أن يشعر أنه أجير يعمل شيئاً في نظير ما يقدم له .

رأيت المتسولين في كل هذه البلاد ولكنى لم أر مثل هذه
الكثرة التي رأيتها في بلاد الهند في أى بلد من البلاد .

رأيت بعينى ما أكد لى شيئاً قرأته سابقاً عن مجاعة شاملة
حاصت بهذه المدينة كلكتا حتى أن الناس كانوا يموتون بالآلاف من
الجوع في الطريق العام ، وقرأت عن زوجة أخذت تصارع أحد
هذه الكلاب الضارية الجائعة لترده عن جثة زوجها وهو في
النزع الأخير .

لقد حدثت هذه المجاعة في يوم ما ، وكأني بها الآن تبرص
على أبواب هذه المدينة الفقيرة الغنية المتعلمة الجاهلة ، فكأنها قد
جمعت كل المتناقضات ، وقد رأيت فيها من القصور والثروة والترف
ما يذهلنا ويرينا كيف تكون القصور والثروة والترف ، وفيها
بحوار ذلك البؤس البائس والفقر الويل .

والأهالى تجار بالفطرة كأغنى ما يكون التجار مخازن مكدسة
بالبضائع وجيوب عامرة بالمال ، وتجارهم الخارجية وثيقة الصلة
بانجلترا ، وقد تكون وثيقة الصلة بروسيا في يوم قادم ، فقد رأينا
هندويين روس يزاحمون رجال المال والأعمال الإنجليز .

والمثعلون كثيرون وأكثر منهم الذين لا يعرفون أن في الدنيا
شيء اسمه العلم ، فقد أبلد الفقر حواسهم وجعلهم يحبون كما يعيش
الحيوان تدفعه غريزته لياكل أو يسجدى ما يأكل . رأينا كل هذه

المتناقضات في مدينة يديبا ، فكأنها تعيش على الفطرة تنمو فيها
الثروة كأحسن ما تنمو لا يعوقها عن النمو شيء . وسينمو فيها الفقر
لا يمنعه مانع ولا يقف في وجهه إنسان .

ومثل ذلك عن الجهل والمعرفة والعلم والخرافة ونحن من هذه
السيئات والحسنات جأرون مترددون لانستطيع أن نحكم لها أو عليها
فحيثما نرى ما بها من الحسنات نحكم لها بأنها مدينة قاهرة تسير
سيراً حثيثاً في طريق المجد والقوة والنهوض ، ثم نرى ما بها من
سيئات نحكم بأنها تسير في طريق الفناء والانحلال ، أو لعلها بين
هاتين الغائتين المجد والانحلال تتصارع تصارعاً عنيفاً وستكشف
الأيام عن نتيجة ذلك الصراع .



الرحلة الثانية

في مدينة (أوديسا)

١٧ يونيه سنة ١٩٥٢

كانت الباخرة تحمل شحنة كبيرة من الجوت والأفاويه من الهند إلى روسيا ، فهي لم تكد تستقر في ميناء الاسكندرية غير يومين حتى استأنفت سيرها تعبر بحر مرمرة والدرديل مارة على مدينة استامبول ، إلى أن رست على مدينة أوديسا .

ولم تكن لي صديقة واحدة في بلاد العم ستالين فقد كانت لي عدة صديقات ، وفي أوديسا تعلت بعض كلمات روسية قليلة فكلمة خراشو ومعناها جيد ، وسودانى معناها سعيدة ، وبهذه الكلمات القليلة وأمثالها استطعنا أن نتصل بالناس أو الفتيات على الأصح في هذه المدينة المرحية .

وهكذا شهدت أوديسا أول عبث لي وكانت فولا الطيبة أول من أعطتني ما أريد .

وجلست معها في اليوليفار (الحديقة باللغة الروسية) حتى الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، وهي لا تفهم من الإنجليزية

غير كلتي نعم ولا ، وإن كانت لم تستعمل هذه الكلمة الأخيرة طوال جلستي معها . وأنا لا أفهم غير أربع أو خمس كلمات من اللغة الروسية ولكن للغرام لغة أخرى يعرفها المحبون أو العاشقون ، وبهذه اللغة عانقتها وقبلتها قبلات عنيفة مجنونة ، وكانت أول فتاة في حياتي يمس فمي شفيتها .

كان معي أحد زملاء بالباخرة وبذراعه زميلتها « نينا » وكان الوقت ليلاً . في إحدى هذه الحداثق التي تطل على شاطئ البحر الأسود وتقع على أرض جبلية كثيرة الحنايا والمنعطفات في هذه الحداثق المفتوحة دائماً بالليل في روسيا كنا نجد منظرأ فريداً لا تمل العين منه — أسراب الجميلات حيث الأجسام الرياضية الفارهة التي لم نر مثلهما في بلد آخر ، والملاح الروسية العذبة وأدب هؤلاء القوم وصفاء نفوسهم — والطبيعة الساحرة الفاتنة ، والبحر الهادىء الساجى تتلألاً فيه أضواء السفن الراسية ونحن ننظر إليها من عل .

والأرض التي اهتزت وربت غوره بما تحمل من الجمال الساحر العذب كأنها الجنة التي وعد الله بها المتقين .

ثم جاءت لورا ، ولا أدري أيهما أقرب إلى قلبي ووجداني من الأخرى . هذا سؤال لم أستطع الإجابة عليه ، والواقع أن هذه جناية البحر علينا ، فلسنا سياحاً حتى نستطيع أن نمضى من الوقت

الذى نريد فى البلد الذى نريد نعطى قلوبنا حقها مع فتاة نميل إليها وتبادلنا نفس ذلك الميل ، ولكننا للأسف لا رأى لنا فى الإقامة التى نقيمها فى بلد ما ، ولا نستطيع فى نفس الوقت أن نستغنى عن الحب فهو الذى يجعل للحياة قيمة ، ولولاه لأصبحت حياتنا حياة السجين .

وكم تمنى أن نستقر فى بلد واحد ونخلص قلوبنا لفتاة واحدة بدلا من حياة الخطاطيف التى نحياها ، ولا تزيد علاقتنا مع فتاة عن أسبوعين اثنين وأحيانا عدة ساعات كما حدث مع لورا هذه . — ولورا طالبة محبة خجولة فى السابعة عشرة من عمرها تدرس لتكون مدرسة عرفتها أول يوم من أيام إقامتنا فى روسيا ، وكان ذلك فى النادى الدولى — الذى تنفق عليه الحكومة الروسية وتلحق به طالبات المدارس والجامعات ليتصلوا بالزوار والبحارة والأجانب وكان الوقت مبكراً ولم تحضر الفتيات بعد ، ولم أكن أدرى أى فتاة ستكون لى ولكنى كنت واثقا من أنها ستكون جميلة فكلهن جميلات ، ومع موظف المكتبة الذى أبدى أسفه لعدم حضور الفتيات بعد — مع هذا الموظف جلست ألعب الشطرنج حتى ولجت الغرفة فتأتين عرضت كلاهما فى وقت واحد أن تبدأ معى اللعب ، فاخترت أقربهما وكانت الأصغر سناً والأروع جمالا ، وكانت لورا التى فتنت بها فتونا . جلست معها عدة ساعات منفردتين

فى أكثرها - لم تمسها يدى كما حدث مع فولاً ، وإن كنت فهمتها
أكثر من هذه فلغتها سقيمة - رقصت معها أول رقصه لى وهى
التانجو ، وجلست تدير معى حديثاً عذباً جميلاً ، حدثتني كثيراً عن
روسيا وكذلك حدثتها عن مصر ، حدثتني عن نفسها وحدثتها عن
نفسى ، وشهدنا معاً أفلام السينما الروسية الملونة ، وكانت تترجم
لى بالانجليزية موضوع الرواية التى كانت تمثل هتلر وهزيمة ألمانيا ،
وضحكنا كثيراً على عصبية هتلر ، وكانت تضحك من أعماقها كطفلة
بريئة ، كنا متلاصقين وقد تداننا رؤوسنا ونحن منهمكين فى
الحديث - لا أدري كيف زایلنى ذلك التحفظ الذى كان يميزنى
ويطبعنى بطابعه - زایلنى كل ذلك فجأة ، وانطلقت فى غير تحفظ
أدير الحديث والغزل والنكات ، وعندما يلبس شعرها وجهى أهمس
فى أذنها ببعض كلمات الغزل الذى لا أجيدده فتحمر وجنتاها خجلاً
ولا تدري كيف تجيب حتى أشفق عليها .

هذه هى لورا التى لم أرها غير مرة واحدة وأرسلت لها خطاباً
واحداً بعد سفر الباخرة ، وانتظرت أحسب ألف حساب إذا
وصلنى خطاب منها فى مصر وما يحمل من اتهامى بأنى شيوعى ، ولم
أرسل لها أى خطاب بعد ذلك . وقد تكون نسيتنى كما نسيتها .
وهكذا الحب لا يعيش على الذكرى فقط ، وإذا حدث ذلك
فستكون نهاية موته قريبة .

فالاتصال الدائم والمشاهدة المستمرة هي السبب الذي يقوى عراه بل يخلقه إذا لم يكن موجوداً بالفعل في معظم الأحيان وبعد ذلك لا يكفي الحب وحده بل يلزمه الكثير من الرعاية حتى يقف على قدميه ، ويقاوم الأعاصير كالوليد الذي لا يستطيع أن يواجه الحياة بغير عناية أو رعاية .

وإن شريكين في الحياة يربط بينهما الزمن في عشرة واحدة ، وتحت سقف واحد ويواجهان معاً حياة مليئة بالتجارب مشحونة بالسعى والحركة ، منعمة باللذة والألم والمشاعر المتباينة التي لا تخلو منها ظروف الحياة وطبيعتها .

إن شريكين هذا حالهما لخليقين أن يربط بين قلوبهما حب وأن يكون حباً راسخاً متيناً يثبت أمام الزمن . أما الذكرى — الذكرى فقط — فهذا من صنع الشعراء وكتاب القصة . ومالي قد ذهبت بعيداً ، ولأعد إلى روسيا ، وأختم هذه الجولة القصيرة بفتاة ثالثة هي كالينا وقد جلست معها زمناً لا يزيد عن ساعتين — وقد كنت أسير مع زميل لى فى طريق مائل إلى أسفل نتكلم بصوت عال فى ذلك الطريق الخالى تقريباً — عند ما أقبلت هى وزميلتها والتفتت تنظر إلينا فاحصة وقد فهمت من لغتنا أننا أجنب ، وكأنها لم تر أجنبياً فى حياتها أو لعل لغتنا أثارت فضولها فدنت تستمع استماعاً ظاهراً وأسرعت أقول لها أول كلمة عرفتھا وهى خراشو ولم أقف

والطريق المائل يجذبني إلى أسفل ولكن رأيتها استدارت وتبسمت
وهي ترد علينا كأنها تدعونا ، وما أسرع ما لبينا وما أسرع
ما رجعت معنا هي وزميلتها التي غاب عن اسمها . وفي إحدى هذه
الحدايق العامة وأمامنا غير بعيد شمال العم ستالين والموسيقى الروسية
العذبة تذايع من الراديو العام المعلق في الحديقة وتصل إلينا الألحان
الصفافية مع صوت الأمواج الخفيفة التي ترتطم بالشاطئ . القريب .
كان الوقت ظهراً والسماء صافية . قضينا ساعة أو بعض ساعة نقرأ
الكف . وإن كنا لا نريد قراءة الكف لذاتها بقدر ما نريد أن
نحتفظ بهذه الأيدي الناعمة الطرية أطول مدة ممكنة في أيدينا .

قضيت بضع لحظات أحرق منتشياً في عيني خضراوين كعيني
الهرة الأنيقة . وإن كانت شفيتها الباهتتين قريبة المنال . ولكنها
كانت جلسة بريئة أخرى مع جامعية ممتازة من سكان مدينة تجاور
مدينة أوديسا قد يكون اسمها كيف أو شيئاً قريباً من ذلك . وكانت
تؤدي دورها في مباراه للباسكتبول في ملعب أوديسا . وقد أردت
أن أحتفظ بعنوانها لكي أراسلها ولم أنس ذلك طول جلستي معها
كما لم تنسه هي كذلك ولكن المانع التافه هو أنني نسيت قلبي في
الباخرة ، ولم يكن مع أي فرد منا شيئاً نكتب به وهذا شيء
سخيف ولكنه حدث . وانصرفنا على أن نتقابل في اليوم التالي .

وعند ما جاء اليوم التالى كانت الباخرة تشق طريقها فى مياه البحر الأسود ميممة شطر استانبول .

وغادرت روسيا وفى ذاكرتى صور لفتيات ثلاث ، هن مختلفات فى الصفات والملاخ والثقافة ولكنهن متشابهات فى روحهن الصافية المقدسة ؛ وهذه فولاً ، وقد أرسلت لها خطاباً وأنا أعرف أنها لا تكتب الانجليزية ولا تستطيع أن تقرأها وستعتمد حتماً على غيرها فى قراءة خطابى أو الرد عليه ، وقد أثرت فى لطفها الشديدة وهى تودعنى حتى باب الميناء قبل سفر الباخرة بدقائق . ووصلتلى فى مصر صورتها فقط ولا أدرى هل هى التى أرسلت صورة فقط لعجزها عن الكتابة أم أن خطابها حجزته الرقابة وخاصة إذا كانت قد كتبتة باللغة الروسية .

ولورا وقد أرسلت لها خطاباً كذلك ووصلنى منها خطاب قصير وصورة فاتنة فى وضع رائع كتب عليها هل يعجبك هذا الوضع . أيتها أقرب إلى قلبى هل هى فولاً أم لورا أم كالينا وهى أجمل الجميع وأرقاهن ثقافة . الواقع أن لا هذه ولا تلك . فالحب لا ينمو فى بضع لحظات كما ينمو النبات الشيطانى ، وقد يكون ما حدث حباً أو شروعاً فى الحب . ولكنه قتل فى مهده ، قتل وهو وليد ، قتله البعد والسفر الفجائى . ولا أمل فى الرجوع أو العوده ونحن نحيا حياه أشبه شىء بحياه القراصنة حياه لا نريدها ولا نستطيع أن نغيرها

ولإنما نستطيع الصبر عليها إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

نزلنا هذه المدينة الخالدة بعد أن قضينا تسعة أيام سعيدة ، وما أسرع مرور الأيام السعيدة . ثم قضينا شهرين في استانبول بعد ذلك حيث لمسنا الفرق الشاسع البعيد بين البلدين . فهناك سماجة الأتراك وجفاف طبعهم . وغلظة قلبهم . وهنا أدب هؤلاء القوم وسماحة نفوسهم .

وفي تركيا الحدائق مفتوحة بالليل كما في روسيا مع فارق واحد هو خلو هذه الحدائق تقريباً من الزوار فهي صامتة موحشة كثيفة كأنها تنعى من بناها . أما في روسيا فليس هناك موضع لقدم في وسط الأضواء المتألثة بالليل والموسيقى العذبة الرائعة واللغة نفسها عذبة رائعة ، فكان اللغة والموسيقى توأمان لا تمل الأذن من سماعهما والفاتنات كأنهن في مهرجان رائع أو أسطوره من أساطير التاريخ وجلساتنا معهن طاهرة بريئة حيناً ، وتترك أثراً لطيفاً لا ينسى في غالب الأحيان .

ليس هناك أى وجه للمقارنة بين أوديسا واستانبول ، فقد قضينا في الأولى تسعة أيام مرت كأنها تسع ساعات ، وفي الثانية أنفقنا شهرين نخرج يوماً ونعتكف أياماً في سفينتنا لا نريد الخروج . غادرنا هذه المدينة الخالدة وكان العم ستالين على قيد الحياة .

والفكره التى علقـت بأذهاننا منها ، أنها أول مدينة ساحرة فائـة شاهدناها ، لا يضارعها فى عظمتها وروعـتها غير « روتردام » فى هولندـة و« سان جون » فى كندا ، وهى تمتاز عن هذه وتلك بالجنة الوادعة السعيدة ، يعيش فيها قوم سعداء محدودون ميزتهم العفاف والاعتدال وسماحة الخلق .

وإلى اللقاء يا أوديسا . . إلى لقاء قد يكون قريباً .

« اسلامبول »

٥ يوليه ١٩٥٢

ومعناها بالتركية « إسلام كثير » . وقد أنفقنا فيها شهرين كاملين ، ومنها وصلنا خبر مولد الجمهورية المصرية الأولى التى خلصتنا من استبداد العائلة التركية التى لم تشعر بمصريتها فى يوم ما . أنفقنا شهرين فى استانبول وتكون بذلك المدينة الوحيدة التى استطعنا دراستها دراسة كاملة فى مدة طويلة لم تسنح لنا فى بلد سابق . تنقلت السفينة من مكان إلى آخر فى ضواحي استانبول وعرفنا بسبب هذا التنقل أحياء كثيرة مختلفة مثل إستينيـة وليدو وكبتاش وجلطه وساريير وتقسيم والبسفور ، وهذين الأخيرين هما أجمل هذه الأحياء جميعاً وأقربها إلى قلوبنا .

وفى «تقسيم» وهو الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة وتتفرق

منه الطرق الى الضواحي الجميلة والمناطق الأثرية القديمة ، فى وسط
هذا الميدان حديقة كبيرة مفتوحة بالليل وإن كان الأتراك
ينصرفون عن هذه الحدائق الى النوادى الليلية المكشوفة حيث تكثر
ليالى السماع والطرب .

وعلى ساحل البحر عدة نواد كثيرة يقف على بابها الكثير من
الرجال والنساء والأطفال الذين يعجزهم الدخول . وبالرغم من
جهلنا باللغة التركية فقد كانت الموسيقى المنسجمة على صوت المطربة
الفاتنة شيئاً نطرب له ولا نمل سماعه . وقد يكون للنظر الجميل دخل
كبير فى زياده الطرب ، فعلى قمة إحدى الروابي المرتفعة جلسنا
نستمع وكأننا هى حفلة فوق سطح الهرم وتحتنا المدينة بأكملها
بقبابها ومساجدها وبيوتها وطرقاتها المتلوية الضيقة كأنها فى واد
عميق ، تتلأأ أضواء المنازل على مد البصر حول قطعة من ساحل
البحر الهادىء الساجى الذى يقسم المدينة شطرين وتمتزج به وتنفى
فيه أشعة القمر الفضية كما لو كانت بركة من الزئبق .

وفى البسفور وهو الطريق المنبسط الممتد على ساحل البحر
ويشبه الى حد ما ساحل الاسكندرية . وفى هذا الطريق السهل على
عكس الطرق الجبلية المرتفعة فى داخل المدينة . فى هذا الطريق
تكثر النوادى الليلية الهادئة ذات الجدران الزجاجية التى لا تحجب

الرؤية ، وتمتد في داخل البحر كأنها جزيرة صغيرة يحيطها الماء من جهات ثلاث ، وعلى طول الرصيف المقابل المشرقيات الخشبية الدقيقة الصنع والشرفات البارزة ، كتلك الصورة التي نتخيلها عن المباني في عهد العباسيين .

والعمائر الحديثة ذات طابع خاص يميزها عن الطابع المصري والروماني ، وفي إحدى المساجد الأثرية القريبة من الميناء رأيت ضريحاً لاثنين من العرب القدماء وهما (وهب بن هبيرة ، وسفيان ابن عتيبة) وكنت أود أن أقرأ شيئاً عن تاريخ هذين لأعلم ظروف تواجدهما ووفاتهما في هذه المدينة العريقة ، وكل ما أعلمه عنهما أنهما عاصرا عمرو بن العاص أثناء فتح مصر . وكان دليلي في ذلك المسجد تركية حسنة في مثل جمال الراهبة ، لم أكد أخلع حذائي حتى أقبلت ترش ماء الورد على رأسي وتقدم إلى علبة تحتوي على قطع الشيكولاته ، ثم جلست بجواري كي تتأهب للصلاة وأنا أستمع إلى ذلك الواعظ الذي أخذ يقرأ علينا القرآن بلغة غريبة لم أفهم منها شيئاً ، لغة ركيكة مليئة بالأخطاء والتحريف حتى سمعت أحدهم يقول : « حسبنا الله ونعم النكيل ، بدلا من الوكيل . » وقد كانت لغة الصلاة في الباكستان التي رأيته قبل ذلك أرقى وأسلم بكثير منها في تركيا ، وتطوعت الراهبة المسلمة بعد ذلك لتطوف بي في حجرات المسجد الأثرية ودواليزه الرطبة المعتمدة المنخفضة التي تكاد رؤوسنا

تصطدم بسقوفها ، وعند مغادرتي المسجد كان في وداعي حسناء
راعبة إذا جاز أن يكون بين المسلمات راهبات .

هيه يا قلب : ألسنت تريد صديقة في تركيا ، وكنت تسمع
وترى في مصر عن التركيات ذوات الجمال الأصيل العريق ، وقد
كانت تجاورنا في مصر عائلة تركية أفرادها ذوى جمال فاتن وبشرة
بيضاء كاللبن لا عهد لنا بها ، وأنت الآن في مهد الجمال وعرينه ،
الجمال الذى لا هو شرقى ولا غربى وقد يكون مزاجا بينهما . أيها
تريد ؟؟ هل تذهب إلى بائعة اللبن ، وتدور حولها بضع دورات
وتنسج الشباك حولها ، إذا كان عندك شباك أو كنت ممن يجيدون
نسج الشباك . هذه البائعة التى كانت تختلس إليك النظر وأنت تلتهم
عشاءك من الحليب والزبادى .

وهذه فتاة الصالون فى مثل جمال الروميات اللواتى تسمع عنهن
فى الأساطير وقد مس ذراعى عفواً ما بين نهديها الثائرين فتطلعت
أساريرها ببسمة عريضة زادت جمالاً وفتنة ، وزادها الدم الجارى
المتدفق فى خديها حسناً ونضارة . وقد رأيت حلقة الملايو من
قبل ، البوذية السمراء التى تميل الى الصفرة ، ورأيت حلقة روتردام
بعد ذلك ، ولم تكن هذه ولا تلك فى مثل جمال هذه الحلقة التركية .

وفى الأوتويس القادم من ضاحية سارير إلى ميدان تقسيم
وقفت بجوارى غادة فاتنة ترتدى ملابس فاضحة مكشوفة تكشف

عن الذراعين والباطنين وجزء كبير من الصدر ولم أستطع أن أمنع
نفسى من النظر إليها ، ولعل النظر كان به الكثير من الشراهة العنيفة
الواضحة وهذه الخبيثة قد لاحظت ذلك ، وبالرغم من أن بصحتها
رجل فقد كانت تثير غريزتى متعمده وعلى ملاحظها ابتسامة متخابثة
ونظرتى التى لم أستطع إخفاؤها مصوبة كالصاعقة إلى ماتحت إبطها
وهى ترفع ذراعا عارية فاتنة تهتز مع اهتزاز العربة وتهتز كذلك
خلجات وجهى التى لم أستطع ضغطها والتى لا أدرى أى تعبير كانت
تقرؤه هى يجعلها تزهو بفتنتها وسيطرتها . ونظرتى الجارحة التى
كانت تسرها بدلا من أن تسوؤها وتواجهها بدلا من أن تتجنبها ،
ويحضرنى قولٌ تولستوى عن هذه التى تهاجم أعصابنا وحواسنا فى
غير ما هوادة ولا رفق ولا يعاقبها القانون على ذلك .

ضقت ذرعا بهذه اللعبة السمجة التى بدأت تلفت إلينا الأنظار
وبذلت بعض الجهد لى أدير ظهري دوره كاملة رفقا بأعصابى
التي لا تريد هى الرفق بها ، ولعلها لم تفهم أننى أجنبي رغم بشرى
السمراء حتى نهينى عامل الأوتوبيس إلى المحطة التى أريدها بلغة
إنجليزية ركيكة . فكان فى ذلك خلاصى من أسر هذه الفاتنة .

وفى يوم من أيام الآحاد ذهبت لزيارة كنيسة (اياصوفيا)
ووقفت أمام البوابة الحديدية الضخمة فى انتظار موعد فتحها

وبجوارى عدد كبير من الزوار ، وعلى قيد خطوات منى سيدة تركية فاتنة فى العقد الثالث من العمر ومعها صاحبة لها أقل منها جمالا وعدة أطفال صغار ، وتملكتنى رغبة شديدة لكى يتصل بينى وبينها الحديث ، وما كدت أنجح فى ذلك حتى تدخل بيننا ضيف ثالث ثقيل الظل كان يراقبنى على بعد خطوات ، وانضم إلينا داخل الكنيسة بينما كنت أحمل له فى جنبى الغيظ بجانب الحب الذى أحمله لها ، ولكنى كنت أظهر له التجميل وأصطنع عدم الاكتراث ، ولم أكن فى حاجة إلى صداقة صديق أعرفه أو لا أعرفه ، وإنما كان يعينى أن أسير وبجوارى أنثى تبادلتى الحديث والابتسامات ولا شىء غير ذلك . وماذا كنت أريد منهما وكلاهما أم ، وإنما هى كلمة من أنثى أو حتى بسمة عابره تعمل عمل السحر فى نفسية كنفسيكى أضناها العطش وأحرقها الجفاف . انتهينا من رؤية الكنيسة وعرضت على إحداهما أن أذهب معهما لزيارة المتحف القريب منها الذى يحوى آثار العثمانيين فوافقت مرحباً ، ، وكان آخر عهدى بهما فى ذلك الفناء الخارجى الذى يحتوى على المدافع النحاسية المخضرة اللون بفعل الصدأ ، وعلى هذه المدافع كنت أقرأ النقوش والكلمات المكتوبة باللغة التركية القديمة ذات الحروف العربية والتى كانت هى لا أستطيع قراءتها كما كنت أنا لا أستطيع فهمها .

وقفت معها بضع لحظات بعيداً عن ذلك الطفيلي وهي لا تعرف من الانجليزية شيئاً ، وإنما كانت لغتنا الاشارات وبعض كلمات قليلة التقطتها من اللغة التركية ، ومن أسئلتها وهي تشير إلى الأطفال : هل عندك أطفال ؟ فأجبت بالنفي . ثم نظرت إلى مستغربة ولعل شاربى الضخم هو الذى كان يضيف سنوات إلى عمري ويجعلنى فوق الثلاثين وأنا دون الخامسة والعشرين فى ذلك الوقت . ثم قالت أأست متزوجاً ؟ فأجبت لا . وكأ كنت أريد أن أقول إنى أريد أن أتزوج هل عندك عروسة مناسبة لى ؟ ولكن اللغة لم تسعفنى بذلك ، وعندما انتهينا إلى الغرف المفروشة التى تحتوى على الفترينات الزجاجية المكسدة بالمجوهرات والتحف والملابس التاريخية . . فى هذه الغرف اختلط الحابل بالنابل وليس هناك موضع لقدم فى وسط صخب الأطفال وزحمة العذارى ، وفى غمره هذا الزحام افترقنا عنهما ، ودخلت غرفة إثر أخرى لعل أراهما ولكن دون جدوى وذلك الضيف الثقيل مصر على مصاحبى ، فانسحبت منه ، وأخذت طريقى إلى الباكسة وأنا ألعن سماجة الأتراك ، الرجال طبعاً ، وفى ذهنى صورتها هى . . . صورة رائعة حية للقاتنات التركيات .

الرحلة الثالثة

ريتا - عروس من هولنده

كانت تمضى يوم عطلتها الأسبوعية فى روتردام عند ما تعرفت عليها هى وزميلتها دوللى ، وكان معى أحد الزملاء . دعوناها إلى السينا فلبتا الدعوة وحددتا لنا موعداً الساعة الخامسة مساءً من نفس ذلك اليوم وكانت الساعة حوالى الثالثة فى ذلك الوقت .

أخذنا نتجول وننفق بعض الوقت حتى اقتربت الخامسة ونحن فى طريقنا إلى المكان المحدد الذى سنقابلهما فيه وإن كنت أظن أنهما تهربتا منا ولن نراها بعد ذلك . وزاغت عيني فى هولندية فاقنة حلوة القسمات ذات ملامح جميلة نبيلة تسير مع زميلة لها لا تدانيها جمالا . تقدمت إليهما ودعوتهما لتمضيا معنا بعض الوقت وقد شجعتنى هذه الحسنة بابتسامتها وسكوتها الذى يعنى القبول أكثر مما يعنى الرفض . فى الوقت الذى حضرت فيه ريتا وزميلتها وأسرع زميلي هارباً مبتعداً بينما أسقط فى يدي (وضربت لكمة) وكان أن انسحبت من الفتاتين انسحاباً ما زال يؤلمنى ذكره وما زلت أشعر بالخجل الشديد من نفسى كلما تذكرت هذه الفتاة المجهولة الاسم

وما ارتسم على ملامحها الجميلة النبيلة من ألم . وقفت مكانى حائراً
عنيداً أريد أن أتقدم الى هذه الفتاة الخجولة وأضرب بصداقة
ريتا عرض الحائط وألبي هذه النظرات العاتبة مرغبة مشجعة في
في أول الأمر ثم واجهة بعد ذلك عندما أخذت أعبّر الطريق إلى
صاحبي وزميلتيه . ولو كنت مستطيعاً لانصرفت عن هذه وتلك
بعد ما سببته لكليهما من حرج ، وإن كنت لم أخجل من ريتا
بقدر خجلى من هذه الفتاة المجهولة الاسم .

أما ريتا فقد حفظت لى ذلك ولم تغفر لى هذا الخطأ فيما بعد ،
وقضيت معها يوماً واحداً فقط فى الكافيه والسينما بعد ذلك ولم تمانعنى
بمانعة كبيرة عندما هممت بتقبيلها أول مرة بل كانت ممانعة تحمل
من الإغراء أكثر مما تحمل من الرفض . وسرعان ما توالى قبلاقى
الجماعة المنهومة بمناسبة وبغير مناسبة على شفتيها الرقيقتين حتى كادت
تدمى . أعتصرهما بكل قواى غير عابىء بذلك الرضاب الذى يصلنى
منهما .

ولست أدعى أنى فهمتها فهماً كافياً فى خلال الساعات القصيرة
التي أنفقتها معها ولكن ما أثر فى هو نفسيته الصريحة فى غير التواء
ومظهرها الرائع فى غير تكلف ، ومن أسئلتى القليلة وأجوبتها
الصريحة عليها تجبىنى بها من غير تحضير . هل تحب الإقامة فى مصر

وجوابها لا أمانع فى ذلك . هل لك أصدقاء شبان فى هولنده ؟
وجوابها نعم ثلاثة . وعند ما قلت فى دهشة ثلاثة أصدقاء فى وقت
واحد أجابتنى بصراحة عجيبه لقد تزوجوا من فتيات أخريات .
ما هى صناعة والدك ؟ فأشارت بغير أن تجيب الى قطار بعيد .

ودخلنا السينما فى تلك الليلة ولا أذكر اسم الرواية التى شهدتها
ولا أذكر شيئاً منها وبعد تردد منى طويل وبجوارى فانتة فى سينما
عامة يتشابك العشاق فيها بالأذرع والأيدى تحتنا وفوقنا وحولنا
ومن كل جانب ولا نرى فى الظلام المخيم غير رؤوس متدانية
متلاصقة تدير بيدها الهمس والنجوى . أخذت يدها الصغيرة الدافئة
بين يدى أضغطها ضغطاً رقيقاً وأضمها على صدرى وفوق شفتى .
وكان لم يكفى ذلك فأخذت يدى تزحف على ذراعيها وكتفيها
الصغيرتين وشفتي تلمس حنا خدها الرشيق وخصلات شعرها
الكستنائى . وأنظر إليها فأجدها مسبلة العينين فى شبه نصف إغماءة
فتمتد يدى أكثر من ذلك مطوقة خصرها الضئيل النحيل لأدير
بيدى الأخرى ذقنها الدقيق وأمس شفتيها فى قبلة سريعة خاطفة .

وفى الطريق العام حيث الضباب الكثيف وكان الشخص
لا يستطيع أن يرى على بعد أكثر من عشر خطوات فى أى اتجاه
كنت أوقفها عدة مرات لأقبلها قبلة طويلة لا تريد أن تنتهى حتى

اقرب منزلها وكان شيئاً يهتف بي ، اتى لن أراها بعد ذلك ، وقد كان ذلك .

* * *

دخلت غرفتي في السفينة مع دخول الصباح أقضى ساعة مسهدة قلقه حتى كان اليوم التالي ، وامتنعت الزوارق البخارية عن المرور بالقرب من السفينة التي كانت تقف بعيدة عن الشاطئ . امتنعت الزوارق بسبب ذلك الضباب الملعون الذي كان مصدر بهجتنا ومرحنا بالأمس نسير في جوفه وكأنما نسير في جوف السحاب .

ولما لم نرهما بعد ذلك فقد أرسل زميلي لصديقه برقية بالانجليزية يدعوها لمقابلته وسبب لها بذلك ضجة عائلية كبيرة . وأرسلت بدوري خطاباً الى منزلها في قرية هلفرسم أحدد لها موعداً لرؤيتها قبل سفر الباخرة . ولكني رأيت دوللي بعد ذلك مرة واحدة ولم أرها هي . وقد عرض على كثيرون أن يعرفوني بغيرها من الفتيات ولكني كنت صادقاً أرفض أن يكون لي ذلك القلب التجاري الذي لا يرحم أحداً ولا يرحمه أحد ، يتجر بعواطفه الرخيصة كل يوم وكل ساعة مع فتاه .

غادرنا روتردام مدينة الحب والخير والجمال .

مدينة الحب فقد كان لكل منا صديقة أو صديقات ذوى جمال
نادر ومعظمهن شقراوات تميل رؤوسهن إلى الضخامة .

مدينة الخير قبل أن تحدث نكبتها الأخيرة التى أطاحت
بأجود أراضيتها الزراعية الساحلية والتهم الفيضان والطوفان فى
ساعات ما أنفق فى تعميره وتشيدده مئات السنين .

وقد ظلت أوديسا مثلاً أعلى للمدينة الكاملة فى نظرى حتى
جاءت روتردام ومسحت هذا الصدى مسحاً ، وكلتاهما قد تعرضتا
لغزو الألمان فى الحرب العظمى الماضية . وأشهد أن آثار التخریب
والانقراض ما زالت باقية ظاهرة فى أوديسا أماروتردام فقد كانت
فى أوج عظمتها لا أثر فيها لعماره مخربة وللباني طابع أنيق لا تشركها
فيه بلد آخر . تلوح عليها مظاهر الجدة كأنما بنيت لساعتها . وقد
تأنق صانعها فى تركيبها ودقتها . فكل شئ دقيق أنيق وفى منتهى
الأناقة بعد ذلك .

وقد رأينا السيدات بعد أن انتصف الليل أو كاد يتسللن إلى
أفريز الطريق يردن ألا يراهن أحد ليغسلنه بمزيج الماء والصابون
حتى يصبح الطريق لامعاً براقاً لم نر مثيلاً لنظافته فى بلد آخر .

وفى هذا الجزء من العالم روح عالية للعمل والرغبة فيه والتسابق
إلى إتقانه . فى انجلترا مثلاً حيث النظام الشديد الذى يدخل كل

شيء ويزيد في كل شيء . بل يكاد يفسد كل شيء . فلهم أوقات راحة كثيرة تتخلل فترات العمل وهم في عملهم متباطئون متكاسلون حتى أصبحوا مثلاً في الحركة البطيئة الميتة ، فإن لبدنهم عليهم حقاً بل حقوقاً كثيرة فلا يصح أن يجهد في عمل . أما في هولنده فهم يعملون كأنما أصابتهم حمى العمل إذا كان للعمل حمى أو كأنهم في حرب وميدان تلك الحرب هو المصنع أو الباخرة التي يقومون بتنظيفها وإصلاحها في الحوض العائم الكبير الذي تملك مدينة روتردام وحدها ما يزيد عن العشرة منه ويجعلها ذلك في مقدمة الدول التي تبنى السفن .

وهم في كل هذه المرافق متحمسون محمومون كما يحم ويتحمس غيرهم في مواطن اللهو والعبث والفراغ . بل هم في مواطن اللهو والعبث والغرام معتدلون بعد ذلك يأخذون في مرح هادئ . وقدر سليم .

وفي هولنده كما في إنجلترا يشكون من فداحة الضرائب التي تبلغ ثلث دخل الموظف أو العامل العادى وقد تزيد عن ذلك في بعض الأحيان ، ولكن بجانب هذه الضرائب تأمين اجتماعى شامل ضد الحاجة والعوز والعجز عن العمل . وليس هناك فقير محتاج أو مريض عاجز ، وكلهم في مظهر واحد جميل يستمتعون بالحياة ولا يحملون لهاهما .

وقد أمنت وسائل عيشهم واستقرت وبعده عنهم الخوف

والإشفاق والقلق وأقبلوا على الحياة بعد ذلك بقلوب مطمئنة مرحة
في غير مجون ولا إفراط .

وأجمل شيء في روتردام المعارض الفنية الكبيرة ، وقد جعلت
لها واجهات عريضة متسعة مسقوفة ومضاءة بالليل تعرض اللوحات
الزيتية الرائعة التي تمثل مظاهر الحياة المختلفة في هولندا وتكثر فيها
مناظر السفن الراسية في الميناء ، وأمواج البحر الهادئة في ساعة
الغروب أو في ضوء القمر ، والأراضي الزراعية التي لا تخلو من
طواحين الهواء التي تميز هذه البلاد وترمز لها ، حتى نجدتها في
أوراقهم المالية الكبيرة .

وهولندا دولة بحرية من الطراز الأول ، وهي دولة زراعية
من الطراز الأول كذلك ، ولقد كنا نرى البيضة في مثل حجم قطعة
الصابون الكبيرة . وفي الطريق عدد كبير من الأكشاك الخشبية
الأنيقة لبيع البطاطس الساخنة ، كما تباع الذرة والفول السوداني
في مصر ، ولا تخلو هذه الأكشاك من غادة جميلة في معطف أبيض
أنيق وبيدها مقلاة ممتلئة دائماً وساخنة دائماً بذلك الصنف من الطعام
يتناوله الهولنديون في أكياس صغيرة من الورق يهتمونه واقفين
في ظلال هذه الأكشاك الأنيقة .

والبرد شديد جداً في هولندا حتى يصعب إخراج أيدينا من
معاطفنا والطريق مغطى دائماً بالجليد المتناسك كالصخرة حتى نسير

حذرين خوف الانزلاق ، وقد رأينا الجليد فى كندا أشد برودة مما فى هولنده ولكن كالرمال تغوص أقدامنا فيه وتترك آثاراً عميقة واضحة أما فى هولنده فكأننا نسير على صخرة بيضاء ملساء وعرة غادرنا روتردام وفاجأتنا فى طريق العودة إعصار هائل لا ينسى حتى أن المرشد الهولندى بالباخرة لم يتمكن من النزول فى مياه هولندا الاقليمية بسبب ذلك الاعصار العنيف ومكث معنا يومين حتى نزل فى ميناء دوفر الانجليزى .

وفى خليج بسكاي وهو اتصال الساحل الفرنسى بالساحل الاسبانى على شكل حرف ل فى هذا الخليج الذى يطلق عليه البحريون اسم مقبرة السفن رأينا أهوالا ستظل عالقة بأذهاننا لا تنسى لشدها ووبالها .

وقد عبرت هذا الخليج بعد ذلك عدة مرات وأذكر فى كل مرة وأنا وسط هذا الخليج الملعون أنه يجب أن أبادر بالاشتراك فى إحدى شركات التأمين ، لكثرة ما تغرق فيه السفن .

واستمر هذا الاعصار العنيف حتى بعد أن دخلنا حوض البحر الأبيض المتوسط . وبالقرب من شاطئ تونس سمعنا بالراديو عن حادثة غرق الباخرة الفرنسية الضخمة شامبليون بالقرب من بيروت وعدنا إلى ميناء الاسكندرية ونحن لا نصدق بالنجاة وقد ولدنا من جديد بعد أن رأينا الموت رأى العين .

الرحلة الرابعة

من مواليد روما

إسمها (Lili) ومعناها الزنبقة باللغة الانجليزية ، ذات ملاح رومانية صارمة وجمال صارخ عنيف . إنها شريكتي في هذه الجناية التي يبيحها القانون الايطالى في هذه البيوت الكثيرة الملعونة في شوارع جنوا الاثرية العتيقة . أجل إنها شريكتي بعد عدة مرات ألج فيها هذه الأبواب المتجاورة وأجد لأول مرة المناظر العارية . فأنزع نفسى انتزاعاً وأخرج من بينهم سليماً حيث أقضى ليلة ليلاً . فى غرفتي بالسفينة فى صراع عنيف مع الشيطان .

لقد حدث هذا عدة مرات كان يخيل إلى أنى منتصر على نفسى الأمانة بالسوء وشيطانى الذى يعربد فى أعصابى ووجدانى بلا شفقة ولا رحمة . لقد كنت منتصراً أو هكذا يخيل إلى ولكنى كنت فى الحقيقة كالبرج المتداعى على وشك السقوط بعد كل هذه الهزات العنيفة المتعاقبة . لقد كنت أقتل نفسى قتلاً بطيئاً مريراً ، وأنحف منه أن أقتل نفسى قتلاً سريعاً عاجلاً — لقد كنت مثالياً

ولكن على حساب صحتي وأعصابي . والله وحده يقدر أن أكون
مثالاً على غير ذلك الحساب الجائر .

أما الآن فأنا لم أخدع أحداً ولم أغرر بأحد . وإنما أشعر اني
أكثر واقعية عما كنت من قبل كما تغيرت نظرتي إلى هؤلاء البائسات
فأصبحت الرحمة والرثاء بعد أن كانت الكراهية والاشمئزاز ،
والنفور . وإن أخشى ما كنت أخشاه أن أفقد ذلك الشعور
بالبراءة الذي يميز الرجل العفيف كما تفقد هي وصاحباتها الشعور
بالحياء الذي يميز العذارى . ولكن ما حدث ينفي ذلك .

فقد وجدت فيها وهي ساقطة إنسانة لم تفقد إنسانيتها بعد
ورب قلب نظيف طاهر بين هذه القلوب يندر وجوده بين من
يطلق عليهن القانون والعرف اسم الشريفات . وأنا لم أفقد ذلك
الشعور بالبراءة بعد ما دمت أعامل كل فتاة وكل امرأة سواء كانت
شريفة أو غير شريفة معاملة كريمة نبيلة . فلست إلهاً ولست قاضياً
وأيضاً لست بلا خطيئة .

كان ذلك في جنوا في بدء رحلتي الرابعة وفي إحدى ليالي يناير
الدافئة في حجره مغطاه جدرانها بأربعة مرايا كبيرة وسقفها مرآة
واحدة متصلة ، وعند ما تمرر الطرف يميناً وشمالاً تجد أركانها تمتد
امتداداً لا نهاية له وتتضاعف صورنا تضاعفاً لا حصر له . وكنا في

جمع من المصريين في هذه القاعة التي أفردت لنا وفي وسطها تقف الجيالات تعرض إحداهن ابتسامة ، وتقوم الأخرى بما يحلو لها من دعاية أو عبث أو مزاح ثقيل ، وتقف ثالثة ساهمة صامتة تدير الطرف فينا كما تدير الطرف فيها ، وتجلس رابعة على طرف مقعد بجوار أحدنا لتأخذ معه في حديث قصير . تتعدد هذه الصور وتتضاعف تضاعفاً لا نهاية له حتى نرى هذه القاعة وقد تحولت الى فضاء بللورى واسع عريض . وفي رأسى خدر لذيذ مريح ممزجاً ببعض القلق المحض الذى ليس فى أعصابى هادئاً رقيقاً — ولكنه يحطمها بهدوئه ورقته أكثر مما يحطمها بقوته وعنفه .

كان ذلك الخدر يغمر تفكيرى فأشعر وكأنى لا أفكر فى شيء . لا أستطيع أن أفكر أو أحصر ذهنى فى شيء . فكان تفكيرى علق فى الفراغ أو أوقفته قوة عارضة عن عمله الطبيعى . وفي رأسى الذى لا أكاد أحس به صورتان متناقضتان إحداهما تقول نعم ، والأخرى تقول لا . وتستمر نعم ولا فى بطل أول الأمر ثم تأخذ فى سرعة عجيبة مجنونة حتى أشعر برأسى يتشقق ويتصدع ، وأحافظ على ملامح وجهى بيضاء باردة لا تقرأ شيئاً . فلو أفات منى ما يدل على القبول فلا مناص من القبول .

ولو تركت رأسى ينحنى انحناءة ما لا تنتهت هذه الحرب التي أعلنتها على نفسى ، وضعت حداً لذلك العرق البارد الذى أخذ

ينحدر على وجهى فى ليلة من ليالى الشتاء وتركت لتنفسى أن يسير
مستريحاً مطمئناً بدلاً من ذلك الكابوس الثقيل الذى أحمله وأتكلف
القدرة على حمله — وما أعجزنى عن حمله .

ثم كان ذلك وإذا برأسى يسقط وينحنى انحناءاً كبيراً وهذا
أصعب ما فى الأمر وإذا بالصفقة تتم بحيث يستحيل على الانسحاب
بعد ذلك .

وعادت الدقائق تمر سريعة متوثبة . ولا أدرى كيف نهضت من
مكاني وكيف صعدت خلفها على ذلك الدرج كأنتى شبه منوم أو
مصعوق . لم أتنبه لشيء من ذلك وإنما تذهبت للباب يغلق دوننا وبها
تتجرد وتعزى فأكاد أشرف على الاغماء ، أنظر إلى جمال لا عهد لى
به فأرتاع أكاد لا أصدق وفى صدرى صوت حبيس يريد أن ينطلق
هل سيكون هذا لى ، ويحييه صوت آخر ساخر لا ، ليس هذا لى
ولكنه للشيوخ وكل مالى منه بضع دقائق . وانقضت هذه الدقائق
فى ذلك اليوم وانقضت مثلاً فى اليوم الذى يليه . ولم يمنعنى من
الانطلاق مع ذلك الجمال المباح غير انطلاق الباخرة إلى مرسيليا .

ولكن فى ذهنى صورتين ترسمان بوضوح وجلاء كلما تذكرت
هذا الاسم «جنوا» . إحداهما هى ذلك الجمال المباح الذى لا نملك
غير الرثاء له والاشفاق عليه ولا نستطيع له أكثر من ذلك . وقد
أكون خيراً من غيرى الذى لا يحس رثاء ولا إشفاقاً ولا يشعر

لهذه الضحية بشىء . . . والصورة الأخرى هي مدينة القبور وما أوثق اتصال القبور بما ذكرته آنفاً ، فستنتهى الحياة والكائنات في يوم ما وستنتهى ذلك الجمال المباح وغير المباح وستنتهى ما أكتب وما أشعر وما أحس ، سينتهى كل ما في الدنيا من عاطفة وإحساس ولذة وألم ، سينتهى ذلك إلى تراب وفناء ، وفي ذلك التراب ستبلى الكتب والصحف ويذوى الجمال وتبلى السنين والقرون .

وفي إحدى ضواحي جنوا تقوم مدينة القبور على أرض رخامية منخفضة عريضة بين جبلين . مدينة كاملة من الرخام الأبيض والأسود والمتعدد الألوان ويسمونها Camp Santo

وعلى باب كل مقبرة تمثال حجري رائع يرمز للموت في صورته البشعة وأثره الممزق للقلوب . ومن أروع تلك التماثيل تمثال حجري لرجل عملاق يحمل على صدره جثة زوجته المتوفاة ويطبع على جبينها الوضوء . قبل الوداع ، وآخر لقسيس شيخ يقرأ الانجيل وقد وقفنا مذهولين أمام روعة هذا التمثال الأنيق من البرونز لا ندري كيف استطاع النحات أن يطبع على تمثاله هذا كل معاني الاستغراق والتفكير والتأمل فكأنه صورة حية لا ينقصها إلا النطق ، فيخيل إلينا أننا أمام شخص عادي ينبض قلبه بالحياة ، يفكر كما نفكر ونجرب في عروق رأسه الأصلع دماء الحياة . وتمثال آخر فظيع لامرأة جالسة على عتبة دارها تحمل في يدها جمجمة ميت وأخرى

تحمل طفلها الرضيع أمام زوجها الراحل ليقبله ميتاً، لو كان يستطيع الميت أن يهدي القبلات . وهكذا كان على كل مقبرة من هذه المقابر تمثال رائع يصلح أن يكون موضوعاً لمقال طويل . والأرض مفروشة بالرخام النادر الثمين ؛ والمدينة كلها بأرضها وسقفها وأعمدها ذات طابع روماني أنيق .

وفي مدخل هذه المدينة تقوم أكشاك خشبية أنيقة لبيع الزهور وإن عظمة هذا الشعب هي بغير شك في روعة التماثيل التي لم نر مثل كثرتها ودقتها في أى بلد آخر ؛ أما غير ذلك فليس هناك غير سماجة الشعب الايطالى يشبه في ذلك الشعب التركى كأنهما توأمان ، بل إن الحياة في كلتا البلدين متشابهة متقاربة .

وليس هناك وجه للمقارنة بين إيطاليا وهولندا مثلاً ففي هولندا كانت النظافة والأمانة والذوق هي ميزة ذلك الشعب الراقى رجالاً ونساءً . أما في إيطاليا فعلى عكس هذه الكلمات الثلاث على طول الخط ؛ ولعلنا نصيب لو قلنا إن هذه المعانى الثلاث تظهر واضحة جليلة في تماثيلهم وصورهم فقط .

ولن ننسى أننا كنا نغيب دائماً في المحلات الكبيرة التي ندخلها ونغيب غيباً فاحشاً ، لا لشيء إلا لأننا أجنب في وسط شعب غير أمين في معاملته للأجانب .

والعمائر في جنوا ذات طابع يميل إلى الضخامة والفخامة بعكس الطابع الهولندي الذي يميل إلى الحجم الصغير الأنيق .

وفي إيطاليا هذه الأقواس الحجرية الضخمة والأعمدة من الرخام على جانب الطريق العام تحمل سقفاً عالياً مرتفعاً مثل سقوف الكنائس محلى بالرسوم والتصاویر المذهبة . والأرض تغطيها قطعة واحدة من البلاط ذات لون واحد ممتدة بطول الرصيف الممتد ليس فيها أثر لاتصال أو انفصال ، محلاة أطرافها بزخرف أنيق منسجم مع لون السقف المذهب والأعمدة الرخامية على جانبي الطريق ويصبح التلتوار بأعمدته وسقفه وأرضه لا يقل ضخامة ونخامة عن أفنية الكنائس الأثرية الضخمة تحليها هذه السجادة الأنيقة من البلاط والتي برع الايطاليون في صنعها فجاءت جديدة بالقصور وليس بالطريق العام .

مرسيليا

لم تطل إقامتي في ميناء مرسيليا غير ساعات معدودة قضيتها متجولاً في هذه الميناء ولم أصعد إلى الباخرة إلا قبل إبحارها بدقائق معدودة ، وكان دهشى كبيراً عند ما لم أجد أثراً للاستقرائية الفرنسية التي كنت أتوقعها ، وإنما رأيت شعباً كادحاً على عكس ما كنت أتوقع لا يعرف الاستقرائية وكأنه قد عافها وزهدا .

وقد رأيت الارستقراطية بعد ذلك في ميناء نيو أورليانز
الأمريكي . أما في مرسيليا فقد كانت المقاهي مكشوفة على التلوار
كما في مصر وتركيا ، والصوماليون السود يستدفئون بحرارة الشمس
خارجها . رأيت مدينة شعبية ليست في مثل ارستقراطية أمريكا
أو نظافة هولنده ، أو نظام إنجلترا ، وقد تكون فيها هذه
الارستقراطية والنظافة والنظام ، كما هو في هذه البلاد سواء بسواء
ولكني لم أمض بها أكثر من عدة ساعات قضيتها متجولا
مشتريا بعض الحاجات .

وكم كنت أود أن تمتد إقامتي أسبوعاً على الأقل أرى فيه
الفنادق الفرنسية ، أو ذلك الفندق بالذات الذي قرأت عنه في
إحدى القصص عسى أن أنفق ليلة أو عدة ليالى أرى فيه الحياة التي
مرت على كاتب القصة ، ومن يدرى قد أقوم بمثل هذا الدور الذي
قام به ، وقد تكون قد انتهت هذه الفرص التي تبيع القيام بمثل
هذا الدور . ولكن هذه الساعات التي أنفقها في غرفة ما في فندق
معين ستذكرني بكاتب هذه القصة أو بطل ذلك الدور . وهو
يكتب عن هذا الفندق وفي هذه الغرفة قبل مضي جيل كامل .

لم تسنح لي هذه الفرصة التي كنت أريدها وعسى أن تسنح لي في
يوم ما . وما أجمل أن يقرأ الانسان عن أثر من هذه الآثار أو
مشهد من هذه المشاهد ثم يأتي اليوم الذي تقذف به الأقدار ليجد
نفسه وسط هذا الأثر وفي قلب هذا المشهد .

كندا

لقد كنت أرى فى أحلامى رؤى غريبة كأنتى أظأ أرضاً مجهولة وأخاطب أناساً غرباء غير معروفين وكأن أحلامى قد تحققت وكتب لى أن أسير فى شوارع الملايو وكلكتا ومرتفعات استانبول وأوديسا ثم أرى الجليد يغطى شوارع روتردام وسانت جون .

وما هى أحلامى قد تحققت فهل تتحقق أمانى ؟ إن أمنيى أن أعيش لمدة أربع سنوات أو خمس فى بلد مثل كندا أو الولايات المتحدة لكى أعمل وأدرس فى وقت واحد لأحصل على شهادة Ph. D.

وحياتنا فى البحر مغامرة متصلة لا تنتهى ، وكانت البأخرة على وشك الغرق قبل دخولها سانت جون بيومين وذلك بسبب مرورها فى قلب عاصفة ثلجية عنيفة وفى ذات الوقت عجز الربان عن معرفة موقع السفينة بالنسبة لأى شاطئ ، وتعتبر السفينة تائهة فى مثل هذه الحالة . وقد أرسل وهو انجليزى فى طلب ما عندنا من الكتب المقدسة وما زال حتى هذه اللحظة مصحفين قديمين معلقين فى غرفة القيادة . هذه حياتنا فى البحر نتوقع الغرق بين لحظة وأخرى وعين كل منا على منطقة النجاة . أما حياتنا فى البلاد التى نراها فهى للأسف حياة قصيرة لا تشبع ، قليلة لا تزيد عن ساعات كما حدث فى مرسيليا .

وليست كل البلاد التي نراها نعجب بها ؛ فهناك بعض أقطار مثل الهند والملايو لا نود أن يحكم الله علينا برؤيتها مرة أخرى . أما حياتنا على ظهر السفينة فنحن نعيش في جو مصرى خالص نعاشر قوماً مصريين لا نتكلم الانجليزية إلا في القليل النادر وكأننا نعيش على قطعة أرض مصرية لولا ما نشعر به من دوار البحر .

وما هي السعادة التي نشعر بها ؟ إنها في هذه اللحظات القليلة ونحن نستمع إلى أغنية أو قطعة موسيقية . إننا نشعر بذشوة لاحت لها ونحن نستمع على ظهر الباخرة إلى شكوكو وهو يقول حبيبي ياللي أو جبر الخواطر وأم كاثوم وهي تغنى يا صباح الخير . إننى أتخيل الكثيرين يسمعون هذه الأغاني بآذان غير واعية وليتهم يرون كيف تعربد بعواطفنا كل أغنية .

لا لأننا عاطفيون أكثر مما ينبغي ولكننا البحر الذى يثير فىنا مشاعر مختلفة لا تخلو من الخوف والاشفاق والقلق . مشاعر أثرت فىنا لا نستطيع أن نمحوها لأنها جزء منا ، جزء من بيئتنا وحياتنا التى ألفناها من قبل ، ولو كنا فى سانت جون .

وسانت جون مدينة صغيرة فى كندا على شاطئ الأطلسى بالقرب من الولايات المتحدة . وأجمل ما بها البيوت والفيلات الخشبية الأنيقة ويغلب عليها اللون الأبيض بسبب الجليد المتراكم

حولها كأنه الصخور الضخمة . والبرد شديد جداً في كندا ، البرد الذى يلفح الوجوه ويتخلل الأحذية المصرية الرقيقة ولم يرحمنا منه غير استعمال Over Shoe وهو حذاء من المطاط والصوف يلبس فوق الحذاء العادى . والطريق مغطى بالجليد الأبيض الهش على ارتفاع يزيد عن قدم فى بعض الأحيان بحيث تغوص أقدامنا فيه وتترك آثاراً عميقة واضحة بعد أن نمضى سهرتنا البيضاء .

والقوم متدينون جداً فى كندا . فالبار الأمريكى الفخم ليس به غير اللبن والكوكاكولا وغير ذلك حيث أن القانون يعاقب على شرب الخمر . ومحلات الأزياء الكثيرة المنتشرة فى سانت جون وبها من العرائس الجميلات ما لا يحصىه العد وقد وقفت أمام إحداهن مأخوذاً من جمال كجمال التمثال وصفاء كصفاء الراهبة أهدق فيها بنظرات طويلة لا أود أن أترك مكانى حتى نهينى من معى فتركته كارهاً وهى تبسم لنظرات ذلك المصعوق . وعند انصرافنا ونحن نرتقى الدرج رأيتها تبسم لذلك المقيم الذى هو أنا فتجاسرت وأشرت إليها إشارة التحية والوداع . ولم أنتظر الرد على ذلك فلم أكن أريد أن أعرف إن كان هناك رد أم لا .

ومع إحدى العاملات الفاتنات وقفت أشتري منها بعض الهدايا وكانت تطيل معى الحديث وحديثها عذب تتخلله الابتسامات

والتعبيرات . والواقع اننى كنت جائراً لا أدرى : هل هذه المعاملة
الريقة الكريمة خاصة بى وحدى ؟ أم أنها من ضمن عملها كما تعمل
المضيفات .

وفوجئت بها عند انصرافى وهى تقول Good bey وكان ردى
وما زلت فى حيرتى Good bey وكان يجب أن يكون الرد غير ذلك
وغادرنا سانت جون وقلوبنا معنا لم تسرقها منا إحدى السارقات
الفاتنات وإن كنا نرحب بهذه السرقة .

والموسيقى المنتشرة فى سانت جون هى موسيقى الغرب ، وقد
بدأنا لكثرة استماعها لا نتذوق فيها لذة كبيرة كأنها لغة كنا نجهلها
ولا نفهم شيئاً من مقاطعها وكلماتها . أما الآن فهى لغة نفهمها
ونطرب لها ونشعر بالفارق الكبير بينها وبين الموسيقى الشرقية
الناشئة من حيث عظمة صناعتها ودقة تركيبها .

ومن المناظر التى لا تنسى مناظر صوامع الغلال فى كندا وتبلغ
فى مثل ارتفاع إيمويليا أو تزيد متصلة بأنايب معلقة لتفريغ
القمح فى جوف السفن . والآهالى مزيج ولكنه مزيج متجانس من
الخلاسين والسود والمهاجرين واللبنانيين والأوروبيين من بلاد
مختلفة وقد نسى كل من هؤلاء أو تناسوا جنسياتهم القديمة فهم
كنديون مخلصون لوطنهم كندا معززون بجنسيتهم يعيشون فى مظهر

واحد جميل لا أثر للتفرقة فيه بين أبيض وأسود. وكأنى بهذه البلاد
وقد امتزجت بها حضارة إنجلترا والولايات المتحدة فجاءت شيئاً
رائعاً فريداً متفوقاً على البلدين فى مدينتها ونظافتها ولون الحياة .

وبعد فها هى سانت جون كما رأيتموها . فهل تسمح لنا الظروف
والأيام برؤية هذه المدينة الساحرة مرة أخرى ؟

وليس معنى ذلك أنها سحرت كل من معنا من أفراد ال Crew
فما الكثير الذى لم يرض عنها ولم يعجب بها . ولعل السبب فى ذلك
هو خلوها من الشهوات والمهرات الحمراء الموجودة فى بلد مثل
جنوا مثلاً . فهى قلعة متدنية حصينة فى نصف الكرة الغربى ولم أر
مثل قدسيته من قبل . والحق أنى أحد المعجبين القلائل بعظمة
هذه المدينة وبساطتها .

كوبا

٢٥ فبراير ١٩٥٣

انتقلت الباخرة من مدينة سانت جون إلى جزيرة كوبا فى
خليج المكسيك وهى إحدى مستعمرات إسبانيا القديمة وهى الآن
لم تتخلص تخلصاً كاملاً من نفوذ الولايات المتحدة .

والجمال فى كوبا يغلب عليه الطابع الإسبانى . الشعر الأسود ،
والعيون السوداء كلها ، والبشرة الشديدة البياض يشبه إلى حد ما
الجمال المصرى .

والبيوت مفتوحة فى كوبا بسبب الحر الشديد . وفى هذا بعض
الشبه بما رأينا فى بلاد الملايو غير أن الأهالى يجلسون فى كوبا أمام
بيوتهم فى معظم الأوقات ليمضوا سهراتهم وسمهم على كراسيهم
الهزازة الأنيقة ولغتهم إسبانية كلغة أمريكا اللاتينية Caetliner
تختلف اختلافا طفيفاً عن اللغة التى تنطقها إسبانيا . وبها بعض
كلمات عربية مثل كلمة سكر وكلمات قد تكون بدائية مثل كلمة (واو)
ومعناها الأوتويس . وحمى الرقص منتشرة فى هذه الجزيرة سواء
فى البارات الخشبية الكثيرة التى تشبه ما نراه فى أفلام رعاة البقر
الأمريكية أو بيوتهم الخشبية المكشوفة ولهم رقصات خاصة تختلف
اختلافا تاما عن الفالسات التى تعرفها أوروبا والولايات المتحدة ،
رقصات خاصة لا يشاركون فيها أحد . وذلك غير رقص المرأة على
دق الصنج وتسلط على جسدها أضواء حمراء باهتة تزيد فى خطرها
وهى تتلوى كتلوى الصورة التى تتخيلها عن راقصات ألف ليلة .

ومن المناظر التى تستحق التسجيل فى طرق هذه المدن
الصغيرة هو منظر ذلك الحصان الكوبى القصير الأرجل ويغلب

عليه اللون الأحمر يمتطيه الرجال بقبعاتهم العريضة من القش والقرويات بأكتافهن السمراء العارية ومن خلفهن الأحمال من جوز الهند أو عيدان القصب وهذه هي وسائلهم للاتصال بين مساكن القرية وما يجاورها من مزارع .

وفي كوبا استقرت الباخرة بالقرب من مدينة « منزانللو » لمدة بضع ساعات قليلة ثم عادت إلى إحدى هذه القرى الصغيرة التي تعيش على مصانع السكر وكانت هذه القرية « سياريكا » . ولما لم نر شيئاً مسلياً في هذه القرية التي تكاد تكون مستعمرة خاصة للوظفين والعمال في مصنع السكر ، كنا ننتقل لتمضية سهرتنا مساءً إلى قرية أخرى تبعد عنها ١٥ دقيقة بالأتوتويس أو التاكسي وعندما لا نجد الأتوتويس أو التاكسي كنا نقطع المسافة سيراً على الأقدام في طريق هادئ ساكن على ساحل البحر ولا شيء غير الليل الهادئ المترقب ، واضطراب الماء على الساحل الرمل ، وهدير الجنادب في الأرض المزروعة ليشق كبد هذا السكون الشامل في صوت أشبه بالصراخ الحاد .

وخلفنا مدينة تختفي معالمها وآثارها ، وأمامنا يظهر الظلام الكثيف المطبق ؛ وكل شيء هادئ ساكن مترقب لا يسمع غير قرع أقدامنا على الرمال الناعمة ، وعبث النسيم الخفيف بذلك الدغل الكثيف الذي يقوم دون الأرض البكر كالسياج .

ثم تختفى أضواء المدينة التي خلفنا اختفاء تاماً بعد أن ينعطف بنا الطريق . . ولم تظهر أضواء المدينة التي نقصدها . وفي غمرة هذا الظلام المطبق وما يبعثه في النفس من الروعة والروع ؛ عندما يطرق الانسان لأول مرة أرضاً مجهولة ولغة مجهولة ؛ ومدينة لا يدري عن أهلها أو نوع الحياة فيها شيئاً ؛ وفوق كل ذلك الليل المطبق والظلام المترابك ؛ ونحن كالأشباح نخترق إلى غايتنا الليل والظلام . وأخذت المدينة تدنو منا شيئاً فشيئاً أو تدنو منا وكأننا نقذف بأنفسنا في أضوائها وطنينها اللذين بددا الظلام والسكون .

وكانت المدينة واسمها دكانيشويلا، تحتفل بعيد الاستقلال عن الولايات المتحدة وكان ذلك يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٣ ويشبه إلى حد ما احتفالاتنا بمولد الحسين والمولد النبوي مع فارق واحد هو عدم ظهور الجلابيب ، فالكل في ملابس أنيقة بسيطة ؛ ولولا وجود اللغة الاسبانية لكانت صورة مطابقة لما يحدث في وطننا .

وقفت خلف شلة من الفتيات الأنينات اللاتي شعرن كما شعر عدد كبير من الأهالي بأنى أجنى عن أهل هذه البلاد .

ورأيتها تبسم لى ورأيتنى أبسم لها وفهمت من حديثها إلى صديقاتها كلمة سيجار فأخرجت علبة سجائر وقدمتها مفتوحة لهن ، ثم كانت بداية الحديث بالاسبانية التي لم أكن أعرف منها حرفاً في ذلك الوقت وحيناً بالانجليزية وأحياناً بالاشارات .

ثم رأيتها تنادى إحدى صديقاتها لتقوم بالترجمة بيننا ؛ وهكذا تجمع حولي أكثر من خمسة عشر فتاة يسألنني مختلف الأسئلة عن جنسي ووظيفتي ثم عن مصر ومحمد نجيب وكوبا وأيها أجمل فتيات مصر أم فتيات كوبا وقد شهدت لفتيات كوبا . وعند ما سئلت : هل تعجبك الإقامة والزواج في كوبا أجبت نعم . وكان السؤال الثاني : من التي تميل إليها ؟ فلم أرتبك وفي الحال أشرت إليها فهي أول من تبسم لي . وكانت كلارا التي كانت تتابع حديثي الذي يترجم لها ، ويتلون وجهها بتعبيرات صافية رائعة عذبة كأنها نجيب بوجهها وعينيها كأروع ما تكون الاجابة باللغة واللسان .

وعند ما سئلت : متى ستسافر الباخرة ؟ أجبت بعد يومين ، وأجابت بأن تمرر أناملها على أهدابها تمثل كيف ستسيل من عينيها الدموع . وفي هذه الليلة كنت حديقا لكلارا ولجمع كبير من فتيات وفتيان المدينة الصغيرة ودعونا عدداً كبيراً منهم لزيارة الباخرة .

وفي صباح اليوم التالي زارنا عدد كبير من المدرسين الكويتيين الذين يجيدون الانجليزية ، وقت بشرح الصور الملونة الكبيرة المعلقة في ممرات الباخرة من الآثار المصرية .

وفي الكابين الخاص بي كان كل منهم يريد أن يذكر مصر بشكل ما فيطلب أحدهم طابع بريد أو قطع من العملة المعدنية الصغيرة ، ويطلب الآخر مجلة أو جريدة ذات حروف عربية .

وتسمع من ذلك الاسطوانات المصرية الراقصة . وفي المساء كنا مدعوين أنا واثنين من زملائي في حفلة خاصة بهم في أحد الفنادق وكان لكل منا صديقة يجلس بجوارها على المائدة وكانت بجواري كلارا التي بدأت تعلنى بضع كلمات قليلة اسبانية وتسالني بالإشارة هل ستعود السفينة يوماً ما إلى كوبا ، ويكون جوابي بالإشارة أيضاً . الله وحده يعلم جواب هذا السؤال .

فقد كانت سفينتنا تقصد كندا لا كوبا ، ومن كندا جاءت بها هذه الرحلة مصادفة ، وكانت مصادفة جميلة وقد تعود أولاً تعود .

غادرنا ميشويلا في أول يوم من أيام مارس إلى مدينة سانت كروز ملتفين حول شاطئ كوبا الجنوبي في البحر الكاريبي .

وأنفقنا أياماً ستة تستكمل الباخرة ثمنها من السكر الذي تنتجه هذه البلاد . . . ولا شيء في كوبا غير الموسيقى والرقص ، فالشعب الكوبي يعيش ليومه فقط لا يفكر في غيره يعيش لياكل ويشرب ويرقص ، وهم يكرهون الأمريكيين من سكان الولايات المتحدة كراهة مطلقة .

والبحارة الأمريكيون يقابلون بالصفير من الصبيان والأطفال في الطرقات الصغيرة الضيقة ، وقد كانت بلادهم مستعمرة أمريكية يوماً ما ، وقد استقلت اليوم ولكنها ما زالت واقعة تحت تأثير النفوذ الأمريكي ، والدولار الأمريكي يتداوله الناس في البيع

والشراء كما يتداولون الدولار الكوبي سواء بسواء ، بغير حاجة إلى عمليات التبديل التي تقوم بها البنوك في غيرها من البلاد .

والأهالى يعيشون فى مستوى معيشة لائق ، ومنازلهم خشبية فى معظم الأحيان غير المترفين القلائل أصحاب الأقطاعات الكبيرة فلهم منازل صغيرة من الحجارة ، وقد أتيح لنا أن ندخل منازلهم وفيلاتهم الخشبية الأنيقة ، وبها من الأثاث أو الرياش ما يليق بالقصور .

ولا يخلو بيت من بيوتهم البسيطة من فريجيدير ومكنه كهربائية وأثاث يدل على الذوق السليم ، والأرض الزراعية التى كنا نراها فى ضوء النهار ، فندھش لولونها الأحمر كأنها صبغت بالدم . أرض شديدة الاحمرار كثيرة الثمار والخصب ، وما أبدع مناظر الطبيعة عند ما تأخذ ألوانها الحقيقية الثابتة الناصعة كأنها فيلم سينمائى ملون يسجل الطبيعة أروع من حقيقتها ، بما يزيد عليها من ألوان ليست فيها ، أو ليست بمثل نضرتها وقوتها ، وكأننا فى كوبا فى وسط ذلك الفيلم ، طبيعة صارخة الألوان ليست باهتة ، كأنها الطبيعة كما يجب أن تكون فى كل البلاد ولكنها ليست كذلك فى كل البلاد .

فهذه البلاد لم تستنزف بعد ، وفيها أراضى شاسعة لا تجد من يزرعها بسبب قلة الأيدى العاملة ، والحكومة القائمة دكتاتورية كمعظم بلاد أمريكا اللاتينية . والجنرال « باتاتا » يحكم هذه البلاد

حكماً صارماً مخيفاً ، حتى كان الناس يتهايمسون عند ما يمر ذكره على ألسنتهم ، والتهمة التي يرعب منها الجميع وتلجم ألسنة الجميع هي تهمة الشيوعية وما أقسى عقاب الشيوعية في بلد تحت نفوذ الولايات المتحدة .

ولا يبعد عن ميناء نيواورليانز الأمريكي أكثر من يوم وبعض يوم والكوريون يعتبرون أنفسهم أمريكيون لاحقاً في الولايات المتحدة ولا تأثراً بها ، ولكنهم يعتبرون لفظة أمريكا خاصة بالأمريكيين خاصة بسكانهم جميعاً بما فيها سكان الولايات المتحدة . وهم يطلقون عليها اسم الولايات للاختصار . كما يطلقون على شعبها لفظة Nortamericano .

والحياة بالنسبة لنا في هذه البلاد شاقة متعبة ففي سيادিকা كان علينا أن نعبّر قنطرة خشبية تحمل قضبان سكة حديد ضيقة ويسير مع امتداد هذه القضبان محاذين بها مدة تصل إلى نصف ساعة في مغامرة عنيفة عرضة للسقوط في الماء من هذه الفتحات الكثيرة والألواح الخشبية الضيقة التي تضطر للسير عليها لنصل إلى الباخرة وذلك لعدم وجود رصيف في هذه البلاد . وفي سانت كروز . كانت الباخرة تقف على بعد ٣ أميال من الشاطئ بسبب قلة عمق المياه في طول هذه المسافة ، ولم يكن هناك قنطرة خشبية نعبّر عليها وليس من المعقول أن توجد قنطرة خشبية طولها ثلاثة أميال .

لذلك كان لا بد من إنزال القارب الديزل إلى الماء لينقل أفراد ال Crew في سهرتهم البيضاء أو الحمراء إلى هذه القرية .

ولم أكن أتخيل أنى سأركب هذا القارب فى يوم ما إلا فى ذلك اليوم المشؤوم الذى تغرق فيه الباخرة ، وكان على تشغيل الماكينة الديزل فى هذا القارب الملعون لمدة يومين من الأيام الستة ، ولم يكون عجيباً أن أقوم بقيادة هذا القطار الفاجر ليمضى سهرته العابثة غالباً ، وأعود بعد ذلك لأمضى سهرتى الخالية البيضاء فى غرفتى بالسفينة . . ولعل الشيطان وحده يعلم كم عدد المصاحف أو الكتب المقدسة التى يحملها ركاب هذا القارب ، وكم عدد الجلود الواقية التى يعرفها الزناه .

سواء علم الشيطان أم لم يعلم كان على هذا القارب أن يسير كل ليلة حاملاً شحنته الكاملة من طاقم السفينة وبجارتها إلى ذلك الشاطئ الهادئ . حيث الموسيقى الإسبانية والجمال الاسباني العذب . وفى أحد هذه الأيام وقد كفت الماكينة عن الدوران وما كدت أنظر إلى أجزائها المكشوفة وأديرها حتى أفلتت منى صرخة لا أدرى كيف أفلتت ونظرت وإذا بالكلاش المكشوف ينزع منى بدلة العمل التى أنا مرتديها حتى وسطها تقريباً ، والله وحده أراد أن يكون قماش هذه البدلة من النوع الهولندى الرقيق حتى أن جذبة واحدة نزعتة وخلعتنى منها أو خلصتها منى ، وماذا لو أبى ذلك القماش

أن ينتزع ، وقاوم أن يتمزق بعد أن يقبض عليه الكلاتش بقبضته الحديدية كالأخطبوط .

غادرنا سانت كروز . في طريقنا إلى الولايات المتحدة . وفي حقيبتى ثلاث اسطوانات موسيقية راقصة . هى أروع ما سمعت فى الحياة . وسأذكر عند ما أسمع هذه الموسيقى فى القاهرة أو الاسكندرية أو أى مكان آخر سأذكر طرقات كاميشويلا الهادئة والفيالات الخشبية الأنيقة ، والفردوس العائم فى خليج المكسيك وسكانه الوادعين الكرماء . الحياة البسيطة الممتعة ، والأيام القصيرة السعيدة وما أسرع مرور الأيام السعيدة .

سأذكر كل ذلك ، وسأذكر كلارا الاسبانية الثانية من يدرى قد يكون هناك لقاء فى يوم ما وقد لا يكون هناك غير الذكرى وما فيها من مرارة وقسوة وألم .

كانوا يظنوننى اسبانياً

٨ مارس سنة ١٩٥٣

فوجئنا بلافتة بغیضة فى الترام والأوتوبيس عليها كلمة « مقاعد خاصة للبلونين » ، وكنت أجد هذه المقاعد فى الخلف دائماً ، ولكننى كنت لا أعبأ حيث أتى مصرى حر ولست زنجياً أو خلاسياً من أهل البلاد فكثيراً

ما كنت أجلس فى أى مقعد خالى وأتعمد أن يكون فى المقدمة دائماً كان ذلك فى مدينة تيوا درليانز فى جنوب الولايات المتحدة فى يوم من أيام مارس سنة ١٩٥٣ ، وفى هذه المدينة البغيضة قضيت يومين مرا كأنهما عامين لم أكن أعلم أن هذه اللافتة قابلة للحركة والمرور على المقاعد الخلفية ، فإذا جاء زنجى ولم يجد له مكاناً فى المقاعد الخاصة بالملونين فإنه يجلس فى أحد مقاعد البيض بعد أن يرفع اللافتة ويضعها على مقعده الجديد .

لم أكن أعلم هذا عند ما جلست فى مقاعد البيض وفوجئت بسيدة زنجية تطلب منى أن أغير مكانى إلى الأمام حيث مقاعد البيض ، والتفت فرأيت اللافتة خلفى فلم أتردد وحمدت الله أن حدث هذا ولم يحدث العكس عند ما يطلب منى أبيض أن أغادر هذه المقاعد إلى الخلف ، وكثيراً ما كانوا يظنوننى إسبانياً فى المحال الكثيرة التى كنت أدخلها فكنت أقابل دائماً ببعض كلمات إسبانية فألفت نظرهم إلى اننى مصرى لا إسبانى ، ولعل هذا هو السبب الذى لم يجعلنى أصطدم بأحد من البيض فيما لو حدثت اهابة لى .

وبالرغم من أن القوم عندهم التمييز الكافى بين الزنوج الملونين وبين الأجانب والغرباء سواء كانوا مصريين أو إسبان أو هنود ، حيث أن سكان هذه البلاد متقاربون فى الصفات والملاخ وبالرغم من أنهم يميزون تمييزاً كاملاً بين هؤلاء الغرباء وبين مواطنهم من

الزواج فإننا كنا نسير في طرقات هذه المدينة البغيضة والخوف
يملاً قلوبنا ، وليست معنا حريتنا التي كانت معنا في البلاد الكثيرة
التي رأيناها من قبل . كنا نسير ونحمل في قلوبنا الكثير من
الخوف والقلق إذا ما دخلنا كازينوا أو ملهى أوسينما أو غير ذلك .
فوجئنا بهذا الوضع المزرى ولم نر أسلم من تجنب هؤلاء القوم
في ملاهيهم وكازيناتهم ، وكان يكفيننا التجول في طرقاتهم العريضة
الضخمة نشاهد فرقا شاسعاً بين طبقتين ؛ فهناك الترف والمال
والارستقراطيات البغيضة إلى قلبي كأنهم الدمى الملونة والعربات
الفارهة والحياة المعقدة الكثيرة التكاليف بمدنيتها المصنوعة الزائفة.
وبجانب ذلك الكادحون من الزوج حيث العمل الشاق المرهق
للرجال والمظهر المتواضع البسيط للنساء والفتيات .

رأينا في الولايات المتحدة فرقا فاحشاً بين طبقتين ولم أر مثل
ذلك الفرق في هولندا أو روسيا أو كندا . وفي هولندا وروسيا
عدد قليل من الملونين وفي كندا وكوبا العدد الكثير من الملونين
يعيشون كأنهم عائلة واحدة سعيدة في مستوى مادي واحد لا تفاوت
فيه ولا نشاز . وما هي الفكرة التي أخذناها عن هؤلاء القوم ؟
إنها تؤكد ما كنا نعرفه من قبل عن غطرستهم وغرورهم الذي يصل
إلى درجة الوقاحة في بعض الأحيان .

والأمريكيون وقحون حتى في خارج بلادهم وليس معنى ذلك

انهم جميعاً بهذه الصفة أى ليس فيهم رجل معتدل فاضل . والواقع لا ، فليست تخلو مدينة من هذا الصنف من الرجال ، ولكن الغالبية وهذه الغالبية هى التى نحكم لها أو عليها . . والغالبية فى أمريكا وقحة متخترسة يملؤها حب المادة والغرور . وليس هناك غير الدولار الذى يتكلم ويأمر وينهى . وأعتقد أن المادة ستحول هؤلاء القوم فى يوم ما أو قل إنها قد حولتهم بالفعل إلى جنس لا يحس ولا يشعر بالعواطف الانسانية التى يتمتع بها ويعيش فى ظلها ما يجاورهم من الشعوب المختلفة .

نحن الآن فى طريقنا راجعين ، وخلفنا نهر الميسيسيبى وأمامنا المحيط الواسع العريض ووجهتنا طرابلس الغرب بعد أن شاهدنا الأمريكين عن كذب فى بلادهم ، كما شاهدناهم سابقاً فى غير بلادهم . وإنى لأعجب من نفسى كيف يكون هذا رأى الصريح فى هؤلاء القوم فى الوقت الذى أرسلت فيه عدة خطابات إلى الجامعات الأمريكية أطلب منها شروط الالتحاق . إنى لأعجب من نفسى كيف يكون هذا مع رأى الذى كوته أو سبق لى تكوينه عن هؤلاء القوم . وقد يكون تعليل ذلك أن العلم لا وطن له . وما لا نستطيع أن ننكره على هؤلاء القوم هو عظمة صناعتهم ورسوخها وذلك العدد الضخم من الجامعات الذى يصعب تخيله . فقد كنت أتخيل وجود جامعة واحدة فى كل ولاية أمريكية ، أى أن عدد الجامعات لا يزيد عن

خمسین جامعة بأى حال وهذا الرقم هو ضعف أو أكثر قليلا من الرقم نظيره فى بلد مثل فرنسا مثلا . . كنت أتخيل أن عدد الجامعات لن يزيد عن هذا الرقم ولكن فى يوم زيارتى لجامعة Tulane فى مدينة نيو أورليانز فوجئت بمعلومات جديدة منها أن عدد الجامعات فى الولايات المتحدة لا يقل عن الألفين ، منها الجامعات الخاصة التى تنفق عليها من مصادر مالية خاصة ، ومنها الجامعات التى تنفق عليها حكومة الولايات المتحدة أى من ضرائب الشعب .

نعم فى أمريكا ألقى جامعة ، وبها هذه الصناعة الضخمة العريقة التى تكتسح العالم كله بجودتها ورسوخها ووفرتهأ وكان هذين التوأمين الجامعات والصناعة يسيران دائماً جنباً إلى جنب إذا وجد أحدهما كان لا بد من وجود الآخر . . . ليت شعرى متى أرى فى مصرنا العزيزة الناهضة جامعات وصناعة الأمريكين والأدب التقليدى للهنوديين أو الروسين وبساطة الحياة ومتعتها ومرحها التى يتمتع بها الكوبيون فى الهند الغربية . . ليت شعرى متى أرى محاسن هؤلاء وأولئك دون مساوئهم فى مصرنا العزيزة الغالية . .

غادرنا هذه المدينة المغرورة وشعبها المغرور المتعجرف ، فلا يخلو ذهن كل منا من صورة لتلك العجرفة وذلك الغرور . . ومن ذلك هذه الأسئلة التى وجهت إلى كل فرد منا قبل أن يسمح له بأن

يضع قدمه على أرض البلاد بعد أن رست الباخرة . ومن هذه
الأسئلة . . هل أنت شيوعي ؟ هل كنت سجيناً في بلدك ؟ هل تريد
الإقامة هنا ؟ . . ولعل بعض هذه الأسئلة لا غبار عليه ما عدا
السؤال الأول الذى يكاد يلزم أى واحد منا بأن يكون غير شيوعي
لينفق يوماً أو يومين في هذه البلاد . وكنا نجيب على هذه الأسئلة
الاجابة التى نعلم انها ترضيهم وتمنع عنا استطرادهم فى أسئلتهم المملة
السخيفة حتى جاء بعد ذلك اليوم الذى رفض فيه زميل أن يجيب
على ذلك السؤال الأول بنعم أو لا وأنا أعلم أنه غير شيوعي ولكنه
أراد أن ينتصر لمبدأ فرفض رفضاً لطيفاً فى بادىء الأمر وكان أن
وجد الإلحاح كما رفض أن يؤدى ذلك القسم وكان أن اعتقل عدة
أيام ولم يكن سجيناً فى مصر فى يوم ما ولكنه كان سجيناً فى
الولايات المتحدة فى ذلك اليوم . ويكون ذلك الزميل قد سبقنا
إلى إعلان رأى أشفقنا على أنفسنا أن نعلنه . لماذا أطالب بذلك
القسم ؟ قد أكون كاذباً ، فلماذا أقسم يمينا كاذبة ؟ وقد أكون
صادقاً فما الذى يجعل إنساناً يضطر إلى ذلك القسم ؟ وماذا لو أن
روسيا اتبعت مثل هذه الطريقة وحرمت أن يطأ أرضها غير
الشيوعيين من بحارة السفن المختلفة . .

طرابلس الشرق والغرب

٢٩ مارس

فى أواخر شهر مارس صادفت ذلك اليوم الأول الذى أصبحت فيه ليبيا عضواً ثامناً فى جامعة الدول العربية . وليبيا دولة مستقلة آخذة بأسباب النهضة ولكن من عيوبها تغلغل النفوذ الأجنبى الانجليزى والايطالى فى جميع شئونها . كما أن هناك فرقاً ظاهراً بين مستوى حياة الوطنيين وما يتمتع به الأجانب الدخلاء من إنجليز وإيطاليين . وقد فوجئنا بطرابلس الغرب مدينة نظيفة على عكس ما كنا نتوقع ، وكان مدخل المدينة من جهة الميناء لا يقل فخامة وزوعة عن الاسكندرية أو مرسيليا عروس البحر الأبيض المتوسط .

وقد يكون السبب فى ذلك هو الحسنة الوحيدة التى للايطاليين وهى حب التعمير فى البلاد التى يحتلون بها بعكس الانجليز الذين يميلون إلى التخريب دائماً ومهما طالت إقامتهم فى بلد فإنها تترك لأصحابها خراباً .

واللغة العامية الليبية أقرب إلى لغة المعرى من المصرية العامية وإن كانت لهجة الأخيرة هى أرقى اللهجات وأوضحها . ومن

الكلمات التي يستعملها العامة في حديثهم كلمة «الشعاب» ومعناها الجبل
و«الجادة» ومعناها الطريق . والمرأة الليبية محجبة تسير وكأنها في
غرامة كثيفة بيضاء . ولا يظهر منها غير ثقب صغير تبرق خلفه عينها
لتنظر الطريق المزدحم بالسيارات والعربات .

والخطوة الطبيعية لليبيا هي أن تتخلص من النفوذ الأجنبي
الذي يلزم الدول الحديثة العهد بالاستقلال حتى تستطيع أن تتقدم
بدون عائق في السير إلى الأمام . ولست بسبيل أن أكتب خطاباً
سياسياً عن ليبيا وإنما الحياة الاجتماعية في أى شعب من الشعوب
هي التي تعينني أكثر من غيرها . وليبيا الآن تمر في ذلك الطور
الذي كنا نمر به منذ نصف قرن من الزمان . فالمرأة المحجة جاهلة ،
والوعى القومى يكاد يكون معدوماً بين الأعراب والفلاحين باستثناء
القلة القليلة من الموظفين الذين أتموا تعليمهم في مصر أو إيطاليا .

وبما شاهدته يبين لى أن النفوذ الأدبى لاييطاليا أقوى مما لمصر
فيها بالرغم من الجوار والوحدة والدين واللغة . وليبيا أحوج ما تكون
إلى ثورة اجتماعية رشيدة تتناول جميع مرافق الحياة وخاصة ما يمس
الأسرة والمرأة ليصبح الاستقلال الكامل بعد ذلك نتيجة لازمة
لهذه التفاعلات . والجمال فى ليبيا بدوى عريق فى البداوة . وفى
سوق الخبز ، وهو المكان الذى يقصده العدد الكثير من النساء
والفتيات الوطنيات ليشترين حاجاتهن الضرورية فى سلال صغيرة ،

استطعنا أن نلمح شيئاً من جمالهن الفاتن المحجب من خلف هذه
الاستار السمكة البيضاء التي تخفيهن . وللأسواق والمباني ومظاهر
الحياة طابع أقرب ما يكون إلى الطابع التركي ، ويظهر هذا واضحاً
في الأحياء الوطنية والدروب التي استطاعت أن تحتفظ بما تركه
العثمانيون من أثر طوال هذه السنين . وفي الأحياء الراقية حيث
مدخل المدينة وشاطئ البحر مباني إيطالية صرفة ولغة إيطالية
منتشرة مسموعة في كل مكان .

غادرنا ليبيا بعد أن أفرغنا بضاعتنا القادعة من نيواورليانز ،
وأبحرت الباخرة إلى طرابلس الشام ليتم تفريغ ما تحمله من السكر
المستورد من كوبا ، واستقرت الباخرة يوماً واحداً حيث سافرت
بعد ذلك إلى العاصمة بيروت .

وكانت بيروت صورة مكبرة لسابقتها طرابلس الشرق ، وأهم
ما يلفت النظر السوق الرائجة للكتب ، ففي لبنان نهضة أدبية
تنافس مصر منافسة شديدة من هذه كثرة عدد الكتاب . وتعدد
الموضوعات التي يكتبون فيها ، وروعة الإخراج والطبع والأناقة
التي تتميز بها كتبهم ، والجمال في لبنان ذو طابع واحد نضير ليس
كما في مصر متنافر خليط ، ففي مصر جمال مختلف متعدد يختلف في
القرى عنه في المدن والبلاد الساحلية ، ويتباين تبايناً شديداً في

المصريات من ساكنات الريف عن المصرية أو المتحضرة من ساكنات المدن ، فيكاد أن يكون لكل مدينة طابع معين يميز فتياتها ونسائها وفي لبنان قد توحد هذا الطابع وامتزج امتزاجاً تاماً ، ومثل ذلك في التعليم فليس في لبنان جامعة للثقافة العالية كما في مصر ، ولكن تشبه المتعلمين أو انصاف المتعلمين فتياناً وفتيات أعلى بكثير من نظيرها في مصر وغيرها من البلاد العربية ، والجامعة الأمريكية هي التي تجعل ثقافتهم متشابهة متقاربة من نوع واحد ومستوى واحد ، والمناظر الطبيعية الساحرة التي لاحت لنا أول دخولنا ميناء بيروت وكانت الجبال في الأسبوع الأول من ابريل مغطاة بالجليد ، وعلى أطرافها وسفوحها المنبسطة المنازل الأنيقة يعلو بعضها البعض ، وفي لبنان كما في تركيا تكثر ليالي السماع والطرب مع فارق واحد ، ففي تركيا كانت اللغة غربية علينا غير مألوفة ، أما في لبنان فاللغة ذات لكنة عذبة ، وجرس رائع النغم .

والأهالي تجار غالباً ، ومعظم تجارتهم الناجحة فيما يستوردونه من أوروبا وخاصة الولايات المتحدة ، وليس في لبنان مصانع أو منشآت لتشغيل العدد الكبير من العمال ، ولعل هذا هو السبب في ميل اللبنانيين إلى الهجرة وبراعتهم فيها حتى لا يخلو منهم بلد من البلاد في أوروبا أو الأمريكتين .

الرحلة الخامسة

في بلاد الانجليز

١٤ مايو سنة ١٩٥٣ م

كنت أود أن أرى اليابان وانجلترا واسبانيا قبل أن أغادر البحر نهائياً ، وأطلق هذه الحياة طلقة بائلة لا رجعة فيها وما هي الظروف تقذف بي في طريقى إلى بلاد الإنجليز فهل ستكون رحلتى الأخيرة أم ستكون لى رحلات سبع حتى أكون كما كان السندباد . . . نحن الآن فى طريقنا فى البحر الأبيض المتوسط وخلصنا جزيرة مالطة ، وأمامنا جبل طارق الذى رأيته للمرة الرابعة أو الخامسة ، سنعبّر خليج بسكاي مرة أخرى حتى إذا انقضت أيام ثلاثة ، رست الباخرة على الشاطئ الانجليزى فيخرج كل على وجهه نبحت عن أغراضنا التى تقودنا وتسيرنا ، فمننا من يريد المرأة ، ومننا من يريد الكتب ، ومننا المغرمون بمشاهدة الآثار والاتصال بالشرفاء من الناس كما يفعل السائحون وأكثرنا يريدون اللبالي الحمراء والعبث ، وما أكثر العبث فى ميناء يرحب بالبحارة والغرباء ، ونحن فى هذا أو ذاك فى البحر أم فى الشاطئ مجهدون أو مكثرون دائماً ، نقضى نهارنا فى عمل شاق حتى إذا أقبل الليل

كانت سهرتنا شاقة أيضاً فتمتد حتى الثانية بعد منتصف كل ليلة وما يصحب ذلك من إنفاق يرهق ميزانيتنا الضئيلة الهزيلة .

وفي البحر نحن أناثيون لا نفكر إلا في أنفسنا ، فعند ما تقلع السفينة وتتقطع الأسباب بيننا وبين الشاطئ ، تتقطع مشاعرنا التي كنا نشعر بها نحو أصدقائنا والأهل فلا نفكر في غيرنا ونحن في دوامة تشغلنا وتذهلنا عما عداها كأننا في عجلة تدور لا تكف عن الدوران . صباح يأتي وليل ينقضي ، وأيام تطوى ولا شيء غير الماء والسماء والعمل المرهق المتواصل الذي يجعلنا مغلوبين على أعصابنا دائماً .

لست أدري هل هو البحر الذي يأبى إلا أن يقطع تفكيرنا بأهلنا حتى يقطع اتصالنا بهم على الأرض — أم العمل المرهق الذي لا يترك لنا فرصة .

ها هو جبل طارق يقبل وتقبل معه أنحس ساعة شاهدها على الباخرة ، وقد تكون أنحس ساعة شاهدها الباخرة نفسها ؟ كان ذلك يوم السبت ٢ أبريل في الساعة العاشرة صباحاً ، وكنت في غرفة الماكينة عند ما رأيت المكبس يجرى وهو شعلة متوهجة ، وفي ثوان امتدت السنة اللهب تضرب يمينا وشمالا لم ينفع معها كفاحنا العنيف حتى اختلط بملابسنا ووجوهنا الزيت الأسود الملتهب الذي

يلفح الوجوه ، وكان يجب أن توقف الماكينة في الحال ، ولكن كبير المهندسين الايطالى رفض ذلك وآثر أن تستمر المجازفة ، وكانت الباخرة تحمل لأول مرة بعض الركاب من السيدات والفتيات في طريقهم إلى انجلترا .

ربما آثر أن لا يزعمهم أو رأى أن شيئاً سيمس سمعته الفنية عند ما يضطر إلى إيقاف السفينة في عرض البحر ، وعند ما استشرى القدر أوقفت الباخرة ، ولكن ذلك حدث متأخراً ، وبدأنا عملاً مرهقاً عنيفاً استمر ١٦ ساعة متوالية لتغيير المكبس الذى وجد مشقوقاً شقاً بالعرض يبلغ طوله ٢٠ سم .

وبعد ذلك بدأنا نسترد أنفاسنا ونشعر أن تعبنا أجدى ، وما كادت الباخرة تسير ساعة أو بعض ساعة حتى تكرر نفس المنظر السابق ورأينا المكبس الجديد يجرى وهو شعلة يغلب عليها اللون الأبيض فوقنا مذهولين من هذه المصيبة فليس عندنا احتياطي آخر للمكبس وأمامنا رحلة مدتها خمسة أيام على الأقل ، وأن منظرأ لا ينسى منظر جميع طاقم الماكينة ، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض ثم إلى الأرض ساهمين صامتين كأنما ينظرون إلى قتيل ولقد طاف بذهنى احتمال الغرق كما قد يكون طاف بذهن الآخرين ، فأمامنا بسكاي مقبرة السفن التى كانت قلوبنا تسقط عند ذكر اسمه وجمالة

الماكينة سليمة فكيف بها الآن وهي كالإنسان العاجز المريض .
ومع ذلك فقد استمر ذلك الرجل المجنون في المجازفة ولم توقف
الباخرة في الحال بل تركت بأمره تدور كما كانت في المرة السابقة ،
واستمررنا نكافح النار وما هي إلا لحظة حتى دوى انفجار هائل في
جوف الماكينة كأنفجار القنبلة ، وكان معنى ذلك حدوث تحطيم
في معدن المكبس المتحرك وأوقفت الماكينة بعد ذلك وأصبح
التقدم إلى الأمام تام الاستحالة رجعنا إلى الخلف بعد أن أبطأت
سرعة الماكينة وأغلق صمام الوقود عن ذلك المكبس التالف المحطم
وكان يجب أن ترسو على جبل طارق ، أو جزيرة سان فنانسان
الاسبانية القريبة منا في ذلك الوقت ليتم ترحيل الركاب والأطفال
على أى باخره مسافره إلى إنجلترا ، ولتستدعى ورشة تساعدنا في
عملية التصليح .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وانتظرنا الباخره في عرض
البحر بالقرب من جبل طارق ، وبدأنا عملاً مرهقاً شاقاً أشد عنفاً
مما كان بالأمس حتى استخرجنا المكبس التالف ، ووجدنا حوله
شقاً بالعرض يبلغ طوله متراً أو مترين . أى على نصف محيطه
بالتقريب ، ووضعنا مكانه درعاً من الصلب المبطن بالقماش ليعزل
الفراغ الذى كان يشغله المكبس عن باقى فراغ الماكينة .

وكان خطأ ذلك الباشمهندس المجنون واضحاً في شيئين ، فقد انتصرنا في المرة الأولى وكان يهنيء بعضنا البعض على هذا الانتصار ولكن جعلنا نفقد هذا الانتصار ونجد بدلاً منه مرارة الفشل والهزيمة . لقد أسرع يعطى للماكينة سرعتها الكاملة حيث كان يجب أن تدور بسرعة بطيئة لمدة يوم أو يومين حتى يستريح المكبس الجديد في مكانه الجديد . وليس هذا ما حدث فقط ، فقد اشتعل المكبس الثاني ، وكان من الممكن تلافي تحطيمه أو تشققه كما حدث لسابقه إذا أوقفت الماكينة في الحال بسرعة وتركت لتبرد مدة كافية . ولكنه رفض ذلك في المرة الأولى ، ثم تركت لتبرد مدة غير كافية مدة لا تزيد عن الخمس دقائق بعد أن تركها حتى وصلت إلى اللون الأبيض ساعة أو بعض ساعة . . ثم أديرت للمرة الثانية وحدث ذلك الانفجار الهائل الذي دلنا على تحطيم المكبس تحطيماً كاملاً فرجعنا فاشلين يائسين إلى جبل طارق في سرعة بطيئة في هذه المرة . وأعجب ما في الأمر أن الماكينة استجابت لنا في هذه السرعة وسارت معنا مستريحة ، لولا ذلك الطرق الذي يدل على الكسر الداخلي . وماذا لو سرنا بهذه السرعة في أول الأمر قبل حدوث هذا الخطأ . ولو أن مصرى يخطئ . هذا الخطأ الظاهر للجميع لكان الآن في المحكمة أو السجن أو على الأقل في الشارع ، ولكن إيطالى قدر يخطئ . وخطؤه ظاهر للجميع فلا يلام على ذلك ولو أدى إلى

غرق الباخرة . انقضت أيام خمسة على المفاجأتين الأوليين واستأنفت الباخرة سيرها بقوة خمسة مكابس بدلا من ستة وفقدت بذلك أكثر من ثلث قوتها فكانت سرعتها ١٠٠ لفة في الدقيقة بدلا من ١٢٥ لفة وكانت تستهلك ٥٠٠ لتر في الساعة بدلا من ٩٠٠ من زيت الوقود . . . ودخلنا خليج بسكاي وكان القدر يعد لنا مفاجأة أخرى أشد سواداً ونحساً من المفاجأتين السابقتين . . كان ذلك يوم الخميس ٣ إبريل الساعة الواحدة صباحا عندما سمعنا صوتاً يشبه الاصطدام الهائل ورأينا الباخرة ترقص في الفراغ رقصات مرعبة عنيفة مجنونة كأنها تريد أن تقفز من مكانها وتطير في الجو فنزلنا بالبيجامات إلى غرفة الماكينة وكان عداد السرعة يقرأ ٤٠٠ لفة و ٥٠٠ بدلا من ١٠٠ لفة فقط ولم نستطع تعليل ذلك في أول الأمر فقد اعتقدنا خطأ أن بسكاي ثار علينا ثورة واحدة وبدون إنذار ووقعنا في وسط عاصفة كالتى تحكى عن السندباد وانصرفنا إلى ذلك التعليل الخاطيء . ولكن عندما أديرت الباخرة مرة أخرى رأيناها لا تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة . ومن ثم استطعنا أن نعلل التعليل الصحيح وهو أن المروحة التى تحرك السفينة انتزعت من مكانها انتزاعا أو كسرت إحدى أطرافها الضخمة . والاحتمال الأول أهرب إلى الصواب ، فأصبح عمود الـ Shaft يدور بمفرده هذه الدورات السريعة الجنوبية بعد أن خف عنه الثقل الذى يحفظ

توازنه وهو حوالى ٧٥ طن فزادت سرعة الماكينة وانطلقت
تدور حول نفسها ، وتقفز كما تدور وتقفز النحلة وهى عاجزة عن
التقدم خطوة واحدة . والحل الوحيد أن ترسل الباخرة إشارة
استغاثة إلى أقرب ميناء انجليزى حتى تقبل سفينة أخرى تقطّر
سفينتنا المريضة . فى هذه الحالة تعتبر السفينة الأولى منقذة وسفينتنا
فى حكم الغارقة ستدفع فى هذه الحالة مبالغ طائلة قد تصل إلى نصف
ثمها بما فيه من بضائع مكافأة للسفينة المنقذة على حسب قوانين البحر .
هذه ثلاثة الأثافي كما يقولون حتى بدأت أعتقد فيما تقوله
الروايات البوليسية . إذا حدثت جريمة قتل فى ليلة واحدة
فلتنتظر القتل الثالث فى أقرب فرصة ممكنة .

وها قد حدث اضطرابان عجيبان فى أول الأمر ، وسرعان
ما حدث ما هو أعجب من ذلك ، لقد شيبتنى هذه الرحلة بما رأيت
فيها من أهوال وغرائب لم أرها فى أربع رحلات ماضية ، ولا
ينقصنا إلا أن تصل الباخرة إلى أعماق المحيط ، ونستعمل نحن
قوارب النجاة ، ثم ندخل مستشفى الأمراض العقلية . بعد ذلك
كتبت لنا النجاة . . اللهم إن طريقنا ليس إلى النار فقد رأينا النار
فى خليج بسكاي ، ورأينا الجحيم فى هذه الرحلة ، ومع ذلك فأنا
أحب البحر وإن حبي له قد يصل إلى درجة الإدمان والعباد بالله ،

فأنا لا أكرهه إلا في وسط الأمواج والتيارات المخيفة فقط وعند
ما ترسو الباخرة على أى شاطئ. أنتقم لنفسي أو من نفسي من
الحرمان الطويل باللهو والعبث في هذه الحالة أنسى أنني كنت أكره .
البحر بل العكس أعتقد اننى أعشق البحر ولا أرضى به بديلاً هذا
هو البحر بقانونه ومظهره ، وطابع الحياة المحطمة المملة فيه ، فهل
أحبه أو أحب فيه الوسيلة التى تجعلنى أرى شعوباً مختلفة وألواناً من
الحياه متباينة فى الأقطار الغربية التى ترسو عليها . لا شك فى أننى
لو أفلحت فى تغيير هذه الحياة التى تمر بى ووطنت نفسي على
الاستقرار سنة أو بعض سنة ، ولا أقول شهراً أشك فى أنه
سيدفعنى الشوق والرغبة الملحة مرة أخرى لما وراء البحر من حياة
وروعة ومتاع .

وبعد مضى يوم كامل أقبلت سفينة بريطانية سحبت سفينتنا إلى
أقرب ميناء بريطانى ، وهو فالوث بعد أن كانت وجهتنا ليفربول ،
ونزلت الراكبات الفاتنات واستراح (كامبى) من ذلك الدور
الذى أخذ على نفسه القيام به دور العجوز المتصابى فى بدلة البحرية
الأنيقة المرصعة بالشرائط العريضة المذهبة ، وكان لا يرى من قبل
بغير البنطلون القصير المهدل والفانلة بدلاً من القميص .
نزلت اثرا كبات الفاتنات صباح يوم وصولنا ليستقلوا القطار

الذاهب إلى ليفربول ، وبدأنا نحن نضع أقدامنا على الأرض الثابتة العريضة نحبا ، وأصبحت تلهينا الحوادث اليومية البسيطة والمشاهد والحركة عن التفكير في أنفسنا ، والجفاف الذي كنا نشعر به وسط الأمواج وفي قالموث رأينا مدينة صغيرة أنيقة ذات شوارع ضيقة نظيفة ، ومنازل ذات طابق أو طابقين على الأكثر ذات طابع إنجليزي بسيط ، فلو أردنا أن نبنى منزلا ونراعى فيه منتهى التبسيط في التصميم والانشاء ، والمظهر الخارجي فسيكون هذا هو الطابع الانجليزي ، وللإنجليز غرام شديد بالزهور ففي كل منزل نرى حديقة صغيرة أو حوض للزهور تتعده رب أو ربة المنزل .

والإنجليزيات متوسطات الجمال ، وإذا وجدت فيهن جملة فسيكون جمالها باهراً يندر وجوده في أى بلد آخر وكلهن ذوات جمال بسيط وكانت هذه البساطة هي طابع الحياة وطابع كل شيء في بلاد الانجليز .

والصفة التي يمتاز بها الانجليز هي الانطواء على أنفسهم فهم معتدلون في مرحهم وسلوكهم ، وقد يكون تعليل ذلك وهو أن قالموث بلد زراعى صغير ليس به غير مصنع واحد لتصليح السفن والباقي تلال مزروعة ، ومزارعون مقيمون للزراعة ، وما تستلزم هذه الحياة الريفية من بساطة وتحفظ واعتدال ، وليس هناك هذه الفئة من النساء والفتيات اللواتي يطلبهن البحارة والأجانب والغرباء

في الموانى التي تنتظم بها حركة السفن الذاهبة والراجعة في مواعيد معينة منتظمة .

هذه الطبقة التي تعيش على هؤلاء البحارة وتدور في فلكهم وتقوم حياتها عليهم فبزيارتهم تزيد ، وبزوالهم وانقراضهم تنقرض وتزول وليس في المدينة حديقة واحدة أو عدة حدائق فحسب ، بل هي بأكملها حديقة واحدة كبيرة تنتشر فيها المنازل الأنيقة ، وتتخللها الطرق العامة الضيقة والجو معتدل جداً في هذا الجزء الجنوبي من إنجلترا ويسمى الانجليز ريفيرا إنجلترا ، والأرض جميلة مرتفعة ذات مناظر فريدة ، وأجمل ما بها الغابة فوق أحد هذه التلال المطلة على ساحل البحر ، والمقاعد التي تغرى بالجلوس ، وتكاد تكون مغمورة وسط الزهور البرية المنسقة الألوان وقلما تخلو من عاشقين في صلاة ومناجاة بعيدين عن أعين الرقباء ، وهناك بحيرة صغيرة يسمىها Swan pool ، أو بحيرة البجع على قرب من أرض رميلية منبسطة تزدحم بالسائحات الفاتئات في حياة تضج بالصخب وتموج بالفتنة ، وعلى بعد خطوات ، القبور الرخامية البسيطة ولهدوء الخيم على سكانها ، وهذه المقابر إن لم تكن في مثل عظمة Compo Santo في إيطاليا ولكن سميتها البساطة التي تميز كل شيء في هذه البلاد ، وأغرب ما هناك هو هذه الدنيا والآخرة . الحياة والموت الزان

اجتمعاً في صعيد واحد وليس بينهما غير بضع خطوات . لقد تركنى يوسف ، الزميل الذي كان معي في روتردام وأوديسا وكوبا تركنى متخلفاً في الاسكندرية وكان هو السبب في نجاحنا الرابع مع الفتيات وبدأت هذه الرحلة بمفردي حيث صادفني الفشل الذريع فلم أتمكن بعد إقامة أيام في فالموث من عمل علاقة محببة مع أى فتاة وفي اليوم الذي اعزمت فيه الحصول على هذه العلاقة اخترت إحداهن وكانت تسير وسط فتيات ثلاث ، اخترتها ذات ملامح دقيقة أنيقة وتبعها حتى لفت نظرها إلى ، ولكن ترددى الطويل هو الذي جعل بحاراً بولندياً يسبقني إليها ، وكانت سفينته تجاور سفينتنا فتركتهما مغيباً وانصرفت إلى ساحل البحر . وجدت أمامي موظفة البريد وكنت قد ابتعت منها طوابع في أول يوم من أيام وصولي إلى فالموث . . رأيتها أمامي في لباس البحر مع صديقة لها وعدة أطفال صغار ، يقفزون من الجسر الحجري الذي جعل مرفأ للقوارب الصغيرة ، وكان أحدهم يعاينها ويخطف ملابسها ، فرت بجاني وهي شبه عارية . . وعند ما قلت لها هل تقبلين جاكتي ؟ أجابت أشكرك . . وقفت معها بضع دقائق ، وأذكر انني قلت لها إنك جميلة وفاتنة فلم يسبها ذلك كما يحدث في مصر . بل على العكس يسرها ويسر أى فتاة في إنجلترا أن يقال لها ذلك ، وقد تسكت وقد تقدم الشكر على ذلك في غالب الأحيان . ولكن باتى قد قدمت لي

شكرها كما قدمت لى خطيبها ذلك الغلام الذى كان يعايشها ويخطف
ملابسها وقد ظهر فى ملابس طيار ضئيل الجسم . . رجعت إلى
الباخرة بخفى حنين حيث كانوا يحتفلون بالعمال الانجليز بمناسبة آخر
يوم لنا فى المدينة . وجلست بجوار عجوز أم كان على أن أحتفى بها
وأبادلها الحديث ولكنى تركت لغيرى مهمة الرقص معها وتركت
ذهنى يطوف ويفكر فى هذه الصديقة المجهولة الاسم كما كان يفكر
فى وظيفة البريد .

غادرنا مدينة فالموث إلى ليفربول ورأينا مدينة صناعية ضخمة
ذات مبان يغلب عليها السواد المتراكم من دخان المصانع والسفن
الكثيرة الراسية فى الميناء . ومن أروع ما شهدنا تمثال نيلسون وقد
قرأت قبل ذلك أنه أقيم على أعلى قاعدة موجودة فى لندن حتى أن
أى تمثال من تماثيلهم مهما بلغ ارتفاعه لا يبلغ فى الارتفاع ربع
قاعدته . قرأت أن هذا التمثال مقام فى لندن فعجبت أن يكون أيضاً
فى ليفربول ورأيت بعينى ارتفاع القاعدة مثل ارتفاع أربع طوابق
أو خمس . وفوقها تمثال لا نستطيع أن نتبين ملامحه من ذلك العلو
الشاهق . والحديقة العامة فى ليفربول التى تشهد ببراعة الانجليز
وغرامهم بالزهور التى تستحق التسجيل فى اللوحات الزيتية الثمينة .
قضينا طوال شهر رمضان فى ليفربول ولم تكن لى صديقة ما

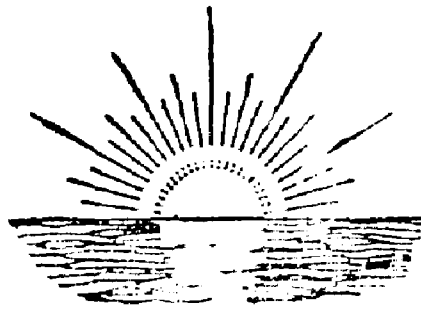
واكتفيت بأن أتجول فى طرقات المدينة وميادينها وحدائقها . وفى كل مكان وكل ركن وفى كل محطة من محطات الترام والأوتوبس نرى العشاق متعانقين فى قبلات محومة طويلة والمارة لا يكلفون أنفسهم عناء النظر ، وفى الأماكن المظلمة من الطريق العام يستطيع أن يرتكب أفظع جريمة مع فتاة ، وقد يراها البوليس ولا يتدخل فى ذلك ما لم يكن ذلك إكراه ، ومن المناظر المؤذية منظر هذين الوجهين المتلاصقين فى قبلة عنيفة طويلة ، لا أثر للبراءة والعفة فى هذه الملاح ، لا أثر لذلك الحب الشريف الذى يستدعى الاغتباط عند مآثره مجسما على ملاح عاشقين ، وليس هناك غير تعبير يدل على الشهوة فى أحط وأقذر معانيها ، والرغبة فى صورة حيوانية تشمئز منها النفس ، ولست أنكر وجود هذه الرغبة أو الشهوة بين الرجل والمرأة ، ولكن هذه الصورة الداعرة فى قسما كل منهما هى التى لاعهد لنا برؤيتها فى الطريق العام وهى التى كان يجب أن تسدل دونها الستائر وتختبئ خلف الجدران ، ومن المناظر التى تستحق التسجيل منظر كاتدرائية انجليكانية فى مدينة ليفربول . لم أرى مثل ضخامتها وعظمتها فى بلد آخر ، وتبلغ فى ارتفاع المقطم أو قلعة صلاح الدين بما فى ذلك الجبل المقامة عليه ، وبما علتة أنه استغرق بناؤها خمسة وعشرون عاماً ، وأهم ما يلفت النظر هو كثرة العناصر النسائية بين مرتادى الكنيسة ، وليس معنى ذلك أن المرأة الانجليزية متدينة

فإن الذى يحيرنى أنها تفرق بين الدين والدنيا بمهارة كبيرة فارتياها الكنيسة وقيامها بواجباتها الدينية لا يمنعها من أن تأخذ حظها من الحياة والاستمتاع بها كاملة ، فالدين شىء والدنيا شىء آخر والحرية الشخصية لآحد لها فى بلاد الانجليز تفوق كثيراً ما رأيت فى هولنده وفرنسا . ولو أن هذه الحرية ضارة وغير مؤذية إلا أنه لا يحددها شىء . وقد رأيت بعينى رأسى الحياة الحيوانية التى تعيشها الفتاة الانجليزية فى ليفربول ، وقد كانت الايطالية هى الصورة العالية السوء للمرأة المستهتره العابثة فى نظرى حتى رأيت الانجليزية وخاصة إذا كانت أما ، أشد استهتاراً وعبثاً من كل ما رأيت .

وهذه الكاتدرائية بالرغم من وجود عدة قيود حولها تدفع إلى التفكير والتأمل واحترام هذه الأرواح والأجساد التى كانت تعيش وتلهو كما نعيش ونلهو . وبالرغم من ذلك نرى العشاق والمتسكعين متسترين بالظلام حول هذه القبور . والهولانديات والفرنسيات اللواتى يكملهن تعليمهن فى انجلترا هن الطبقة الأكثر اعتدالاً واتزاناً وليفربول تشبه مرسيليا من حيث كثرة الأجانب المقيمين بها ففى مرسيليا كان المغاربة والجزائريون والسنغاليون . يتجولون فى الطرقات . ويجلسون على المقاهى المكشوفة . وفى ليفربول اليمينيون من مدينة عدن . والصوماليون مع فارق واحد ظاهر فى حياة

الأجانب فى كل من هذين البلدين . فى مرسيليا يعيش الأجانب
منبوذين من أهل البلاد فى عزلة تامة عن الفرنسيين أما فى ليفربول
فعلى العكس من ذلك وكثيراً ما رأينا أسوداً فى منتهى القبح والدمامة
يسير وفى ذراعه عروس انجليزية فاتنة كأنها ملكة من ملكات الجمال
وفى يوم من أيام شهر رمضان وقد حبسنى الصيام الطويل الذى
يصل إلى ١٧ ساعة فى اليوم حبسنى ذلك الصيام أياماً طويلة عن
الخروج . سرت منفرداً . وكانت الطرقات لا تخلو من العشاق الذين
يسرون متعاقبين حتى يندر أن يسير رجل بمفرده أو امرأة بمفردها
إلا إذا كان أحدهما يبحث عن رفيق له من الجنس الآخر . وعلى
واجهة إحدى المحلات التجارية أقبلت إحدى هذه الفتيات . فتيات
الليل . تفوح من فمها رائحة الخمر وهذا وحده يكفى لكى ينفر فى منها
أقبلت من خلفى تدفع بكتفها ظهري دفعا متصلا ملحاثم تقول .
هل تحب أن تقضى بعض الوقت معى للحب ولا شئ غير الحب . فلم
أر أسلم من أن أتغابى وأدعى الجهل التام باللغة الانجليزية . وادعيت
الجهل التام باللغة الأخرى الصامتة التى تتبعها المراه عند ما يكون لها
أن تختار . ادعيت الجهل باللغة التى كانت تقرأ على وجهها . والتى
لا يجملها أحد وانصرفت متضاحكة معتقده أننى لم أفهم شيئاً مما تقول
وفى طريق عودتى شاهدت أغرب منظر لم أره من قبل فى حياتى
وكان ذلك فى ميدان هاملتون وهو أحد الميادين العامة الكبيرة المطلّة

على البحر . كان أحدهم يحتضن فتاتين في وقت واحد كل في ذراع
وقد انضمت الرؤوس الثلاثة في قبلات طويلة وعلى بعد خطوات
يقف رجلان من رجال البوليس يتعمدان التجاهل . صادف وجودى
في ليفربول الأيام التي كانوا يحتفلون فيها بتتويج الملكة اليزابيث
الثانية حيث كانوا يديرون الحمر والرقص فى الطرقات طيلة عدة
ليالى ، وقد عصمنى من ذلك الصيام والحمد لله على أننى لم أقض وقتاً
سعيداً فى انجلترا كما كنت أتوقع .



الرحلة السادسة

تريستا

٤ يولييه سنة ١٩٥٣

ليس هناك وجه للمقارنة بين سكان إيطاليا في مدينة جنوا التي رأيتها من قبل وبين سكان هذا الاقليم في شمال إيطاليا - في إقليم تريستا ، الذي يعتبر بحق عروس البحر الادرياتيكي - وأذكر في مدينة جنوا وكنت أسير مع زميلي في طريق الميناء . وقد استوقفتنا فتاة تحول بينا وبين الطريق . تطلب منا أن نقبلها ، وتقدم زميلي يقبلها قبله مسرحية وعند ما جاء دوري أقبلت تمدفها في حركة ممطوطة فوضعت يدي على أسفل ذقنها لادير رأسها وأضع على خدها ما ليس منه بد . وفي تريستا وقد استقرت البانخرة في ضاحية من ضواحيها تعرف باسم (موجا) . شقراوات جميلات تتدفق في وجوههن حمرة رقيقة وشعورهن قصيرة مقصوصة كشعر الغلام ، جمال نادر يفوق كثيراً جمال الايطاليات على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وأخلاق وسلوك تختلف ، أشد الاختلاف فهي صورة مقلوبة بين هذا الاقليم في شمال إيطاليا وبين الخلاعة والاستهتار

في جنوبها . وإذا كان في تريستا عيب واحد هو وجود الجنود الأمريكيين ، الذين أفسدوا فساداً كبيراً حتى كاد أن يكون مثلاً عاماً . وقاعدة عامة أن الأمريكيين إذا دخلوا قرية أفسدوها بذوقهم وثرانهم ومجونهم . والمناظر الطبيعية الساحرة على ذلك الجبل الأخضر تتخلله الطرق المنحدرة . وعلى ضفتيها بيوت ريفية نظيفة واللاوتويس الميم إلى حدود يوغسلافيا وهو يرقى أو يهبط منه يميزه ذلك النفير الموسيقى الذي يكاد يكون لحناً من الألحان الرائعة التي تستسيغها الأذن . وعلى الشاطئ . الرمل حيث السابجات الفاتنات العابثات مع الموج وفي هذه القرية الصغيرة بدأ غرام جديد لي .

كان ذلك يوم ، يولييه وفي ذلك الميدان الفسيح . في موحا تتوسط حديقة صغيرة أنيقة تطل عليها بعض المنازل وعلى بعد خطوات من الترولى باسى الذهاب الى تريستا . كنت أجلس على إحدى هذه المقاعد في انتظار اللاوتويس مع زميل لي عند ما مرت عادة فاتنة تشبه شهباً عجيباً لمثلة مصرية كبيرة اشتهرت بأن تجرى في صوتها نبرات حلوة عذبة ، مرت ومعها طفل صغير وسيدة تكبرها سناً ، وأسرعنا تنادى الطفل وأسرع يلبي نداءنا ويستجيب لمداعباتنا وأسألتنا المتطفلة وهي ترقبنا من بعد ، ثم أشارت إليه فانفلت من بين أيدينا وسارت وهي تتعمد أن لا تلتقي بنظراتنا — نسيت هذه

الحادثة البسيطة كما نسيت بطلتها الفاتنة حتى جاء اليوم الذى رأيتنى أقف فيه بجوارها أمام الملاهى الصاخبة فى (موجا). وقد اتصل بنا حديث قصير لم أتذكر خلاله اننى رأيتها من قبل حديث عادى لا يدل على شىء، وان كنت قد حاولت أن أجعلها تفهم منه شيئاً ما. حاولت أن أعطى كلماتى وإشارات يدي وتعبير وجهى معنى الإعجاب بها مجتهداً بما عندى من كلمات إيطالية قليلة . وبعد يومين رأيتها للمرة الثانية فى ذلك الملاهى الصاحب الكبير ثم تحولت إلى ذلك الطريق المظلم الذى يندر أن يسير فيه غير عاشقين ذلك الطريق الساحلى الذى يسوده الظلام ويحتل العشاق جسره الحجرى الطويل الممتد على طول الساحل، أو متشابكين فى سيرهم الحالم على الجانب الآخر من الطريق تحت ذلك السفح المعشوشب . كان الوقت مبكراً . لم يؤذن بانتهاء السهرة بعد . وان كان يؤذن بيعتها . فتبعتها فى ذلك الطريق لعلها تريدنى . أو على الأصح لعلها تذكرنى، وما يدرينى لو أنها تعمل ذلك من أجلى . وما يضيرنى لو جربت فلا ضير من التجربة إذا لم يكن هناك من شىء مما فكرت وقدرت . فأمامى الطريق إلى الباخرة . سرت عدة خطوات قليلة لكى الحق بها وهى تسير متباطئة وفى ذراعها صبية صغيرة . ولكن لم ألق بها كما أردت بل فوجئت بها تقابلنى وجها لوجه ولم تظهر على ملامحها ما يشجعنى على محادثتها، ولم أكد اتجاوزهم بوضع خطوات حتى رأيتها تلتفت كما

تلفت أنا ، وتبتسم كما تبسمت ، ثم تضحك في صوت مسموع
وتتحول إلى ذلك الجسر الحجري وتتوقف بجواره . وهكذا عدت
واستطعت أن أدير معها حديثاً ناجحاً أكثر نجاحاً من سابقه قبل
يومين . وكان ذلك الحديث باللغة الايطالية فهي لا تدرى من
الانجليزية شيئاً . وبدأت بسؤالها عن اسمي . ثم هل لك صديقة في
مصر . وفي هذا الحديث انقضت بضع دقائق وأخرجت لها مامعى
من صور عائلية ومشاهد مصرية ملونة وكنت أتعمد أن أمس بجلد
وجهى شعرها القصير الغزير الذهبى وهى منحية على هذه الصور
وهكذا أصبحنا صديقين وعندما أرادت أن تنصرف استوقفتها
لكى أعثر على الكلمة التى أوشكت أن تفلت منى وهى الى اللقاء .
وأجابت إلى اللقاء . واستدارت لتنصرف وعدت استوقفها مرة
أخرى ومتى يكون هذا اللقاء واستطردت قبل أن تجيب باكر فى
نفس هذا المكان وفى هذه الساعة . وأسرعت تنظر الى الأرض كأنها
تفكر وإلى صبيتها الصغيرة كأنها تستشيرها ثم أومأت بالايجاب ،
وهكذا أصبحت عاشقاً ، وبدأ أول غرام حقيقى صادق لى ، ومع
سيلفانا قضيت أسعد أوقات حياتى فى سهرات عاطفية لا أثر للشهوة
أو الرغبة فيها . . واحتلت اللغة الايطالية مكان اللغة الاسبانية
وزادت كلماتى حتى أوشكت أن تصل إلى ألف كلمة . وهو ضعف
العدد الذى أعرفه من الاسبانية وهذا يكفى لى أفهم عنها وتفهم
عنى فهما كافياً .

وسيلفانا من عائلة فلاحين ومن طباعهم المحافظة كما هو الحال
في فلاحى مصر أو فلاحى أى بلد آخر ، وهى من مواليد جنوا
وكانت تضى فترة الصيف عند شقيقها فى موجا الذى يعمل فى
مصنع بناء السفن ، وعائلتهم فقيرة ولكنها من أجمل جميلات موجا
ويجسدنى عليها الكثيرون ، ولجمالها تعرضت لكثير من المشا كل
التي يثيرها الزملاء الحاسدون وغير الحاسدين ، كما أغضبت كثيرين
حتى استطعت أن أستخلصها لنفسى .

لم أكن عابثاً فى هذه العلاقة الجديدة ، وكما كان بوى أن
أتزوج من هذه الكاثوليكية الحسنة ، وقد وقفت مشكلة الدين بيننا
أول الأمر ، ثم عادت تظهر مشا كل جديدة أخرى ، وقد أوضحت
لها وأنا أقبل الصليب المعلق فوق صدرها ، أتى أحترم دينها ولن
أطالبها بتغييره فى يوم ما .

وما أعجب الحب الذى يصنع المعجزات فقد أصبحت فى مدة
يومين بطلا من أبطال السباحة والقفز إلى الماء من ارتفاع هـ
أمتار ، وكان السبب فى ذلك هو وجودها فى البحر ولا شىء غير
ذلك ، وفى مساء كل ليلة كنت أتوجه إلى ذلك الكازينو بجوار
بوابة طويلة تشبه بوابة المتولى فى مصر مع اختلاف لون الحياة
فقط ، وكنت أجلس على ذلك المقهى القريب من منزلها حتى إذا

مرت وأمامي والدتها أو شقيقتها ، عدت إلى مدينة الملاهي وأنفقت ساعة أو بعض تكون خلالها قد انفلتت من والدتها أو شقيقتها إلى ذلك المكان الخالي البعيد عن أعين الناس مع صبيتها الصغيرة التي لا تفارقها فأقضى ساعة تجعلني أنسى الجهد المرهق الذي أبذله يوماً في غرفة الماكينة ، وجبني لا يخلو من قطع الشيكولاته الصغيرة والصور المصرية الملونة التي تحبها الطفلة الصغيرة ، وجلساتنا بسيطة لا تكلفني شيئاً فهي ترفض أن يرانا أحد من الأهالي في مكان عام كالسينما أو المسرح . لقد فكرت في دعوتها إلى الباخرة يوماً ما ، والحمد لله الذي لم يحدث ذلك .

فقد حدثت ثورة بين البحارة والضباط الملاحين وذلك بسبب الفتيات فقد كانوا يحتفلون بذكرى مولد الجمهورية المصرية الأولى وكان مع كل ضابط ومهندس فتاة يرقص معها في صالون الباخرة ، وقد أثار ذلك فضول البحارة فحدثت ثورة كلام وجدال . وسرعان ما تحولت ، والسبب في تحويلها إلى الخمر ، فجاءت ثورة مصارعة ياباني وباظت الحفلة والحمد لله على أن سيلفانا لم تكن معي . مادامت لم يزل في المصريين هذه النعرة الدينية التي يحلو لهم أن ينفذوها على غيرهم فقط أما على أنفسهم فلا ، وكلهم زان وكلهم يشرب الخمر ، وبعد ذلك لم أفكر في دعوتها إلى الباخرة واكتفيت بلقائها في البحر نهراً وفي مكاننا المتفق عليه ليلاً . حتى حدث ما لا بد أن يحدث

وانقضت أيام السعادة والراحة . وأقبلت أيام الشدة والتعب ، وإني لأذكر قول الذى سئل . كم مرة أحب ؟ فقال : ولم مرة أصبت بالزكام . أما أنا فلا أشكو الزكام ، وإنما أشكو الحب وأرجو الله أن يكون هذا آخر حب ، وإني لأعجب ماذا أعمل بهذا العدد الكبير من الفتيات ، فإكل فتاة رحلة أو لكل رحلة فتاة . وهل أنا سعيد أم يخيل لى ذلك ؟ هل أنا أخدع نفسى أم أخدع الناس إني أشعر بالغيرة تنهش قلبى نهشاً . فإن تقاليد فتاة أجنبية مهما كان اعتدالها لا تتفق مع تقاليد الفتاة المصرية . أذكر قول صديق لى هل تعتقد أنه توجد فتاة فى مصر ترضى بك زوجاً وأنت فى مثل هذه الحالة تضرب فى الآفاق .

نعم أوافق أيضاً على أنه لو وجدت هذه الفتاة لاسترحت وأرحت . وأصبحت من أوفى الناس لها واحفظهم بعهدا . فأنا فى تريستا أرفض صداقة عدة فتيات جميلات من أجل سيلفانا . وقد أرفض صداقة سيلفانا من أجل الفتاة المصرية ولكن أين هى ؟ لست أدري ماذا سيحدث . به الغد . قد تكون سلفانا زوجة لى فى يوم ما - وقد يكون كل نصيبى منها تسويد عدة صفحات يطويها النسيان بعد ذلك . والتقلب فى بضعة أيام منعمة باللذة والقلق والالم ومزاج من كل هذه المشاعر المتدفقة بدلا من السكينة وراحة البال وما أعجب قلب العاشق الذى يرفض الراحة ويلج فى طلب العذاب

يسيره قلبه وعواطفه معدوم الإرادة . مسلوب الرأى مغلوب على أمره . حتى إذا تنبه لخطئه بعد ذلك قد يرعوى ويعود إلى الطريق الصواب . ويغلب عقله على عاطفته . ويكون قد أصابه ما أصابه من هم وقلق وشغل . كانت أيامنا الأولى هادئة سعيدة راضية نجلس في نهاية طرف بارز طويل من الأرض اتخذ مرفأ للقوارب الصغيرة ، نفترش الأرض على ساحل البحر ، مدلاة أرجلنا فوق الماء ، نخيم علينا الظلام والليل بستائره الكشيفة السوداء . وعلى هذه الكتلة الحديدية المفروشة في طرف الساحل والتي تربط بها السفن نجلس عليها متلاصقين وتفترش الطفلة الصغيره الأرض . أو نترك لنا بضع لحظات قصيرة متشاغلين بالنظر إلى المدينة الصغيرة وهي توشك أن تنام وتحمد حركة ملاهيها وموسيقاها . وأذكر قولها لى . لو حضرت والدتى الآن ورأتنى معك لقدفت بى إلى الماء . فأجيب . لا تخشى شيئاً فأسرع إلى إنقاذك . وما يمنعك من أن تخبرى والدتك بما بيننا . وما يمنعنا من الزواج وأمامنا شهران سنقيمهما فى هذه الحديقة تستطيعين بعدها أن تسافرى معى على الباخرة .

وعند ما كنت أودعها فى هذه الليلة أحسست يديها فى مثل برودة الثلج لا أدرى ما سبب ذلك هل هو الحب ؟ أم الخوف ؟ هل كانت تحببى أم تخافنى . . . أما أنا فقد كنت أحبها ورفضت

صداقة فتيات كثيرات من أجلها وأذكر فاوست التي كانت تطاردني
بغرامها فأنفر منها ، كما أنفر من أية فتاة تتمهن عاطفتها ونفسها امتهاناً
مزرباً ، ولا أحس لها في قلبي غير الاشفاق والرحمة ، فتزيد في
غرامها حتى كنت أصرخ في وجهها وهي تتمسح بي وتمر بأناملها على
وجهي وشعري ، وتهمس في أذني بأنها تحبني . وفي باطني صوت
يريد أن يقول إنى لا أريدك وقلبي مشغول بغيرك ، ولكنى كنت
ألجأ إلى النفاق بدلا من جرح كبريائها وإهانتها ، وقد كدت أصرخ
في وجه سيلفانا وهي تقف بجوارى باردة جامدة كالوح من الثلج
وهي أقرب إلى الانجليزية منها إلى الايطالية المشبوبة العاطفة . لم
تكن سيلفانا أول فتاة أحدثها بأسهاب عن نفسى وعن مصر ، وعن
أى فتاة مرت بي من قبل ، وكنت أغادر مكانى فى موجا . وحولى
عدة فتيات جميلات يردن السهر والرقص والغرام . فكنت أغادر
مكانى لأرى سيلفانا ولكى لا ترانى هى فى مثل هذا الموقف ،
وكان جزائى جزاء سنهار .

لقد أثارت غيرتى وتمادت فى ذلك ، وأحمد الله على أننى لم
أنس إتنى مصرى وهى ايطالية . تأتى من العادات والأعمال
ما لا يستطيع أن يلومها عليه أحد . لم أنس نفسى ولم أصفعها تحت
تأثير غيرتى الشديدة معرضاً نفسى بعد ذلك لخطر المحاكم والسجن -
لقد أردت أن أضع لحي هذه النهاية القصيرة الجميلة ، ولكن القدر

الذى أراد أن تطول أيامى معها ويزيد شقائى بها . أصبحت أود
الرجوع إلى وطنى وبتى ، وقد كنت من قبل أود عدم الرجوع .
وأفادنى ذلك فى أن أحترم التقاليد المصرية الجميلة التى كنت أهزأ بها
سابقاً . التقاليد المصرية البسيطة ما أجملها . إننى أدافع عنها الآن ،
وسأدافع عنها ما حييت .

لقد رأيت فى رحلاتى السابقة لكل شعب تقاليد معينة تختلف
عن تقاليد الشعب الذى يجاوره ، وهى التى تميز شخصية هذا الشعب
عن ذاك وكل يحترم هذه التقاليد ويحافظ عليها بل ويقدها . أما
فى مصر فهناك تقاليد بسيطة سليمة ، ولكن الغالبية العظمى لا تحافظ
عليها بل تتمرد عليها بجهل ، وبدون تفكير سليم . يريدون أن
يقلدوا أوروبا فى كل شىء كما يقلد القرد ، ونسوا أنهم يهدمون
شخصيتهم وميزتهم وكيانهم بهذا التقليد .

ما أجمل المصرية لو نظرنا إليها نظرة منصفة . ما أجمل الشعر
الأسود والكستنائى والعيون السوداء أو البنية . ما أجمل الملامح
المألوفة لنا . القرية من قلوبنا ، وفى أوروبا تفتننا العيون الزرقاء
والشعر الأصفر ، ولكننا لا نرى حلاوة طبع المصرية وجمال
روحها وتقاليدها وعاداتها . ما الذى جعل علاقتنا تفسد وتنقطع
ما الذى يدفعنى إلى التفكير والقلق بعد أن تفسد هذه العلاقة
وتنقطع ، ولكنه كان خطأى فى الحالتين فقد قلت لها بدافع

كراحتى الشديدة للإيطاليين . إتنى أتمنى لو كنت فرنسية تتكلمين اللغة الإيطالية كما أن الكندية تتكلم الانجليزية ، والكوبية تتكلم الاسبانية . لقد نسيت أنها إيطالية ولم أنس كراحتى الشديدة للإيطاليين ، ولا أدري ماسبب هذه العقدة وماسبب هذه الكراهة هل هى الحياة الباذخة التى رأيتهم ينفقونها فى ليبيا ، والفرق الشاسع البعيد بينها وبين حياة الأهالى الذين يسكنون الأزقة والدروب ، هذه الصورة التى نراها فى نطاق ضيق فى بعض الموانى المصرية مثل الاسكندرية والسويس وبورسعيد سبب هذه العقدة ؟ هل هو فرانكو كامينى كبير مهندس الباخرة الذى رأيت فيه صورة لاتنسى من الصفاقة والدناءة والخسة .

لا أنكر أتنى رأيت فى تريستا قوماً مؤدبين مهذبين كما رأيت فى كندا وروسيا وهولندا ، وليس من العدل أن نحكم على شعب بأكمله متأثرين بالحكم على شخص واحد أو عدة أشخاص .

ثم كانت اللغة فلم تكن تعرف من الانجليزية حرفاً ولم أكن أعرف من الإيطالية حرفاً يوم أن لقيتها ، وأجهدت نفسى فى دراسة هذه اللغة كي أفهم عنها وتفهم عنى ، ولكنى لم أصل إلى الدرجة التى كانت تفهمنى بها فاوستا التى تجيد الانجليزية إجادة تامة وما من شك فى أتنى لم أفهمها فهماً تاماً ولم تفهمنى هى كذلك ، وقد قلت ذلك فى إحدى المرات . فأغضبها ذلك . فى هذه الفترة أخذ

حبناً يضعف وصداقتنا تبلى وترث ، وفي هذه الفترة ظهرت فاوستا تطاردنى بغرامها وصداقتها واستطاعت يالحاحها أن تورطنى وتحصل منى على وعد بلقائها ، وعند ما كانت العاشرة مساءً فى اليوم المتفق عليه لمقابلتها كنت آوى إلى فراشى بعد أن اعتكفت طيلة ذلك اليوم وأنا أنزع من ذهنى صورتى سيلفانا وفاوستا . صورة فتاة تريدنى وأخرى لا أدرى إذا كانت تريدنى أم تجاهلنى . تجنبى أم تعطف على ، وما الفرق بين سيلفانا وفاوستا ، والأخيرة برغم نظارتها الطبية أكثر ثقافة وأوسع اطلاعاً . أما سيلفانا فإنها أكثر أنوثة وحياء . . فى هذه الفترة انقلب البحر فجأة فتحول الصيف إلى شتاء فى بضعة لحظات ، وزأر البحر زئيراً عنيفاً حتى طغت الأمواج على الطرقات وحبست المرور ، وأمطرت السماء وأرعدت واشتدت برودة الجو ، وهرب المصطافون ، واعتكفنا فى سفينتنا عدة أيام ، وما أن هداً الجو وتفاءلنا مرة أخرى بالربيع الصحو حتى أذاع راديو تريستا يحذر المصطافين من الاستحمام بسبب دخول سمكتين من الأسماك المتوحشة (القرش) إلى منطقة الميناء خلف إحدى السفن .

وفى هذه الفترة أخبرت والدتها بعلاقتنا كما طلبت منها سابقاً وقدمتنى إلى والدتها وشقيقتها ، وتبادلت حديثاً طويلاً مع شقيقتها الذى نسيت اسمه ، واستطعت أن أختلس عدة دقائق أهمس فى

أذنها بأننى أغار عليك لأننى أحبك ولكنى لم أستطع أن أفهمك ،
وقد حضرت لأودعك وستقلع سفينتنا إلى ميناء تريستا بعد يوم
أو يومين ولن أحضر إلى (موجا) بعد ذلك . . فأجابت وقد
فاجأها قولى . لماذا لا تريد الحضور إلى (موجا) مرة أخرى ؟
فأجبت . ألا تعرفين السبب وكانت إجابتها وهى تنظر إلى الأرض
لا . ولم تسعفى اللغة . . لأقول لها إنك كاذبة فى ذلك فقد آثرت
غيرى وتماديت فى ذلك حتى شاب حبى لك الكثير من البغض ولا
أقول الكراهية بالرغم من أننى أصلى وأقرأ القرآن ألا أن ذلك لم
يكن كافياً ليدخل السكينة إلى قلبى ويبعد القلق والغىظ والحب عن
تفكيرى وعقلى .

وفضلاً عن ذلك فلست عابثاً ، ولا أريد أن ألقاك مالم أعرف
نتيجة هذا اللقاء ، وقد انقضى الشهر ولم يبق على مغادرتنا تريستا
بأجمعها غير أيام قلائل ولم أعرف حتى الآن رداً على أسئلتى
التي عرضتها .

ولم أكن أدري أنها تؤخر هذا الرد وتتعمد تأخيرهِ لليوم الأخير
وكانما هناك اتفاق صامت بينها وبين والدتها وشقيقها على ذلك .
وعندما انتقلت الباخرة إلى مدينة تريستا لم أستطع أن أحبس نفسى
غير أربعة أيام فقط . نعم . لم أنس فى زحمة المدينة الكبيرة ما حدث

لى فى القرىة الصغىرة ، وذهبت إلیها بعد كل هذه الايمان المغلظة
اللى حلفتها الا "أحضر إلی (موجا) بعد سفر الباخرة .

وحدث أن قطعت المواصلات الحديديّة والعربات بسبب
الإضراب العام فى جميع اتجاه تريستا . ولكنى ذهبت إلیها بطريقة
معربة شاقة ، وكنت أسير فى طرقات المدينة تحفى نظرات كثيرة
متسائلة مندهشة عن حضور هذا بعد أن سافرت باخرته وما ذا
يريد ؟ لقد كنت أرى فى وجوه الشبان والشابات هذه الأسئلة ،
وكانت الإجابة علیها بعد لحظات عند ما وقفت بجوارها فى وسط
الأضواء الساطعة الشديدة ، ثم عادت تدلف إلی ذلك الركن المعتم
خلف المدينة اللاهية ، ولكنى لم أستطع فى خلال الأيام القصيرة
الباقية أن أصلح ما أفسدته هى فى خلال الأيام الكثيرة السابقة ،
فنفضت یدى منها . . . وما كدت أفعل ذلك حتى رأيتها تخرج من
هدوئها وحيائها وهكذا أصبح الطالب مطلوباً ، ولكن بعد أن
عافتها نفسى وزهدت فى قربها .

وكان أغلب هذه الأيام خصام طويل متصل لا أكاد أنهيه
حتى تبدوّه هى أو تبدوّه الظروف التى لا حيلة لى فيها .

ومن ذلك ما حدث فى يوم عاصف مطير . جعل المدينة الساهرة
تغلق أبوابها وتنام مبكرة ، ومع ذلك ذهبت إلی موجا ورأتنى

صبيتها الصغيرة ولم أكن أدري أنها ستخبرها بذلك . ويشاء الحظ العاثر أن تجلس على مائدتي قبل دخولها بلحظات فتاة لا أعرفها فقد تحولت المائدة بسبب الأعصار العنيف في الخارج إلى مائدة عامة يجلس عليها الجميع . وكان أن أغضبها ذلك . فلم أكد أقابلها وجهاً لوجه حتى أسرع مبتعدة عني - فتجاهلتها وسرت في طريق مغيظاً حانقاً أودعها لو أحطمها وأحطم كبرياءها هذه .

وفي مساء هذه الليلة كانت تقف في طريق عودتي إلى الباخرة على غير عادتها . وكانت الفرصة سانحة لكي أسبب لها بعض ما سببت من ألم ولكنني أشفقت على كبريائها أن تتحطم وأشفقت على نفسي أن لا أودعها ولم يبق على سيرنا غير يوم أو بعض يوم ولست أدري هل كنت أحبها . أحب هدوئها واتزانها وكان ذلك يغيظني في أحيان كثيرة . أم كنت أحب نفسي وأوثرها بالخير . أحب أن تكون لي زوجة شريفة جميلة . وأجمل ما في الدنيا زوجة شريفة جميلة . . هل كنت أحب هذه الأيام السعيدة التي مرت بي . الأيام القصيرة السريعة - قصيرة كعمر الزهور . سريعة كالأحلام جميلة كما هي ، وجميلة كالزهور والأحلام .

لقد كنت أحبها ورفضت صداقة كثيرات . ومنهن سينسي . وسينسى هذه مدرسة اللغة الانجليزية في مدرسة المدينة . وقد اقبل

زميل يبلغنى أنها أعجبت بى وتدعونى للتعرف بها ، ولكن التى أعجبت
بى لم ترقى فرفضت هذه الدعوة وأنا أتمثل بيدى الشاعر كادى أمين :

ولو كان لى قلبان عشت بواحد لهدى رقت لتلك قلبى الثانى
ولكن تعلقنا هوأنا بفاضح أراها به فى الصدر حيث ترانى

وتكرر طلبها هذا وتكرر رفضى لذلك . حتى كان اليوم
الآخير لنا فى المدينة ، وكنا نجلس فى جمع من المصريين على ذلك
المقهى المواجه للبوابة الطويلة . عند ما أقبلت مع زميلة لها . حيث
رأيتها لأول مرة وإن كانت هى رأتنى كثيراً ولم أثبت من ملاحظها
فى غير هذه اللحظة . رأيت فتاة جميلة لا تقل جمالا عن سيلفانا إن
لم تزد . لعلها كانت تنتظر منى الكلمة التى تقولها جزافاً لمن تعرفه
ولمن لا تعرفه . ولكننى لم أستطع أن أقدم صداقتى التى ألحت فى
طلبها . لم أستطع كذلك أن قدم لها الكلمة التى أقبلت اليوم تريدها
وهل سأندم يوماً ما على ذلك . على أن رفضت صداقة فتاة كريمة
مثقفة جميلة فضلاً عن أنها تريدنى . وانطلقت خلف فتاة غادرة .
تخفى وراء هديرها العذاب الذى يضنى ويعجز ويحطم .

ولكن لم يكن لى أن أختار . ولو كنت مختاراً لا انصرفت عن
طلبهما فلى من متاعبى ما يصرفنى عن هذه وتلك ، ولكنه القدر
الذى اختار لى لكى يضيف إلى متاعبى متاعباً ، وإلى شقائى شقاء .

وعلى شاطئ البحر ، وإن كان الليل قد انتصف أو كاد رحنا تنفق
آخر ساعات لنا في وسط هذه الشلة الكبيرة من الفتيات ، وإن كان
لكل فتى فتاة وليس لى شيء ، فقد كانت لى طفلة كبيرة لم تفصح لى
عن ذات نفسها كما كنت أريد ولم تنطلق معى كما أرغب . قضينا
سهرة سعيدة امتزج فيها الغناء المصرى والإيطالى . والموسيقى الشرقية
والموسيقى الايطالية . كانت سهرة صاخبة مريحة .

انصرفنا بعدها إلى ذلك الميدان الفسيح لى نستقل الترولى باس
لآخر مرة فى طريقنا إلى تريستا . وغداً ستضرب الباخرة فى الماء
مفارقة ذلك الشاطئ السعيد . وقد تعود يوماً ما إلى ذلك الشاطئ
نفسه وقد لا تعود . على الإطلاق . . . وقد تعود ولا أكون بها
وأكون قد وطنت نفسى على الاستقرار فى الأرض الثابتة . وقد
أكون بها ولا أجد هذه الوجوه التى أراها الآن . . . وكيف يثبت
الزمن وهو سريع التبديل والتغيير ينقلنا من طور إلى طور وهذه
سنة الله فى الأحياء والأشياء .

فى ذلك الميدان الفسيح رأيتها تنتظرنى وما أعجب هذا الوفاء
الذى لا يظهر إلا فى الساعات الأخيرة بل فى غير الدقائق الأخيرة .
فى ذلك الميدان الفسيح الذى رأيتها فيه أول ما رأيتها قبل شهرين
وانقضت هذه الأيام ولم أقبلها قبلة واحدة . وقد أردت ذلك يوماً
فرأيتنى أطبق على الهواء ، فجنى جنوقى واندفعت كلتنى فى صراخ

أقيد يديها محاولاً الوصول عبثاً إلى وجهها الذى كانت تدفنه فى صدرى ولم أرى غير شعرها الذهبى القصير أنثر عليه قبلاتى السريعة القصيرة . . . بينما روعت الصبية الصغيرة التى كانت بصحبتهما دائماً . فى هذا المكان الذى رأيتها فيه لأول مرة وأراها الآن لآخر مرة فغداً سوف تضرب الباخرة فى الماء ولن ترحم عواطفنا عندما تصارع الموج . وتضربه ضرباً غير رقيق . كأنها تريد أن تبتعد أو تتخلص منه . فى هذا المكان نسيت إساءتها وعذابها ، وما كان يشقنى غير ذلك . وتقدمت إليها مصاحفاً ومودعاً الوداع الأخير وكانت تقف ومعها والدتها وشقيقها . وقد تكلمت والدتها ولم تكن تتكلم من قبل . . . إذا كنت تريد لها فلماذا لا تقيم هنا . . . فأجبت . . . ولماذا لا تقيم هى معى فى مصر وأنا أعدك بأن أحضرها لزيارتك كل عام . . . وكانت إجابتها وكأنها فصل الخطاب . لقد تزوجت شقيقتهما من قبل وعرض زوجها الذى يقيم فى (جنوا) أن يحضرها لزيارتنا كل ستة أشهر . والآن تنقضى السنين ولا نراها وجنوا بجوارنا قريبة لا يفصلها عنا غير ساعات ، أما مصر فيفصلها عنا أيام . . . ولم أوجه شيئاً من الرد على قول العجوز الكبيرة . ولم تشرب شىء . هذه الطفلة الكبيرة كذلك . وليست إيطاليا بالبلد الذى تغرى الإقامة فيها ، ففيها ما لا يقل عن نصف المليون من العمال العاطلين . . . ولنختصر هذه المناقشة الغير محبوبة فى هذا الوقت .

الضيق فلم يبق على انطلاق الأوتوبس الأخير غير لحظات ، ویدی
فی یدها لا أريد أن أدعها . أريد أن أطيل هذه اللحظات القصار
وأجمل ما فی العمر لحظات قصار وما أن صاغت والدتها وشقيقتها
حتى أسرع یدای تلف یدها مرة أخرى ، ولم أتنبه لذلك الطفل
الصغير الذى يقفز بين ساقينا وهو يمد يده مصاحفاً إلا بعد أن نهتئى
لذلك . وعادت یدی تتلقف یدها مرة أخرى وعلى وجهى شىء
لا هو الابتسام ولا هو الألم . إنما هو الابتسام والألم يتناوبان
على وجهى ، ويمتزجان ، من ذلك ، لا أذكر ما إذا كانت كلماتى
الأخيرة فلم تكن هناك كلمات أخيرة . وإنما كانت یدی التى تعصر
یدها ، وعینای وخلجات وجهى هى التى تعبر عن كلمات كان
يعجزنى قولها . . .

مددت یدی أريد أن أربط على ذراعها . ولم كنت أريد أن أقبلها
وانطلقت إلى الترولى باس الذى بدأ يعلن عزمه على السير لا أريد
أن أنظر إلى الخلف ونفسى الضعيفة قد تنازعنى إلى التخلف والبقاء
وعند ما بدا يتحرك . وينعطف مع الطريق الطويل . وينطلق بعد
ذلك أسرع أنظر إلى الخلف والتقطتها عینای ووجهها وقوامها
فی صورة أشبه بالظلال .

لم تطفر الدموع من عینى امامها . وإنما طفرت بعد ذلك

عند ما اخذت الباخرة تبتعد عن ذلك الشاطئ. الحبيب مطلقة
صفارات ثلاث للتحية والوداع . ويعزيني وقد كتبت لى عنوان
إقامتها الدائمة فى جنوا . انه قد تمكننى الظروف من رؤيتها مرة
أخرى فى يوم ما .



الرحلة السابعة

جنوا مرة أخرى

٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٣

اليوم ٢١ سبتمبر ، وقد عادت الباخرة إلى جنوا مرة أخرى وما أن أقلت مراسيها . حتى أسرع إلى Ruta حيث تسكن سيلفانا في إحدى ضواحي جنوا وتبعد عنها مدة ساعة بالسكة الحديد في هذه القرية الهادئة التي تقع على قمة شديدة الارتفاع وقد وصلت إليها بعد الثامنة مساء ورحلت أشق طريق خلال هذه الطرق الضيقة خلف ذلك الدليل الذي تطوع لارشادي في طريق ملتوى غير معبد شديد الانحدار يضيق حتى لا يكاد يتسع لشخصين ويصعد تارة كأنما يصعد لقمة الجبل ويهبط كأنما يهبط إلى وادي عميق ويكشف بين ذلك عن مناظر طبيعية ساحرة تلوح من أسفل كأنما ننظر إليها من طائرة يطوف بها البحر الملهب بضوء القمر . وعند ما يجتمع البحر والجبل والأرض الخضراء تجتمع جميع عناصر الابداع والسحر الحلال .

وقف بي أمام دار متواضعة ذات طابقين ، وبدأ يطرق الباب

الذى أبى أن يجيب ، وكان ماكدت أحذره فلم تكن سيلفانا قد غادرت
تريستا بعد وهي التي قالت أنها ستغادرها في منتصف سبتمبر أما الآن
فهي تنوى مغادرتها في منتصف أكتوبر كما قيل لى في هذا اليوم عند
جيرانها ، تركت لها خطاباً صغيراً بالاطالية يعبر عن سوء الحظ
لعدم رؤيتها ، وأخذت طريق الشاق بعد ذلك . وقد كرهت نفسى
الاقامة فى فندق القرية ، وكان على أن أسير إلى قرية أخرى تقع
فى سفح هذا المرتفع تسمى Kamolia (كاموليا) وتهبط عنه
هبوطاً عمودياً لى أستقل آخر قطار ذاهب إلى (جنوا) ولم أر
فى ليلتى تلك عند الدار والقرية البسيطة الهادئة كما رأيت من قبل
ضاحتها البسيطة الهادئة .

المـرية

جمال رائع وشعب فقير

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٣

لم تكد الباخرة ترسو على الشاطئ الاسبانى فى مدينة المرية
حتى رأينا الشقرواات الجميلات يقفن على رصيف الباخرة الذى
يتصل بالطريق الرئيسى فى المدينة لا يفصله عنه الحاجز وإنما
تفصله بعض شجيرات .

فى هذه البلدة الصغيرة التى تنتج الفواكه والكروم جمال رائع

وشعب فقير . جمال لم تر مثله في بلد آخر . وفقر لم تر مثله أيضاً .
في هذا البلد أقبل وجه جديد ومعه صفحة جديدة يعرض غراما
آخرأ جديداً كانت — ماسمينا — وليست ماسمينا في مثل جمال
سيلفانا ولكنها كانت تبذل من مظاهر الانصياع والطاعة ما يعجز
غيرها عن بذله . لا أدري هل هي ماسمينا بمفردها أم تشاركها
الاسبانيات في هذه الصفة التي تروى عن الياپانيات ويحيرني أن
أعلل سبب هذه الطاعة وذلك الانصياع تعاليلأ تامأ . . . هل هي فقيرة
وتشاركها في هذه الصفة جميع فتيات البلدة فكلهن فقيرات جميلات .
هل هي متوسطة الجمال ؟ وقفت في منطقة وسط بين الجمال والقبح
فلا هي جميلة ولا هي قبيحة ، وإنما هي مثال شائع لنساء عاديات
كثيرات ولكن رأيت الجميلات في اسبانيا . الذين يفوقن سيلفانا
جمالاً لتؤدي هذه الفروض هل هو عدم الاكتراث الذي
كنت أقابلها به فزيد في غرامها وخضوعها ومثل هذا يحدث كثيراً
بين رفيقين إذا كان أحدهما مشبوب العاطفة معذبأ في حبه صادقأ
في غرامه يكون الآخر غير مكترث ، أو على الأقل يبادلُه عاطفة
بمقدار .

سواء كان هذا أم ذاك . فقد قضيت مع ماسمينا أربعة أيام
سعيدة وبعد ذلك أصبحت أحمل لسيلفانا أكثر مما كنت أحمل لها
من حب فهل أصدق نفسي ؟ نفسي الضعيفة المغلوبة على أمرها .

هل كنت تحب سيلفانا حقاً وتحمل لها المودة والوفاء وتلومها
ولا أقول تعنفها . وعند ما تبادلك ما تريد وفوق ما تريد من
المودة والوفاء . هل غدرت بى سيلفانا وقد غدرت نفسى الضعيفة
بعد شهر واحد من فراقها . كنت تريدها أن تكون فى مثل وفاء
يئنبوب ونطالبها بما تعجز أنت عن أدائه الآن . . لا أدرى ما الذى
يجعل صورتها تلح على الآن كأنها ماثلة أمامى تشخص إلى بنظراتها
التي لا تتغير . نظرة ساهمة طويلة مفكرة . كأنها تقرأ شيئاً .
ولا أستطيع أن أقرأ فيها شيئاً . . . صورتها فى بلوزتها البيضاء
وردائها الأخضر مبتسمة نصف ابتسامة تروح وتجي . فى خطو
ونيد رقيق .

لا أدرى ما الذى يجعل هذه الصورة . صورتها كالفتاة الشرقية
أو التركية ذات ذقن عريضة وشفة غليظة وأنف دقيق عريض .
هذه الصورة لا تريد أن تزول كلها نزعى نفسى من أن تغوص فى
الذكرى أجدها تلاحقنى ولا تترك لى فرصة للالتلاف بها
وللشعور بالندم والحزى الذى ينالنى منها .

أصبحت أرى للأيام الطويلة التى مرت بى وكلها جفاء وخصام
ولقد كانت أيامنا معدودة فلم نستمتع بها ولم نطرح الأنفة والكلفة
التي كانت تسيطر على كلماتنا وحركاتنا وتستبد بعواطفنا فتسيطر

عليها وتغيرها وتعبث بها — فتركنا غريمين بدلا من أن نكون متفاهمين منسجمين بيننا ستار بدلا من أن يعرض كل منا عواطفه وقلبه في صراحة وبساطة للآخر . لم نطرح الأنفة التي كانت تخلق لنا الخصام لأسباب تافهة وتمد فيه وتطيل في أيامه حتى التهمت أيامنا القليلة القصيرة وأتت عليها ولم تترك لي غير القلق الذي كنت أشعر به في تريستا والحسرة التي شعرت بها بعد ذلك ومازلت أشعر بها حتى الآن .

غادرنا المريه بعد إقامة أربعة أيام . في طريقنا الى ليفربول للمرة الثانية — في هذه المرة رأيت صورتين جديدتين مختلفتين أشد الاختلاف أحدهما تخفض هذه البلاد وتعيبها وتحط منها والآخرى ترفعها إلى السماء .

رأيت صورتين جديدتين لم أرهما من قبل في زيارتي الأولى التي صادفت شهر رمضان . وكانت الصورة الأولى هي الحانة وهي في مثل الخبز لذلك الشعب السكير الذي لا يكاد يفرغ من عمله اليومى فتيانا وفتيات حتى يهرع إليها ، وقد تكون مزدحمة ويقف الساعات الطويلة في قطار طويل كهذه القطارات الآدمية الطويلة التي كانت تطلب الخبز وغيره من ضروريات الحياة في أيام الحرب الماضية . . يمتد ذلك الطابور ويلتوى مع جوانبها الخارجية في

الطريق العام ، ومن الداخل غرفة مغلقة تنعقد فيها سحب الدخان الكثيف ورائحة الكحول الممزوج بالعرق ونجوى العشاق الخافتة في صوت كالهمس أو الطنين لا تستطيع أن تفسر منه شيئاً ، فهو يتموج ويتحول إلى دوى كدوى الآلة ، يجمع كل ذلك الصوت والرائحة والمظهر فترى العين وتسمع الأذن وتشم الأنف وتتعاون كل هذه الحواس الثلاث لتنتقل إلينا صورة كريهة بغیضة ولكنها غير ذلك في رأى المخمور . ومن داخل القاعة موائد متلاصقة يحيط بها كرسى واحد طويل ملتصق بالجدار ملتو معه في منحنيات الغرفة وأركانها كأنما وضع لتسهيل تعارف الجنسین حتى يتعرف كل فتى أو فتاة على صديق له من الجنس الآخر . حتى إذا جاءت العاشرة ودوى صوت عامل الحانة كالرعد معلناً انتهاء السهرة Time Finished بدأ ينصرف ذلك الركب الباقي إلى حيث يمضى باقى سهرته في منعطفات الطريق المظلمة أو تحت الكبارى المعلقة غير عابئين بالصقيع والظلام والصورة الأخرى التى تثير الإعجاب ، هى وجود وزارة للعمال يتقدم إليها أى عامل أو صاحب مهنة ما بمجرد تعطله ليقدم البيانات اللازمة عن صناعته وإقامته ، ولا تنقضى أيام معدودة حتى يصله عقد مجهز للتوقيع فى وظيفة تناسبه . وقد يرى هو أنها لا تناسبه فيرفض الالتحاق بهذه الوظيفة لسبب ما فيجرى له البحث عن وظيفة أخرى . وهكذا فالدولة مسؤولة عن خلق عمل لكل فرد من الأفراد

وعلى ذلك فليس هناك عاطل واحد في بلاد الانجليز ، وإذا وجد ذلك العاطل فإنما يكون ذلك لمدة أيام معدودات تصرف له الحكومة خلالها المعونة اللازمة . لمست بذلك صدق مشروع يفردج الذى تطبقه الحكومة الانجليزية والذى يجعلها تتذبذب بين الرأسمالية والاشتراكية وأن تمزج بينهما وتجمع بين حسناتهما .

وبجانب هذه الوزارة للعمال ، اتحاد كبير يجمع شمل نقاباتهم المختلفة المتفرقة ، ويكون الانضمام إليه إجبارياً لى فرد يقوم بعمل ما ويتقاضى عليه أجراً مهما كان نوع هذا العمل .. فهى تضم المهندس والعامل والبحار وأصحاب المهن المختلفة من الجنسين فتيان وفتيات .

والفتيات فى المدن عاملات أو طالبات دائماً ، وليست هناك فتاة ليست من إحدى هاتين الجماعتين ؛ فبمجرد وصولها إلى السن التى تبعتها عن الطفولة وتقف بها فى أول الشباب تجد عملاً ميسراً سهلاً يمكنها من أن تستقل استقلالاً اقتصادياً عن عائلتها لو أرادت . وتستطيع بما تتمتع به من حرية شخصية لا حد لها أن تستقل عن أهلها من جميع الوجوه . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الارستقراطيات من بنات الأسر الكبيرة التى لم تنقرض بعد ومعظم هؤلاء يعيشون فى القرى وليسوا فى المدن الصناعية الكبيرة .

وَيَتَمَتَّعُ بِهَذَا النِّظَامِ جَمِيعُ الْأَجَانِبِ الْمُقِيمِينَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ مِنَ
الْمُنْظَمِينَ إِلَى جَامِعَةِ الدُّوَلِ الْبَرِيطَانِيَّةِ (الْكُومُونُولْث) وَمِنْ غَيْرِ
الْمُنْظَمِينَ كَذَلِكَ . وَقَدْ كُنْتُ فِي ضِيَافَةِ أَحَدِ الْمَصْرِيِّينَ الَّذِينَ عَاقَبَتْهُمْ
ظُرُوفُ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْمَاضِيَةِ عَنِ السَّفَرِ إِلَى مِصْرَ فَتَزَوَّجَ مِنْ أِيرْلَنْدِيَّةٍ
وَأُنْجِبَ مِنْهَا وَعَاشَ عَيْشَةً هَادِئَةً مُطْمَئِنَّةً لَا يَنْغُصُهَا غَيْرُ الْحَنِينِ إِلَى
الْوَطَنِ . . . وَيَشْعُرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِشْفَاقِ وَالْأَلَمِ نَحْوَ طِفْلَتِهِ النِّصْفِ
أِيرْلَنْدِيَّةِ فَاطِمَةَ وَالَّتِي لَا تَعْرِفُ مِنَ الْعَرَفِ غَيْرَ كَلِمَةِ (say والله) ،
إِذَا أَرَادَتْ مِنْ مَحْدَثِهَا أَنْ يَقْسِمَ عَلَى شَيْءٍ مَا .

وَبَعْدَ فَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْإِنْجِلِيزُ فِي الدَّخْلِ . حَيَاةٌ
رَاقِيَةٌ عَالِيَةٌ كَالَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا أَغْنَى شُعُوبِ الْعَالَمِ . وَلَيْسُوا هُمْ أَغْنَى
الشُّعُوبِ الْعَالَمِ وَإِنَّمَا مَصْدَرُ ذَلِكَ الْإِسْتِمَارُ وَامْتِصَاصُ دِمَاءِ الشُّعُوبِ
الْمُتَخَلِّفَةِ مِنْ جَيَانَا الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي نِصْفِ الْكَرَةِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْمَلَايُو فِي
أَقْصَى الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَكِنْيَا الْبَقْرَةِ الْخُلُوبِ الَّتِي لَمْ تَسْتَنْزِفْ بَعْدَ .
وَبِجَانِبِ ذَلِكَ التِّجَارَةُ النَّاجِحَةُ الْأُولَى فِي الْعَالَمِ الَّتِي يُمْسِكُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ
فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ وَلَا يَدَانِيهِمْ فِيهَا أَحَدٌ .

النرويج

١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٣

كنت أقف على حاجز الباخرة عند ما أخذت تنساب في مياه النرويج في طرقات حلزونية ضيقة تدور وتلف وتحصد بينها كتلا صخرية عاتمة ملتفة العشب كثيفة الشجر والدغل . تهبط وتصفر حتى تلمس سطح الماء كأنها سفن محطمة غارقة ، وتعلو علواً هائلاً عمودياً وتمتد طويلاً ، فكأنما نسير بسفينتنا بين الانفاق .

والأرض صخرية صلبة كأنها كتل من الحديد أو الخشب العائم حتى كدنا تتخيل عدم وجود التراب في هذه البلاد . فهي مغطاة كلها بعشب أصفر كثيف تقوم به هنا وهناك شجيرات صغيرة بينها صفرة الورق تلوح من بعد كأنها الحراب الملتهبة تضيء رؤوس الجبال والروابي ، وتحف بالمياه التي تبدو سوداء قائمة بما ينعكس عليها من ظلال الجبال الشاهقة ، وعند ما ينحني الجبل ويتصل بالأرض السهلة تظهر هذه القرى النموذجية ذات البيوت الخشبية منسقة منسقة كأنها لوحة من صنع رسام . استقرت الباخرة على أفريز مصنع تترات الجير بالقرب من قرية تعرف باسم هيرويا وكنا نخترق أقسام هذا المصنع الكبير ونحن في طريقنا لنستقل الأوتوبيس أو البسك

كما يسميه النرويجيون إلى مدينتي بروشين Proshien وشين Shien .
وفي قرية بروشين التي تحتوى على طريق واحد طويل وقد
لا يعتبر بحال من المدن النرويجية النظيفة في الشمال . وهي وإن
كانت لا تزيد عن ميناء صغير يعيش على هذا المصنع لإنتاج السماد
ويتصل بأهله بحارة السفن من أتراك وهولنديين وأسبان لأخذ
حاجتهم منه . بالرغم من كل ذلك . رأينا بلداً راقياً لطيفاً حتى يعتبر
بحق أرقى بلاد الدنيا أو على الأقل أرقى بلد من البلاد التي رأيتها حتى الآن
ولا أقيس هذا الرقى بعظمة الصناعة وضخامة الانتاج ووفرة
الثروة بقدر ما أقيسه بأخلاق الشعب وبساطة الحياة ونظافتها . ففي
هذه القرية وقرية أخرى تعرف باسم شين لم أر أثراً لرجل بوليس
واحد يقف في الطريق حتى كدنا نعتقد أن هذا الشعب ليس في
حاجة إلى بوليس ، ولكننا رأينا على بعد كل عدة أمتار حجرة
صغيرة تحمل لافتة مضيئة تدل على مركز البوليس ، وكنا نسير في
طرقات القرية ليلاً ونرى وجهات المحال التجارية التي يراد إصلاحها
مفتوحة على مصراعيها تكشف عن بضائع غالية ثمينة فلا تمتد إليها
يد . . . والآهالي جميعهم عمالقة طوال الأجسام في مظهر جميل
واحد متقارب لا أثر للارستقراطية فيه . أو البؤس .

فهذه القرية الصغيرة ، أو الميناء الصغير إذا قارناه بغيره من
المدن والموانئ الكبيرة في البلاد الأخرى . أعتبرت النرويج من

أرقى بلاد العالم ، وإن الحضارة ليست في عظمة أمريكا أو إنجلترا من الدول الكبيرة ، وإنما هي في هذه الجهة من العالم في الشمال وكلما تقدمنا في الشمال كلما رأينا حضارة تفخر بها الإنسانية .

استقرت الباخرة أربعة أيام تنقلت خلالها بين هذين المدينتين .
شين وبروشين ولا أنكر أتى كنت سعيداً ، ولكن هل أستطيع أن أصور هذه السعادة التي كانت تغمرني وتحيط بي أم أتى لا أجيد غير تصوير الشقاء والخطوب والأحداث عند ما تضيق على الخناق . . . كنت أول من خطا في طرقات هذه المدينة . تحوطني نظرات كثيرة متسائلة مستفهمة من الأهلين . تذكرني بهذه النظرات التي كانت تكتنفنا في روسيا نظرات الشبان والفتيات والعجائز والأطفال كأنها تريد أن تقول . . . من أنت ، ومرحباً بك . في وقت واحد .

يود كل واحد منهم لو يتصل بيني وبينه الحديث والواقع أتى كنت أتجنب الحديث كما أتجنب الأسئلة التي تمهد للحديث وما أسهل أن يسأل أي قتي أوفتاة عن أقرب سينما أو كافيه أو محطة للأوتوبيس ومثل هذه الأسئلة التي لا يستغنى عنها زائر غريب ، وخاصة في مثل هذه اللغة النرويجية المعقدة التي كنا نبذل الكثير من الجهد لربط بين حروفها ، والحروف الأوروبية الأخرى لنستشف عما تحمل هذه الالفة أو تلك ، مع ما يستوحيه مظهرها من معان . . من

السهل أن توجه هذه الأسئلة . في إيطاليا أو إنجلترا مثلاً حيث لا تثير غرابة ولا تدفع فضولاً ، أما في الزويج فإنها تكفى لكي تجمع على أى منا جميع المارة في الطريق شباناً وفتيات ، وعجائز وأطفال ، فيمطروننا الكثير من الأسئلة حتى تضيق بهم وإن كانوا لا يضيقون بنا . . . وما بال نفسى الماكرة تلتوى ولا تريد أن تفصح عما يدور بها من غير التواء ومكر . . . إنا نريد أن نخص الفتيات بأمسئلتنا بل نريد أكثر من ذلك . نريد صداقة الفتيات لا صداقة كل هذا الجمع الغفير من الناس نعم لهذا كنا تضيق بهم وإن كانوا لا يضيقون بنا . ولكن من من الفتيات تستطيع أن تنفرد بأجنبي في أول يوم من أيام ظهوره في فترة صغيرة . هذه مشكلة فليست كل فتاة تريد ذلك . أو تستطيع ذلك إن أرادت وخاصة إذا كان هذا الأجنبي بحاراً مع ما يتمتع به البحارة من جميع الأجناس في جميع بلاد العالم من سمعة طيبة يستحقونها .

ثم قطع على هذا التفكير أو هذا الحديث الطويل الذى أحدث به نفسى صوت فتاتين بصحبة شابين ترتديان معطفين أنيقين حمراوين تحمل كل منهما على رأسها شعراً ذهبياً رخصاً كذيل الطاووس وتعرض كل منهما بسمة عريضة لم أنتبه لها ولم أفكر فيما تحمله من معنى .

وسرت في طريق أنظر الى الناس وأتجنب في الوقت نفسه

نظراتهم التي لا تريد أن تتجنبني . ولكن رأيتهما أمامي مرة أخرى
منفردين في هذه المرة تعرضان نفس هذه البسمة العريضة . . وفي
طريق جانبي مظلم رأيتهما تقفان في آخره كأنهما تدعوانني الى
الدخول فانحرفت فيه . ولكنني فوجئت بخيبة أمل شديدة عندما
رأيتني أسير خلف شاهين من شباب المدينة يريد كل منهم نفس
الغرض الذي أريد . وبدأ الظلام يكشف عن حديقة صغيرة
ومقاعد نظيفة . وانحرف الشبان ناحية المقعد الذي تجلس عليه
الفتاتان ولكن حدث ما أبهجنى بعد ذلك فقد غادرت كل مقعدها
وسارت بجوارى عدة خطوات حتى دنا مقعد آخر قريب . وفي
هذا المقعد بدأ حديث قصير غريب لقد كانت تظنني اسبانيا والعجب
انني في اسبانيا نفسها كانوا يظنونني كذلك . وحدث مثل ذلك في
بلاد كثيرة رأيتها من قبل . ولعل لاسبانيا سفن ملاحية ورحلات
منظمة أكثر مما لمصر ، مع ما للمصريين والمصريين من ملاح
متقاربة متشابهة .. وهؤلاء الشماليون البيض تفتنهم البشرة السمراء
والشعر الأسود . كما تفتننا الوجوه البيض والعيون الملونة . بدأ
حديث غريب قصير كنت أشير الى الشيء وأطلب منها بالإشارة
أن تنطق اسمه فاذا به أقرب ما يكون الى الانجليزية وكان ذلك الشيء
مقعداً أو شجرة في بادية الأمر ثم ينتهي إلى أن أشير إلى فمها وأنفها

وعينها ، وهكذا تجمع عندي عدد من الكلمات تكفي للتفاهم عدة ساعات . وقد أنساها بعد ذلك كما نسيت اسم هذه الفتاة فقد اختلط في ذهني اسمها بأسماء النرويجيات الذين عرفتهم بعد ذلك وصورتها صورتين ، وان نسيت لن أنسى أنها أجمل فتاة نلت منها أعذب القبلات . وبدأت أفواج المصريين تغمر المدينة الصغيرة . واختارت أن أحدهم ليكون زميلاً لصديقها . والتي اختارت بدورها أن نمضي سهرتنا في مدينة شين ورفضت كلاهما أن تتركب الأوتوبيس تجنباً لنظرات الأهليين وفضولهم وكان لا يد من التاكسي . الذي لا يقف في الطريق العام كما هو الحال في مصر بل يستدعى بالتليفون بواسطة عامل يقيم في كشك خشبي صغير . . . وفي مدينة شين امتدت سهرتنا حتى الثانية بعد منتصف الليل وكان موعدنا اليوم التالي . . ولكن صرفتني عنهم في اليوم التالي (ماريا) التي لم تختار مدينة شين ولم تختار التاكسي وانما اختارت أن ترتقي الجبل بالليل وأن تشركني معها في هذه الرياضة العنيفة . حتى إذا بلغنا القمة وخلفنا تحتنا المدينة النائمة وآوينا الى مقعد خشبي صغير نلتقط أنفاسنا اللاهثة وتحمل إلينا الريح الهمسات التي تنبعث في سكون الليل بين المنازل الكثيرة المبعثرة في السفح . أقنأنا ما أراد الشيطان لنا أن نقيم وانصرفنا عندما أقبل سرب من الفتيان والفتيات يلغطون ويمرحون .

لست أدري أى حيوان يلبس هذا الجلد وأى شيطان يتقمص
هذا العقل المشوش المضطرب

لست أدري أى خبل أصابنى . لقد كنت أومن بالحب . فما
بالى اليوم أومن بالعبث . لقد كنت أحب سيلفانا وأجلس بجوارها
كما أجلس بجوار ماريا الآن ولكن مع فارق واحد . فمع سيلفانا
كنت أحس بالهدوء والتحفظ . وبجوارى جسد بعيد وروح قريب .
أناجيتها أعذب النجوى . وإنما هذه جسد هامد لا تدري ولا تعي
ولولا هذه الأنفاس الصاعدة الهابطة لما اعتبرت من الأحياء وروح
لا تحس ولا تشعر بها . هل كانت صورة سيلفانا تعرض لى حتى
تثير فى قلبى عواطف الحب الكامن الطاهر وتجنبنى بما أوشك أن
أقع فيه من دنس ؟ نعم كانت تعرض لى صورة سيلفانا غامضة
مبهمة غير واضحة المعالم كما كان شيطانى يعرض بها ساخراً كأنه
يريد أن يقول . ما يدريك أن سيلفانا كانت تريد مثل ذلك ؟ . .
أنفقت مع ماريا أياماً ثلاثة فى ذلك الركن المهجور من أركان
المدينة لا تفرق إلا عند ما تريد هى أن تفرق . وهى لا تريد
ذلك إلا بعد أن ينتصف الليل . وتطلب العودة لتقضى
ساعات الصباح القليلة فى دارها ثم كان الوداع . وداع الخائف
الوجل الذى لا يخشى غير نظرات الناس . أين هذا من
وداع سيلفانا التى كانت تطفر من عينيها الدموع أمام والدتها
وشقيقتها . . . أين هذه من تلك التى نسيت اسمى بعد يوم واحد .

ولولا اسمها وسهولته لما ذكرته .

إننى أشعر بالندم وأخوف ما يخيفنى أن يزايلنى ذلك الشعور بالندم الذى يمهّد للتوبة ويمهّد للخير . ذلك الندم الذى كنت أحسه فى أسبانيا . . ثم بدأ يقل ويخفت صوته فى انجلترا ثم هو ينعدم أويكاد فى النرويج حتى أكاد أشعر به ولا أكاد أحسه بل أبذل بعض الجهد لكى أخلقه وأصوره وأحسه . وفى آخر ليلة لنا فى بروشين انهمكنا مع فتيات كثيرات فى السهر والسمر والحديث فى الطابق العلوى من ذلك الفندق الكبير والذى يشرب رواده الخمر ، ولعله شهد أول ما شهد بما أشربه الليلة فأنا لم أشرب الخمر فى حياتى قط ، ولعل هذه الحسنة الوحيدة الباقية لى ، وقد شربت الجعة مرة أو مرتين فعاقبتها نفسى فلم أكرها على شربها بعد ذلك . فى ذلك المقهى الكبير رأينا معرضاً من معارض الجمال الفذ ، وانضمت إلينا عادة نسيت إسمها . وهى أجمل ما وقعت عليها عيني . ذات شعر أسود كأنها إسبانية تغمر وجهها سحابة وردية جميلة . . تتحلى بقرطين سوداوين يزيدانها قرباً من فتيات الفجر وعند ما قلت لها ذلك . تضاحكت وهى تقول . هل قرأت شيئاً عن الحب فى إسبانيا ؟ فأجبت . نعم ، وإنما لم أقرأ شيئاً عن الحب فى النرويج .

وفى هذه اللحظة قبل أن نغادر البلدة فى طريقنا إلى الباخرة ، وكنا نعلم أنها انتقلت من مكانها إلى مكان أسهل على الرصيف إلى مشارف

البلدة في عرض البحر في انتظار الصباح القريب لتبدأ السفر... وفي هذه اللحظة انضمت إلينا مجموعة كبيرة من الجميلات ، وعدد من الرجال والأطفال ، مجموعة بالكثرة التي كنا نتحاشى الاندماج فيها من قبل حتى لا تعوق أيامنا القصيرة ، وساعاتنا القليلة المحدودة . وكانت إحداهن تترجم ما كتبت صحيفة نرويجية مسائية عن المصريين السمر Mortiok ، وتقدم أحدهم وهو يشير إلى فتاة جميلة كلها دلال وإغراء ، وهو يقول : إنها تقول أنه يروقها شاربك ، فهل هي تروقتك ، فأجبت وأنا أفتح لها ذراعى مرحباً بها . إنها أيضاً تروقتي ، وكانت الساعة الواحدة مساءً ، وانطلق بنا الزورق البخارى ساعة كاملة إلى السفينة التي أزمعت السفر حيث قدمت لنا لأول مرة سلباً من الحبال .

هكذا غادرنا النرويج ، وغادرنا الفتيات الشقروات اللواتي لم نر مثل جمالهن في غير روسيا ، فكلهم عمالقة طوال الأجسام ، ففي النرويج فتيات تفتنن الشوارب الكثيفة السوداء ، وبها أيضاً أطفال تفرعهم هذه الشوارب وأذكر عندما كنت أسير بجوار المستعمرة الخشبية للوظفين الملحقة بمصنع السماد ، وأمامى أم وطفلتها التي لم تكد ترانى حتى أخذت تجرى مفزعة تجذب أمها التي أمسكت بيدها جذباً عنيفاً تريد أن تتخلص منها ثم تنطلق .

ولم أتنبه لفزعها إلا عند ما أقبلت الأم تشرح لى متضاحكة
وهى تشير إلى أسفل ذفتها أنه لم يفزع الطفلة الصغيرة غير شاربك .
أقلعت الباخرة مع الفجر ، وأخذت تصاحبنا فى رحلتنا الطويلة
أسراب من القنابر الملونة المهاجرة مع الخريف ولعلها كانت هاربة
من موجة البرد القارس الذى بدأ ينتشر ظله المميت على هذه البلاد .

بدأت رحلتها معنا قوية نشيطة متحفزة . تتلاعب وتلتوى
وتدور ، وتعبث مع الموج ، وتضرب فى الهواء بجناحيها فى قوة
ونشاط وعنف حتى إذا بلغ منها الجهد آوت إلى السفينة تصيب شيئاً
من الراحة ، ومنها الصغار الملونة فى لون الزهور البرية الجميلة تتبع
هذه القافلة حتى إذا ابتلت أجنحتها ، وعجزت عن اللحاق بالسفينة
استسلمت استسلام اليائس لتصير طعاماً سائغاً للأسماك .

استمرت هذه القنابر فى مهاجرتها الشاقة المتعبة حتى شارفنا
خليج بسكاي ولم نعر لهذه القنابر المنكوبة على أثر . . حتى رست
الباخرة على شاطئ الاسكندرية شاهدنا طائراً واحداً من هذه
الطيور . مبيض الجناح مكسور الساق عاجزاً عن الطيران . بل كان
عاجزاً عن المشى السليم يسير على قدم واحدة عرجاء وكان هذا هو
كل ما نجا من هذه القافلة الرشيقه .

وبهذه أكون قد ختمت رحلتى السابعة وكنت كما كان السندباد

ولكن هل كنت أتوقع مثل هذه الحياة في يوم ما . . . لا . . . ولو
تنبأ متنبىء بمثل ذلك لكان أقرب إلى الجنون أو السفه ، وكأني
أتمثل نفسي في هذا الركن من أركان المصنع الكبير في مدينة السويس
مع زميل يروى لي قصصاً عن الذين أعرفهم ممن آثروا ركوب البحر
وما شاهدوا وراءه من حياة وفتنة وامتحان . كانت تشوقني أخبارهم
وتخيلني ولكني لم أتمنى لنفسي مثل ذلك فأنا أحب الاستقرار أكثر
بما أحب المغامرة والتنقل ، وخير لي أن أنفق سنوات خمس في بلد
واحد غريب أحبه وأريده بدلاً من أن أنفق مثل هذه المدة في
جميع بلاد الدنيا . مدة لا تزيد عن الشهرين في هذا البلد أو ذاك . لم
أكن أريد أن أكون بحاراً مغامراً شريداً بقدر ما كنت أريد أن
أقضي خمس سنوات في بلد غريب تنفعني ثقافته ، ونوع الحياة فيه
بين أناس غرباء أحيا حياتهم وأتكلف ما يتكلفون ، وقد تروقتني
هذه الحياة فتمتد إلى ما بقي لي من أيام ، وتأتي على ما بقي لي من عمر
وقد أضيق بها فأرجع إلى موطنى الذى نشأت فيه ، وقد أَرْضِيت
نفسي بالرحلة والهجرة والتجربة ، وكيف أعود بعد سنوات خمس
وقد تحدثت أحداث ويجد جديد ، ثم أجد نفسي غريباً في بلدى
الذى نشأت فيه . قد لا أجد أُمى العجوز التى تحبني ولا أجد خلاني
الذين أخلصت لهم وأخلصوا لي ، ثم لا أجد الحياة التى ألفتها بل
أجد حياة أخرى أكون غريباً عنها أو غريبة عني ، وما أقسى أن

يعيش المرء غريباً في مهد صباه ، وحيدا بين هذه المعالم والآثار
والمشاهد والديار التي ألفها وألف رفقاءه وخلصاءه وأهله فيها ،
وما جدوى المعالم والمشاهد والديار والآثار إذا لم أجد أهلها
وساكنيها ، وسيكون ثقيلاً أن تفارق بلداً بعد سنوات خمس أو
عشر . هذه السنوات التي لا بد ستكون حافلة بالحياة . زاخرة باللذة
والآلام حياة تستجد فيها مشاهد ومعالم وآثار كما تستجد فيها أصدقاء
وخلان في سنوات خمس تترك ولا بد أثراً هائلاً يورقني بعد ذلك
لو عدت إلى مصر فأعيش موزع العاطفة بين البلدين منقسم النفس
والقلب شطرين أحدهما في بلدي والآخر في هذا البلد الغريب .

كنت أفكر مثل هذا التفكير وأتمنى مثل هذه الأمانى . في ذلك
الركن من أركان المصنع الكبير وأنا أستمع لحديث ذلك الزميل
وهو يقص أخبار من ركبوا البحر وآثروا العيش فيه . . كنت
أختار لنفسي كأنما الحياة أن أختار وأريد ، فتكون كما أختار وأريد .
ولكنه القدر أختار لي أن أكون بحاراً مغامراً شريداً أحيا هذه
الحياة التي رويت لي وأخوض هذه المشاهد والمعالم والآثار التي
وضعت لي من قبل فتشغل جزءاً من خيالي وعقلي ينطبع انطباعاتاً
لا تمحوه السنين . وأجد هذه الخيالات والانطباعات كما تخيلت من
قبل أن أراها أو أقرب مما تخيلت .

شاهدت هذه المدن التي كانت توصف لي وكلمني أن أفارقها
بعد شهر أو شهرين أو بعد عدة أيام . كنت أشعر بالألم الشديد
عندما أغادر هذا البلد أو ذاك في طريقنا إلى مصر أو إلى أي بلد
جديد . كما أشعر بالبهجة عندما أقبل على ذلك البلد الجديد . .
وهكذا تتكرر حياتنا وتعاد . تشعر بالبهجة عند كل جديد ثم تشعر
بالكآبة والكآبة الحادة عند ما تفارقه . ليس شعوري هذا نحو
بلد معين . أفرح ببلقائه وأحزن لفراقه . وإنما كان شعوري ذاك
نحو كل بلد أشاهده فكان كل بلد بحياته التي تميزه وشعبه الذي
يختلف عن غيره من الشعوب . . كأن هذا البلد صديق معين . له
ما يميزه من الصفات والعادات والطباع . وله ما يقدم لي أو ما أجده
فيه وما يبعثه فيّ من ألوان التفكير والنشاط حتى آنس له ويأنس لي
وأخذ معه في اللهو والجد مدة تطول أو تقصر وتنتهي حتما بعد
ذلك ويحيى . الفراق الذي لا بد منه فأشعر بالمرارة والاكتئاب
والألم لمغادرة ذلك الصديق البلد - أو البلد الصديق - كيف لا وكل
صديق يؤلمني فراقه ويسوء في البعد عنه . . وإذا كانت إقامة شهرين
أو ثلاثة شهور على الأكثر تترك مثل هذا الأثر نحو بلد ما فكيف
الحال بإقامة سنتين أو ثلاث أو خمسة سنوات . . . لقد كنت
أرى في أحلامي أنني أظأ أرضاً مجهولة وأخاطب أناساً غرباء غير
معروفين وكان شطراً من أحلامي قد تحقق بعد أن رأيت بلاداً

كثيرة متعددة وما زال شطرها الأخير ناقصاً لم تحققه الأيام بعد
فما زلت أحلم بالهجرة . ولعل هجرتي الآن تكون أسلم مما لو كانت
من قبل بعد أن رأيت ما رأيت من بلاد حتى أختار أحسنها إذا
كان لى أن أختار . . فكل بلد من البلاد التى رأيتها يشغل جزءاً من
ذهنى ويرسم صورة كاملة الوضوح والانطباع فى خيالى . وكثيراً
ما تختلط هذه المناظر والصور فأشعر بحنين إلى هذا البلد أو ذاك .

فهذه طرابلس الغرب وهذا القارب الصغير ذو المجدافين يجتاز
بنا المياه الضحلة فى منطقة الشعاب لنصل إلى السفينة ليلاً بعد قضاء
سهرة صاحبة ثم تختلط هذه الصورة بأخرى فى استانبول عندما
يقطع الزورق البخارى ساعة كاملة فى نزهة بحرية لطيفة مارين
بضواحي استانبول البعيدة لنصل إلى ضاحية الليدو حيث تقف
سفينتنا كأنها فى وسط نهر عذب تقوم على شاطئيه الخضرة والحياة
والجمال . ثم تمتزج هذه الصورة بأخرى على رصيف هولنده
والبيوت ذات الطابع الفلنكى والظلام المحلى بذرات الجليد الأبيض
المعلقة فى الجو يتخللها بعض الضوء فكأنما المدينة خلف ستار
جميل من الضباب والأحلام ثم هذه الصورة بكندا التى تختلف عن
هذه وتلك بالبرد الشديد القارس والجليد الذى تغوص أقدامنا فيه
وتترك أثاراً عميقة واضحة . وتتراكم على معاطفنا ذرات الجليد

المتساقطة فيصبح كل شئ. أيض الأرض والسماء والأحياء
والأشياء. وهذه كوبا وكأننا على شاطئ الفردوس تصل إلينا في
السفينة أنغام الموسيقى الأسبانية العذبة. مدينة تعيش للرقص
والأحلام والأمانى العذاب. ثم تختلط هذه الصور وتمتزج. تتفرق
حتى يأخذنى الروع عند ما أتخيل ما يفصل بينها من المسافات
والآماد والأيام ثم تمتزج حتى يخيّل إلى أنها مدينة واحدة ذات
أحياء مختلفة.

وفي الحالين إذا انضمت هذه الصور أو تفرقت. فكأنى بها
تنادينى وتلح على وتهيب بى أن أراها مرة أخرى. ولست أتخيل
الأشخاص فى هذه المدينة أو تلك بقدر ما أتخيل الأشياء الثابتة
الباقية فقد أعود يوماً ولا أرى هؤلاء الأشخاص الذين رأيتهم من
قبل. وقد أجدهم تفرقوا وأى جمع لا يتفرق؟ أو تغيرت حالهم
وأى حال لا يتغير؟ أما هذه الأشياء والمشاهد والصور فكأنى بها
تنظر إلى وتشخص لى وتدعونى وتلح فى الدعاء. ماذا أريد من
هذا البلد أو ذاك ولست أبغى الثروة وإنما أبغى الحياة الهادئة
البسيطة المطمئنة. والولايات المتحدة أكثر هذه البلاد ثروة
وأعظمها غنى. والزويج هى أرقى ما رأيت حياة وشعباً.

إذا كنت مختاراً لن أختار أكثر هذه البلاد ثروة أو أرقاها

شعباً وإنما يجذبني شيء آخر ليس هذا ولا ذاك لا أدري ما هو . .
شيء يفتنني ولا أستطيع التعبير عنه ذلك هو الحياة التي رأيته في كوبا
لست أبغى المرأة . . فما أتفه المرأة التي نعبر لها المحيط ونطوى لها
البحار والأيام والمسافات . . ولست أبغى الثروة العريضة .
أو الغرام الجامح العنيف . ولكن أريد الحياة المعقولة الهادئة بين
الاثنين وليست كوبا أوفر هذه البلاد ثروة . وليس شعبها أرقى
هذه الشعوب وليست ثقافتها الإسبانية بذى خطر كبير ولكن فيها
شيئاً يفتنني ولا أستطيع التعبير عنه . ولن تعرفه حتى تراه كما
رأيت أنا .



الرحلة الثامنة

فالتسا اسبانيا

٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣

لم تمكث الباخرة غير أسبوعين اثنين في ميناء الاسكندرية ثم بدأت تضرب في الماء من جديد مخلفة وراءها ذلك النهر الصغير الثائر المضطرب وتتناثر ذرات الماء كالضباب عندما تحطم الريح قم هذه الأمواج القصيرة السريعة فتشرها كالغبار . قطرات خفيفة رشيقة تداعب الأحياء والأشياء وتعبق الجو وتصافح الوجوه . فبعث فيها الأمل والحيوية والنشاط وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تبدأ العاصفة ويضطرب الموج ويختلط هذا النهر بالبحر الواسع العريض وتتلاشى أطرافه ويصبح البحر كله كالأرض الوعرة ويتحول هذا الضباب المجتمع إلى طوفان كالسياط يلفع ظهر السفينة ويمنع المرور عليها ويدفعنا إلى الالتجاء للقمرات ويتساقط ما فوق الرفوف ، وتفتح الأدراج ، وتلفظ ما في جوفها من كتب وأوراق منشورة ثم يلفظ كل منا ما في جوفه في صوت كحشرة

الميت وقد يرغب الميت في الحياة . أما نحن فما أشد ما نبغض الحياة
وتزهد فيها في هذه اللحظات ، وقد نمتنع عن الطعام والشراب يوماً
أو يومين ، ولا تمتنع هذه القوة القاهرة التي تجبرنا على أن نلفظ
ما في جوفنا وليس في جوفنا شيء ، ونمتنع عن الماء العذب ،
وتمنى جرعة ماء واحدة ، ثم نشرب بعد جهد وإغراء وامتناع
لنلفظه بعد لحظات . نمتنع عن الطعام حتى نشعر بالألم الذي يشعر
به الجائع ، وقد يشتهي الجائع الكسرة من الخبز ، ولا نشتهي شيئاً
من كثرة ما يصيبنا من الدوار . لانتمنى غير الماء القراح الذي
لا نشعر بعذوبته في غير هذه الآونة ولا نشعر بربه للخليل وإطفائه
للظلمة في غير هذه اللحظات ، وليس الليل بأهدأ من النهار . فراش
يلفظني ويضيق بي ، فهو كالجواد الجموح يعض لجامه ويلقي براكبه
ولولا ما أبذل من جهد لكي أتشبث به كلما ترنحت الباخرة وما
أكثر ما يمتنع علينا النوم ، أو نمتنع نحن عن النوم بما يسببه
الانتظار والقلق من تحفز وانتباه ، وعند ما يصارع النوم أعيننا
ويصرعها ويبسط سلطانه على أجسامنا المرهقة المكدودة . نأخذ
حظنا من نوم مزعج ، ونقتطف بضع لحظات يصيبنا منها من العذاب في
النوم أضعاف ما كان يصيبنا في اليقظة . نقضي لحظات مهووسة مروعة
كأننا نصارع الشياطين كيف الحال لو أراد الله للباخرة أن تغرق

ونحن على هذه الحال من الضعف والهزال والإعياء ولم ينقض على العاصفة يومان فكيف الحال لو أراد الله للباخرة أن تغرق ، وليس فينا فضلة من قوة أو جهد لنبذلها في الكفاح إذا كان يجدى الكفاح ؟ هذا هو الألم الذى يجعل نفوسنا تتطهر من النزعات والأهواء الفاسدة كما يتطهر جوفنا من الأخلاط الفاسدة . هذا هو الألم الذى يصهرنا ويخلقنا خلقاً جديداً ، ويطهر نفوسنا ويسبغ علينا الإيمان العظيم بالله والرضا بقضائه وقدره ، ولم تعد نفوسنا تجزع كما كانت تجزع من قبل ووهبنا الله السكينة ، ولو رأى الملحدون مثل ما رأينا لما بقى على وجه الأرض ملحد واحد ولما بقى مغرور يعتقد بقدرته القاهرة ، ويثق بجبروته وبطشه ، فما أعجز قوى الإنسان أمام قوى الطبيعة الثائرة وما أضعف العقل الإنسانى وعجزه أمام هذه القدرة القاهرة التى تنظم الطبيعة وتسخرها .

ليس بعد هذا الألم الذى نشعر به الم ، وبعد هذا الجهد الذى نحسه جهد ثم لا يمنعنا من أن نؤدى عملنا كاملاً حتى إذا أقبلت فترات الراحة كنا أعجز من أن نقوم بأتفه الأعمال . وهذه المروحة الكهربائية تترنح تريد أن تسقط فلا أقوى على إنقاذها ثم تهوى وترتطم بالأرض وتتطم فلتبق كما هى حتى الصباح أو حتى يهدأ البحر إذا أراد الله له أن يهدأ . . . وعندما أصبح الصباح أقبل الخادم يحمل الى الطعام فى غرفتى بسبب عجزى كعجز الباقين عن التوجه

إلى الصالون . يقبل الخادم ويضع الطعام على منضدة صغيرة
وينصرف مشكوراً ثم أدنى المائدة وابتناول فطوري الأول مرة
على سريري ثم انقلب بعد ذلك إذا أردت أن احتفظ لجوفي بما نلت
من طعام ولا أدري كم مضى من ساعات أو لحظات حتى أقبل الخادم
مرة أخرى يحمل طعام الغداء وكأنما أراد الله للبحر أن يهدأ وانحرفت
الباخرة في طريقها إلى جنوا بدلا من مرسليليا التي كانت موجهة
إليها بعد أن وصلنا تلغراف من الاسكندرية يأمرها بذلك . وعاد
البحر يمعن في الهدوء . ويقصر أمواجه العالية وتتداني وتتصل وتعود
كما كانت قبل يومين سريعة قصيرة متلاحقة وتعود هذه القطرات
الخفيفة تداعب الأحياء والأشياء وتمس الوجوه تشعرونا
بهذه البرودة الخفيفة المحتملة وتعود شهيتنا كأشد ما تكون
إلى الطعام والشراب وتدب الحياة والقوة في عروقنا من جديد
فنخرج من الغرف ونواجه الفضاء . ونستنشق النسيم وتلوح لنا
الأسماك غير بعيدة من الباخرة وذلك النوع الأسود المسمى
بالدرفيل يسير جماعات كل اثنين أو ثلاثة يرسم نصف دائرة في الفراغ
غير دار بما كان غير عابئ بما يكون .

ثم ذلك النوع الطيار في حجم العصفور الصغير ينطلق متدانيا
من سطح الماء وكان زعائفه المبسوطة أجنحة صغيرة بيضاء . . .
وفي خليج مسينا ينبسط البحر ، ويشف لونه ويصبح كالمرآة وتهدأ

الريح وتخف وتسكن حتى تكاد تتوقف عن الهبوب والحركة .

وترسو الباخرة على ميناء جنوا لبضع ساعات قليلة حيث تستأنف سيرها إلى مرسيليا ، وليس حظنا هنا بأحسن من حظنا هناك ، فلعلك تسألني أيها القارىء عن جنوا ، ماذا عملت فيها ، وعن سيلفانا ماذا فعلت الأيام بها ، والواقع أنى لا أدري الإجابة على شطر السؤال الثانى ، فسيلفانا لا أدري ماذا فعل الله بها لعلها فى تريستا ، ولعلها قد عادت إلى جنوا أو إلى قريتها هذه فى ضواحي جنوا . إذا كانت فى تريستا فأنا كثير الاشفاق حتى على الذين لا يستحقون هذا الاشفاق ، أو الذين لا يبادلوننى هذا الاشفاق ، وهذه أخبار الحرب تصلنا تباعاً من تريستا بعد أن تطورت المشاحنات بين إيطاليا ويوغوسلافيا من جهة ، وإيطاليا والإنجليز من جهة أخرى وتعدت ميادين الجدل والحوار إلى ميادين أشد خطراً وأعظم أثراً وهى ميادين العراق والاستفزاز ، وسفكت الدماء بأيدي الإنجليز الذين لا يخلو وجودهم فى بلد ما من مصيبة عاجلة أو آجلة ، ولا يسلم قوم ابتلوا بهم من مكر مبيت .

كنا نظن أننا قبل الآخرين سنعرف الكثير عن أخبار تريستا فلكل منا صديقة ما أو أكثر من صديقة فى بعض الأحيان ، وما أصدق أن تعرف الأخبار من أهلها ومشاهديها ، ولكن هدم

أخبار تريستا تنقطع عنا وعن باقي الزملاء في الباخرة . . . وما هم يرسلون خطاباً في إثر خطاب دون أن يحظى برد ، وقد كان انتظارنا في أى ميناء أجنبي أو مصرى لا يخلو من خطاب أو عدة خطابات تحمل الأخبار والتحيات من العرائس الجميلات في تريستا . انقطعت هذه الأخبار ولم تنقطع الأخبار التى تصلنا بالصحف عن الحداد الذى عم تريستا ، والدماء التى سفكت بأيدي القراصنة الإنجليز ، وتريستا كما نعرفها أرض إيطالية . تتكلم لغة الإيطاليين ، وتتعامل بنقودهم والحياة فيها إيطالية صرفة ، وقد قابلنا بعض اليوغوسلافيين النازحين من يوغوسلافيا ، والهاربين مما فيها من تعطل وفقر . قابلنا بعض هؤلاء الذين يعترفون بهذا الحق ولا يمارون فيه بل ويدافعون عنه .

وإن كانت يوغوسلافيا قد احتلت من أرض تريستا ما احتلت في أعقاب الحرب ، وفرضت لنفسها في وقت من أوقات الفوضى ما اعتبرته حدوداً لها ، فلا يجوز أن يسمى هذا حق إلا إذا جاز أن يسمى ما فعلته إسرائيل حق ، وما عملته الإنجليز في أرض القنال حق أيضاً ، ومن مصلحة الإنجليز أن تضرب اليوغوسلافيين بالإيطاليين كما كانت تفعل في الهند ، وكما كانت تفعل في الأحزاب المصرية المنحلة لتبرر وجودها ونطيل من أمد احتلالها ونقمتها على الشعب الذى ينكب بها .

وسأعود لأقرر ما سمعته من سكان تريستا الأصليين في منطقة
الميناء والضواحي القريبة من حدود يوغوسلافيا فهم يقررون أنهم
إيطاليون وترضيههم هذه الكلمة أكثر مما ترضيههم كلمة تريستيون ..
ويتشوقون إلى أن يعودوا إلى أحضان إيطاليا ، أو الاستقلال مع
الارتباط بإيطاليا حتى تستطيع بلادهم أن تقف على قدميها ، وتنتج
ما يكفي أهلها من الضروريات . . فهي منطقة صناعية تعيش على
بناء السفن فهي في مقدمة الدول التي تبني السفن ، ولكنها لا تستطيع
أن تستقل استقلالاً اقتصادياً كاملاً لضيق رقعتها الزراعية
وانصراف أهلها عن الزراعة .

وسأعود إلى سيلفانا وقد يكون هذا آخر عود . لماذا لم ترها
في جنوا ، أو تسأل عنها في تريستا ؟ جوابي على ذلك أن الباخرة
لم تمكث غير ساعات ثمان في جنوا لا تكفي كلها للذهاب والإياب
فقط إلى قريتها هذه البعيدة في أحضان الريف . . . ولو كانت هذه
الساعات تكفي لترددت كثيراً في الذهاب ، فقد أرسلت لها سابقاً
خطاباً إلى عنوانها الذي كتبت له ولم يصلني الرد ، وقد تكون في
تريستا لم تغادرها بعد ، ومع ذلك فأنا أجهل عنوانها وتريستا جهلاً
تماماً فأنا أعرف أين تقع دارها لو ذهبت بنفسى ولكنى لا أستطيع
أن أسميها أو أتذكر لها اسماً .

وستكشف الأيام عن أخبارها ما كنت أجهل وعن حالها ما كنت أود أن أعرف وسيكفيني هذا فلن نستطيع بقدرتنا الانسانية الضعيفة المحدودة أن نمنع القضاء والقدر عن نخب أو نحميهم مما كتب عليهم .

لا نستطيع أن نجلب كنوز الأرض لنهديها إلى من نحب وكذلك لا نستطيع أن نختار لهم سعادة أو شقاء . فنحن أعجز من أن نختار ذلك لأنفسنا . وإنما نحن مسيرون بقوى خفية خارجة عن ارادتنا وتجري على أيدينا وعلى أيدي غيرنا ما نعتبره وجوداً ونختلف في تعبيره وتأويله ونسميه السعادة والشقاء . . . سأعرف حالها يوماً وسأفرح لها أو أرثي لها في يوم ما . وقد يكون هذا اليوم قريباً أو بعيداً ولكن سيأتي على كل حال . . . إنطلقت الباخرة محاذية الساحل الإيطالي في طريقها إلى مرسيليا وعن يمينها هذه الجبال الجرد . التي تظهر ساعة ثم تختفي خلف ستارة ضعيفة رقيقة من الهواء المحمل بالذرات المائية الرقيقة والذي لم يصل إلى درجة الضباب بعد . فتختفي الجبال . وتتوأتأ البارزة وأخايدها المموجة وقممها المشرعة في السماء كالحراب والأضواء التي تنبعث منها أو تنعكس عليها فتجىء صورة مشرقة مرقشة بالظلال . . تختفي الجبال وراءنا بكل هذه التفاصيل فكأنها كتلة من الهلام في لون

من لوني الماء والسماء. تحدد أعاليها خط باهت متعرج لا يظهر أو يكاد . وأمامنا الجبال التي لم تظهر بعد كهذه الصورة التي خلفناها وراءنا فكأنها تمثل لنا فترات الحياة التي تمر بنا ماضينا وحاضرا ومستقبلا. ننظر إلى مافات منها في عدم اكتراث في غالب الأحيان ثم ننظر إلى هذه الجبال الدافئة كما ننظر إلى حاضرا بعين الإعجاب وإلى هذه التي أمامنا ولم تظهر بعد في كثير من الاشفاق .

هذه مرسيليا قبل أن تظهر بثلاث ساعات . ترسل مستطيلا صغيراً باهتاً يعلو سطح الماء ليس في لون الماء الأزرق ون كان يقرب من لون السماء البيضاء . . كأن الناس أو هذه الملايين التي تسكن اليابسة ترقد في الجو لا تريم . أو تعلق في الفضاء لا تريد الصعود لتدلنا على دنو مدينة تعيش وتعلم الملايين من البشر كيف تعيش وسنصلها بعد ساعتين أو ثلاث لنعيش معهم ساعتين أو ثلاثا .

وأمامي الآن مرسيليا بمبناها وطرقاتها وحركة المرور المزدحمة فيها . . وتباطأت الباخرة في السير وألقت مرساها الحديدي الضخم وزحفت بطيئة متناقلة يجرها زورقان بخاريان من امام ومن خلف حتى ألصقاها بالأرض . وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى ألصقنا أرجلنا بالأرض كذلك .

ولعلك تنتظر مني أن أحدثك عن المقاهي التي لا تخلو منها بلد

من البلاد وخاصة هذه البلاد الفرنسية التي يشيع فيها هذا النوع
والذى نجد فيه نهضتهم المعاصرة ممثلة فى العلوم والفنون والصناعات
ونهمتهم القديمة الغابرة وقد غيرتها الآثار المعاصرة والغابرة عما
يجاورهم من البلاد . ولكنى لن أحدث عن ذلك . وقد أحدث عن
ذلك فيما بعد . إنما سأحدث عن المرأة ذلك المتحف الحى المتنقل
الذى خلقه الله ولم تخلقه يد إنسان بل أفاضت عليه بعد ذلك
بالتزويق والتنميق هذا المتحف الذى يروح ويغدو ويسعد به الناس
ويشقون . بل ويسعد الناس ويشقيهم . كما يسعد هو ويشقى ولكننا
نراه وهو سعيد دائماً بألفاظه منمقة رشيقة وإيماءة ساحرة فائقة
وقد يستأنس إذا خلا لنفسه . أما فى وسط الناس فهو يرسل البهاء
والسحر والاشراق كالفجر يرسل ألسنته الوردية الجميلة لتبدد
سحاب الحلكة والظلام . . هذا المتحف الحى الذى لا يخلو منه
بيت أو طريق أو ملهى أو نادى أو حفل . . هذه التى أستطيع أن
أفهم من زيارتها وسمتها ومن حديثها درجة هذا البلد أو ذاك من الرقى
وحظه من السعادة والاستمتاع بالحياة . ولم أر فى أى بلد من البلاد
السابقة إلا وكانت المرأة هى المقياس الصادق الذى لا يخطئ
لحضارة هذا البلد وثقافته ونوع الحياة فيه . ولم تكن لنا من
مرسيليا غير الساعات الأخيرة من الليل وساعات الليل فى مرسيليا
هى هذه السهرات الصاخبة فى ملهى أو مرقص أو مسرح من

مسارح التمثيل . . ولم يقدم لنا هذا الأخير قصة ما أو تاريخاً
وإنما قدم لنا الصبا عارياً كما ولدته أمه . . ولم يكن يثير فينا كما تثير فينا
النساء هذه الشهوة الغامضة الواضحة . وإنما هو الصبا الذى شب
عن الطوق أو كاد يثير فينا مشاعر متناقضة متضاربة تبرز ببعضها
البعض فيها الشهوة واللذة والالم . الشهوة واللذة لأنفسنا والالم
لهذا الصبا الناضر اليتيم الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . وكما كانت
حيرتنا لنحكم على ما نرى اهى شجاعة فتيات عاريات إذا كان العرى
شجاعة أم اهى براءة ذلك الصبا حديث عهد بالطفولة ، وإن استوت
الأجساد واكتملت . أم هى صفاقة الاحتراف وقذارة المهنة التى
يخدعوننا ويخدعون أنفسهم ، ويطلقون عليها اسم الفن وما هى من
الفن فى شىء . بل هى بشاعة الانسانية ، وفسوتها وظلمها وعذابها
لهؤلاء الضحايا اللأئى يقدم من العرى والكرامة على هذا المسرح أو
المذبح الذى لا تروى له غلة ، ولا يشبع جمهوره الصفيق ، ولا
يرضى إلا أن يفنى فى لذته كما يفنى الصوفى فى عبادته . . نعم هى
صفاقة ذلك الجمهور ، ونحن نعلم الذى يرضى ويعجب بدلا من أن
يسخط ويؤلم .

لم يكن حظنا فى مرسلينا بأكثر من حظنا فى سابقتها جنوا
فقد غادرنا الباخرة بعد ساعات وعادت تستأنف سعيها شطر اسبانيا
وإن كنا لا ندرى أى بلد نريد من هذه البلاد الاسبانية الجميلة .

فأما المربة وفالتسيا وبرشلونه . لا نعرف بأى بلد من هذه
الثلاث سنلتقى .

أليس فى حياتنا وحياة الكثير منا شيئاً من حياة هذه السفينة
فى هذه اللحظات نسير على غير وجه لا نعرف إلى أى غاية نسير ،
وعملنا على ظهرها لا ندرى أى بلد يراد لنا ، فأنا لا أدرى ولا
يدرى غيرى والقبطان أيضاً لا يدرى ونحن فى انتظار برقية من
الاسكندرية تصلنا أثناء السير لتحدد لنا غايتنا وترسم لنا الطريق ،
وهذا الضباب الذى تكاثف بالليل وأحاط بنا كالخيمة البيضاء
والذى ارتفعت له الباخرة فأطلقت صفارتها المذعورة مرة ومرات
لتنبه إلى وجودها وتدل على مكانها ، ثم يرتفع الضحى ويرتفع
الضباب ويصبح ركاباً متكاثفاً ثقيلاً غير فرجة ضيقة ترى من هنا
وهناك صوب المشرق كأنها نافذة من السماء العابسة الملبدة . تبرز
من هذه النافذة أشعة بيضاء . متفرقة كأنها أصابع عملاق . تخرج
بسطح الماء وتختلط بلونه الأزرق الباهت فتترك بقعاً مضيئة متوهجة
حمراء كالدم . متباعدة عند ما يتغلب السحاب على هذه الأشعة
الهزيلة المتراخية فيخنقها إلا من بضع ثغرات ، وتتدانى هذه البقع
وتتصل فى خط ذهبي يحدد هذا الفضاء الأزرق الواسع كأنها
صورة فى داخل إطار مذهب جميل ، وذلك عند ما يرتفع قرص

الشمس في الفضاء ، ويبدد هذه الستارة ويمزقها .. أرسلت الشمس
بعض الدفء ، وولى السحاب مدبراً وظهر عن يميننا الساحل البعيد
السعيد بعيداً بمعناً في البعد . لا تكاد العين تتنبه إليه كأنه قلامه ظفر
تبرز منه بروزاً ضئيلاً قما ضئيلة لآثار قد تكون أبراجاً أو فنارات

وعاد النورس يظهر من جديد ويدلنا على قرب الشاطئ . يرتفع
في الفضاء مندفعاً كالسهم متألقاً كالنجم . أو متدانياً من سطح الماء
على بعد بوصات وقد تراخت جناحاه وتهذلت . أو عائماً بعد ذلك
طافياً مع الموج ضاماً جناحيه الرشيقين مسلماً قياده لذلك النهر
الجاري يذهب معه حيث يشاء . كما تذهب بنا هذه الباخرة حيث
تشاء . وعاد الشاطئ يظهر واضحاً جلياً وكان ذلك الشاطئ مدينة
فالنسيا الاسبانية وسأتحدث الآن عما رأيت في الموسيو المتحف
الوحيد في هذه المدينة وقد خصص طابقين للوحات الأثرية القديمة
منها ما مضى عليها ثلاثة قرون وأحدثها ما مضى عليه نصف قرن .
ولن أنسى من هذه اللوحات قصة الطوفان أوقصة نوح وفيها يتخيله
الرسام بحاراً نحيلاً مهيباً وقد التف بثوب أشبه بالشرع وفي فلكه
يقبع من كل زوجين اثنان وقد ارتسم على ملامح ركابه الخوف
والقلق والانتظار ويده مجداف طويل يضرب به واقفاً الماء الذي
تبعثرت فيه أجساد المغرقين منهم من قضى ومنهم من يصارع الموج

والياس ليلحق بالناجين . ولم ينس الرسام أن يصور لنا ذلك الذى
آوى إلى جبل يعصمه من الماء وقد لفه الموج ليقبله . ونوح فى
طلعته الشاب ووجهه المهيّب وقد اتصل شعر رأسه الأسود المنثور
بشعرات تغطى وجهه ولا تبين غير عينين سوداوين يشع منهما
العزم والحزم والصلاية .

ومن هذه الروائع سلسلة طويلة من الصور تمثل المعارك
الحربية وقد التحمت الخيول وأشرعت الأسنة وانعقد الغبار
كالليل وتناثرت الأشلاء تحت سنابك الخيول . معركة كاملة يصور
فيها الرسام كل أهوال الحرب من شجاعة وخوف وإقدام واقتحام
ورعب يخلمع القلوب ثم يستأنف فى لوحة أخرى وقد انهزم أحد
الجيشين وولى مدبراً والجيش المنتصر يضرب فى أعقيتهم وقد تعثر من
قعثر وجرح من جرح . يستأنى الرسام فى تصوير المعركة فى عدة
صور ثم يختتمها وقد رفع أحد الفرسان رأس الزعيم المغلوب على
طرف رمح عال يبلغ بها السماء ثم يظهر المنتصرون وقد جلسوا على
أنقاض المعركة ليصيبوا شيئاً من طعام وراحة .

وفى إحدى هذه الطوابق رأيت اسبانية غانية تعبد نسخ إحدى
هذه اللوحات القديمة التى مضى عليها نصف قرن . وقد ضمت
لوحتها التى أوشكت على الانتهاء وجعلتها تنحرف مع اللوحة الأم
التي تمثل جنة وارفة الظلال غزيره النهر والشجر ووقفت هى بين

الجنّتين تجرى بأناملها الرشيقة على الخطوط النهائية ، وقفت مع هذه التحفة الحية أبادها حديثاً قصيراً وليت وقى كان يتسع لأنفق معها ساعة أو ساعات أو نهاري بأكمله ، ولكنى كنت أنهى الحديث وليس للباخرة غير بعض الساعة لتستأنف رحلتها إلى بلاد الإنجليز

سألتنى هذه الفاتنة . هل هوايتك الرسم ؟ فأجبت إن هوايتى الكتابة ، ولست أعرف لنفسى هوايه غيرها ، وسأكتب عمارات بدون شك . ومن اللوحات التى لا تنسى لوحتين من رسم رييرا ، وقد مضى على رسمهما أكثر من ثلاثة قرون لعجوز شيخ يقبع فى كهف أو شيئاً يكاد يكون مقبرة وتحت قدميه جمجمة ميت يجلس عارياً إلا من خرقة تستر عورته ، وتفاصيل الشعر الأبيض الأشيب فى رأسه ووجهه ، والعضلات النحيلة الضامرة ، وجسده اللامع المضى . كأنما تجرى فيه الحياة والدفء .

وخصّصت إحدى القاعات لمجموعة من اللوحات الحية النصف بارزة تمثل أهوال الحرب ، وبشاعة الموت مجسم بالحجوم بعد أن كانت فى لوحاتهم مجسمه بالألوان والرسوم ، ومن هذه التماثيل تمثال من المرمر لرجل صريع يحتضر وقد أثخنت جسده الحراب والطعنات فى غير موضع .

وخصّصت إحدى الطوابق للتماثيل الرخامية والجبسية بالحجم

الكامل ، وما برعوا فيه هو إظهار الجماعات في مواكب طويلة .

ومن هذه المواكب موكب الموت أو الوفاة ، وهى قصة نعش يحمله على الأعناق موكب كبير من الرجال والشبان يتقدمون موكباً آخر من النساء الثكالى والصبيان . يشاركون الموكب الحزن والوجوم ، والأطفال الرضع على صدور أمهاتهم لا يعقلون ولا يشاركون فى حزن أو وجوم . كل هذا بالحجم الطبيعى حتى يقرب عدد أفرادهم من الثلاثين ، والنعش قد كشف أعلاه ، وتهدل عنه غطاؤه وبرز منه رأس صاحبه . تجدد فى هذا الموكب البكاء والشكل والحزن العميق الدفين ، والهلع والجزع فى صورة تبرز للبوت ، وتفيض بالحياه وتجمع بينهما .

وموكب آخر للفلاحين الرعاة فى أرديتهم الفضفاضة الواسعة وملاحهم الصريحة الصلبة حول قطع من الأبقار . يقابله موكب من الفتيات القرويات يرعون قطعاً من الأغنام .

خرجتُ من هذا المتحف لأزور إحدى الكنائس الأثرية ، وقد رأيت من براعة النقوش ، ونخامة البناء ، وتعدد الرسوم واللوحات والتماثيل النصفية المفحورة على الخشب ، رأيت فى هذه الكنيسة من الفن ما يجعل الاسبانيين يعتبرون فى صف واحد مع الفنانين الايطاليين .

وفالنسيا مدينة صغيرة أقل من مدينة جنوا الايطالية امتداداً

واتساعاً وأقل منها ثروة وبذخاً ولكنها تقف معها أوتزيد في فتنها
وروعتها واستهوائها القلوب ، وتمتاز بعد ذلك بما للأسبانيات من
جمال نادر يهز الصخر رؤيته وبساطة سمحة حلوة محبة .

وكم كان أسنى شديداً في هذه الرحلة وقد مرت بنا على هذه
البلاد مروراً سريعاً كالسحاب قصيراً لا يروى غلة، وها هي الباخرة
تقلع مع الفجر وتستقبل مدينة المريه في مساء الليلة الثانية ، وفي
المريه التي أراها الآن للمرة الثانية ذهبت أرتقى الجبل ميمما شطر
هذه القلعة الحصينة ذات الطراز العربي التي لاحت لي مصعدة في
السماء ذات أسوار وأبراج وشراريف . يطلق عليها الأسبانيون
Alcazaba ، وكم كانت حسرتي شديدة وأنا أقف أمام الجدران
التي قاومت سبعة قرون أوتزيد وأتذكر مجد العرب ومجد الاسلام
وكيف هوت العروبة والاسلام كما يقول شوقي : هذه الأطلال
والأسوار ، ويحي لو كانت تستطيع أن تتحدث وتروى وتقص
علينا ما مر بها من حياة وسؤدد ومجد ، ولكنها صامته خرساء
تثير في قلوبنا بسكونها وسكوتها الحسرات .

ارتقيت الحصن من خلال إحدى فرجاته الشاهقة . كانت المريه
النائمة بيوتها البسيطة ودروبها الملتوية كتلك الصورة التي نراها في
مصر، تلوح أسطح المنازل نظيفة بيضاء لا تخلو من العشش الخشبية
التي نرى فيها الدواجن ، وتنطلق فيها صياح الديكة ، ويدور هذا

السور الضخم ويلتف حول حديقة ذات طبقات مدرجة عريضة
يعلو بعضها البعض ، ويتوسط كل مدرج منها نافذة صغيرة أو
حوض للزهور ، وترتفع هذه المدرجات متعددة الألوان والزهور
كأنها هرم مدرج مقلوب يحيط به سور عريض متعدد الأبراج
يتبع الأرض التي يحيط بها في الانخفاض والارتفاع ، وفي أسفل
الحديقة دهايز عميقة ضيقة كتلك الصورة التي تتخللها عن الحدائق
ومجالس الأنس والطرب في عصر العباسيين ، وكذلك الموسيقى
الاسبانية التي نهم ونطرب بها ، والتي لا أشك في أنها آخر ما أتيح
لنا أن نسمع كأني بهذه الموسيقى تأتي إلينا من خلف القرون
لتروى لنا كيف كانت ليالي بغداد .

وتقع هذه القلعة على ساحل البحر وتجب خلفها قلعة أخرى
في طرف المدينة الآخر على قمة تدانها في الارتفاع يفصل من
هاتين القلعتين أو هذين الجبلين واد عميق أرضه صخرية ملساء
يقطعها في منتصفها سور حجري ضخم يحمل فوقه طريقاً مهداً
عريضاً يصل بين القلعتين ، ينحدر من إحدى القلعتين ، ثم ينحني انحناءة
خفيفة ثم يصعد إلى الأخرى وعلى ذلك الطريق من الجانبين عدد
لا يحصى من الأبراج الحصينة ولا تخلو إحدى القلعتين من أثر
حديث أدخل عليها وظهر ذلك من لون الحجارة الأبيض الذي لم

تؤثر فيه السنين بعد وها هو تمثال للسيد المسيح أو برج يحمل
الأجراس .

وفي ذلك الوادى العميق وعلى أرضه الصخرية الملساء تقوم عدة
منازل متواضعة تفترك فى فناء واحد عريض فى طرفه حوض
كبير من الحجارة الصماء مقسم إلى أقسام عدة امتلا أكثر من ثلثيه
لا ينفذ الماء من أحدها إلى الأخرى ويختلف لون الماء فى كل قسم
هن الآخر ويحتاط به عدد كبير من النساء يغسلن ملابسهن كما تفعل
الريفيات على شاطئ النيل وفى جانب آخر منطقة عريضة مملوءة
بالصخر النظيف وكأنه غسل عدة مرات من قبل . وعلى هذا
الصخر تنتشر الأثواب لتجف تحت حرارة الشمس . وبهذا ختمت
هذه الجولة التى أرضيت فيها تفكيرى وعقلى وأردت أن أبدأ جولة
أخرى أرضى بها عاطفتى وقلبى ، وكنت أقصد بهذه الجولة الأخيرة
دار السيدة ماسمينا . وكيف لا وقد كانت تلج على أن أزورها
كلما أقبلت الباخرة إلى ميناء المريه . وأذكر هذه الأسبانية الشقراء
التي لم تكن جميلة . ولم تكن دميعة كذلك فهى صورة شائعة لنساء
كثيرات كانت بحاجة إلى صديق كما كنت فى أشد الحاجة إلى صديقة .
أريد النسيان ، وقد تكون هى كذلك فمن يدرى . وقد سعدت
بحوارها ثلاثة أيام فى رحلتى الأولى إلى المريه جعلتنى أنسى أثناءها

ما كنت أريد أن أنسى، كانت السيدة ماسمينا تعيش منفردة كما كنت أعيش منفرداً وتعمل بالتطريز والتفصيل وتبحث بعد ذلك عن التسلية أو العطف والحنان من أى صديق وقد أعطيتها هذه التسلية وهذا العطف أو الحنان الذى تريده . وأعطتني هى النسيان . وأعطتني ما هو أكثر من ذلك . أعطتني درساً من دروس الحياة من غير أن تشعر . وكان ذلك الدرس أن لا أهرع خلف امرأة أو فتاة . وخير لى أن تسعد بى امرأة أو فتاة من أن أسعد أنا فى ظل هذه أو تلك . . . خير لى أن أكون مصدراً لسعادة الآخرين على أن يكونوا مصدراً لسعادتى ما دامت الطبيعة لا تسمح بأن يكون كل منا مصدر سعادة للآخرين ، وأن أبذل بعض الجهد لى أروض قلبى على حب من يحبى وأوطن نفسى على أن أقوم بهذا الدور خير من أن يقوم به غيرى لى . والسيدة ماسمينا فى العقد الثالث تقريباً من العمر نحيلة شقراء لا ترى إلا وهى فرحة مرحة طروبة تأخذ فى الرقص كأنما أخذت على نفسها عهداً بأن تنسينى نفسى وتنسينى مكانى وتنسينى كل شىء . وكم سرتنى رقصها ذلك الاسبانى وهى تطير خفيفة كالفراشة تكاد بسرعتها أن لا تلمس الأرض تكشف عن ثنايا بيضاء ناصعة فيبدو فيها أكثر اتساعاً باسطة عينيها على كأنها تترقب تأثيرها فى ، لانتى

عينها عن التحديق ، وشفتاها عن الابتسام . وتدور قدماها بها كما
تدور النحلة حتى أعجز عن متابعتها ولا تعجز عن رقصها أو طيرانها
حتى أمد يدي وأجلسها بجوارى قسراً فتكف عن الرقص . وتأخذ
في الثرثرة بعد ذلك لا تترك فرصة لي للرد عليها . وكم أفادتني ثرثرتها
هذه لكي أتقن هذه اللغة التي أخذت في دراستها بعد الاتقان .

كنت أمني نفسي بيومين سعيدين في المرية بصحبة هذه السعيدة ،
وفي منزلها الذي أعرفه . رأيت صديقتها التي أعرفها كذلك . وكم
كان ارتياحي شديداً عند ما رأيت على وجهها أثر التجاعيد وتحت
أهدابها ظلال كثيفة سوداء تضيف إلى سنها عشرات السنين . هذه
السيدة البيضاء البشرة السوداء الشعر والتي كانت تجرى في ملاحها
طفولة عذبة . كم كان ألى شديداً عند ما رأيتها تسرع إلى الهرم
أو يسرع الهرم إليها . وزاد ألى بعد ذلك . عند ما علمت أن ماسمينا
غادرت المرية واستوطنت فالنسيا . وهكذا حرمت هذه المرة من
ماسمينا التي كانت تسقيني من الحب فنوناً وألواناً من ذلك الدلال
الذي أكرهه وأضيق به ولا أسأله شيئاً وإنما تعطيني من غير
سؤال . كأنها تريد أن تغمرني بالسعادة غمراً . ويغمرني ما تقدم
لي حتى أنسى نفسي وتنقضي الساعات وكأن لم تنقض دقائق ذلك
الحب الذي كنت أظهر بعضاً منه فتظهر أضعاف ما أظهر ، أقدم لها

العطف والحنان فيغمر هاذلك العطف والحنان فتحنى على يدى تقبلها
وعلى صدرى تتمسح به . لا تأخذ موقف المترقب المنتظر بل
موقف الشريك الذى يأخذ ويعطى ، ويعطى ولا يأخذ وكل ذلك
فى غير إفراط ولا تكالب فكأنها تؤدى حقاً واجب الأداء .

ولكننى وقد حرمت فى هذه المرة من ساعة بجوار السيدة
ماسميننا ، وعسى أن يكون حظى فى الرحلة القادمة أسعد منه فى
هذه المرة .

اتفقنا يوماً واحداً فى مدينة المريه وشاهدنا من فقر أهلها
ما يعيد إلى الأذهان الصورة التى رأيناها فى الهند ، وتكون اسبانيا
بذلك هى الدولة التى أوشكت أن تنسى أنها دولة أوروبية - قبحاً
للفقر ما أثقل وطأته على الكبار البالغين الذين يستطيعون مرغمين
أن يرضوا بالمر ويستسلموا لقسوته واستبداده ، وإذا كان الفقر
ثقيلاً على الكبار فما أشد ثقله على الأحداث ونفوسهم مفتحة للحياة
والخير والجمال ، ولن أنسى طفلة صغيرة لا تزيد عن العاشرة كانت
تقف على رصيف الباخرة وقد كاد الليل أن ينتصف ومعها طفلتان
فى مثل سنها - طفلة فقيرة حتماً من أبوين فقيرين ولكنها بغير شك
من أبوين جميلين فقد كانت رائعة الجمال فى مثل سن هذه الصبية
كثيرات فى اسبانيا اللواتى يفتك بهن الفقر فتكا ذريعاً .

كنت أفكر في هذا وأنا أنظر لهذه الصبية الجميلة ، وقد اعتمدت
بمرفق على سور الباخرة ، ووقفت تستجدي في غير احترام ،
وتسأل وكأنها تطلب شيئاً من صديق ، ثم تصمت لحظات وتعود
إلى الانطلاق والمرح مع زميلتها ، كان هذا المنظر الذى يصور
الفقر والجمال آخر ما شهدت فى أرض اسبانيا وانطلقت الصبية إلى
منزلها ولم نبخل عليها بشئ . أهدينا إليها قطع الصابون التى طلبتها ،
وما بقى فى أيدينا من النقد الاسباني ، وسهذى الصابون إلى أمها
وستنفق ما معها من نقود ، ولن يغنى عنها ذلك من الفقر شيئاً .
قبحاً للفقر ما أثقل وطأته على الكبار البالغين وما أشد ثقله على
الأحداث ونفوسهم متفتحة للحياة والخير والجمال ولكنه الفقر
يضنى عليهم النحول والذبول كما يخلع على قلوبهم الانكسار والذلة
. وإذا كان هذا شعور الغريب نحو صبية فقيرة جميلة فكيف يكون
شعور الوالدين ومتى يكون لى طفلة حلوه كهذه أتمتع بهذه العاطفة
التي يحملها الأب لابنته وبالعاطفة الأخرى التي تحملها البنت لآبيها
. ما أروع هاتين العاطفتين وما أنبلهما ، وما أسمى أن يعيش المرء
محروماً منهما طول الحياة . .

انطلقت الباخرة مع الفجر فى طريقها إلى ليفربول وانطلق
الموج خلفها يركب بعضه بعضاً ويطنى بعضه على بعض كالرعيل من
الناس يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ، والرياح تهب من خلفنا

كانها تدفعنا إلى الأمام تحثنا على الاسراع ، وتعبث في الماء فتتناثر فيه البقع البيضاء كأنها النور المجنحة متدفعة منطلقة تبغى اللحاق بنا وقد أسرع في طيرانها ، واختارت الماء بدلاً من السماء وظهر عدد غير قليل من طيور البحر يتقاسم لونه البياض والسواد ، وقد اختار طيرانه خلف الباخرة مترقباً ما تصرعه مروحتها من صغار السمك ، وما تسوقه إليه من رزق في غير عناء ينقض عليها بعين بصير لا تخطئ فيصيدها وهي في ذهولها أو يصرعها ، ويتجنب بماله من فراسة . ويتعد بماله من تجربة عن هذه الدرافيل الكبيرة والأسماك الضخمة التي تسابق السفينة وتسبقها عنيفة متحدية وذلك النهر الصغير المضطرب الذي تتركه آثار السفينة كما تترك إبل القوافل آثارها في الرمال .

والذي يبدو اليوم قصيراً معناً في القصر لا يزيد عن عدة أقدام يطويه الموج بعد ذلك ويترك منه بقعاً صغيرة خضراء لا تلبث أن تطوى وتتلاشى مع الأمواج المنطلقة كما تطوى حياتنا وتتلاشى ، أليست أعمارنا على وجه الزمن كهذه البقع الصغيرة الخضراء في مياه البحر الواسع العريض . أليست حياتنا كهذه الدقائق التي تظهر فيها ثم تتلاشى كما يتلاشى ما تتركه السفينة من أثر .

انقضت أيام خمسة على مغادرتنا اسبانيا وشاهدنا ما أراد

البحر لنا أن نشاهد من هدوء البحر واضطرابه ، ومن وداعة
الأمواج وطغيانها ، وعادت ليفربول وهى الغرض الحقيقى من
الرحلة والهدف الذى تحملنا له كل هذه المتاعب ، فكانت الباخرة
تمر كما تمر الأطياف على كل من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا لتأخذ إلى
ليفربول ما أراد أخذه لها من بضائع وفواكه .

ولو أخذ رأينا فى ذلك لما اخترناها غرضاً أو هدفاً نتحمل من
أجله المتاعب فقد رأينا ليفربول قبل ذلك وضقنا بها وبأهلها . .
وزهدنا فى عشرتهم ولون حياتهم التى لا يملكون غيرها . حياة
باردة هامدة هى أقرب ما تكون إلى السكوت والموت . غيرنا
مضيق جبل طارق وتعرضنا لذلك الامتحان الضيق القاسى الذى
يتمحن به البحر أعصابنا وتفكيرنا وثقتنا بأنفسنا ونكون بذلك قد
تعرضنا لهذا الامتحان مرتين فى رحلة الذهاب الأولى فى حوض
البحر الأبيض والثانية بالقرب من شواطئ البرتغال .

وفى خليج بسكاي وترقد فى هذا الخليج باخرة مصرية غارقة
منذ عشرات السنين كانت تسمى (نجمة المكس) وترقد فيه كذلك
مروحة سفينتنا التى فقدت فيه من قبل . ولم نكد نعبّر هذا الخليج
وتكتب لنا السلامة فى الخروج منه حتى سمعنا عن غرق باخرة
سورية كما سمعنا على أنه لم ينبج من بحارتها أحد .
وما استقرت الباخرة على شاطئ نهر ميرزى فى ليفربول . حتى

كنت أستعد للقيام بجولة في الريف الانجليزى وأنا أعرف أن
إقامتنا في ليفربول ستمتد الى شهر كامل . وليست هنا سيلفانا
لنمنعنى عن القيام بساحة قصيرة ممكنه .

الريف الانجليزى

نيو بريتون New Prighton

وفي مدينة نيو بريتون شاهدت ما سبق أن شاهدته في مرسيليا
وكان ذلك مسرحاً من مسارح التمثيل يعرض على واجهة صورة
امرأة عارية في عدة مواضع مختلفة لا يستر جسدها شيء وإن كان
وجهها جميلاً لا يتفق مع هذا العرى .

وعلى خشبة المسرح كانت عارية كما ولدتها أمها غير وشاح
ينزلق على كتفها ويمر بين ثدييها . كانت تقف جامدة ساكنة وحولها
فتيات صغيرات يرقصن في أزياء مختلفة وهى في سكونها وجمودها
كالتمثال لعلها تستر بذلك السكون والجمود العرى الذى لم يستطع
الوشاح أن يستره .

ثم يسدل الستار ويرفع من جديد لتظهر هذه الفاتنة في وضع
امرأة يابانية تجلس عارية على أرض الحمام كما تجلس للصلاة .
ثم إسبانية أو هولندية أو غير ذلك ، وهكذا يسدل الستار ويرفع

تمثل لنا بعريها ووشاحها . وذلك اللسان من الضوء الذى يتجمع ويتركز على جسدها فى ألوان عدة . تمثل لنا بكل ذلك صور نساء العالم المختلفة تظهر فى احدها ملقاة كما يلقي الشيء أو جالسة على قاعدة تمثال كإحدى فتيات الليل فى باريس . يتركز الضوء الذى كان يغمر أرض المسرح وفراغه ويتجمع على جسدها حتى يبدو سابحاً فى الظلام ، الظلام الذى يجعل المسرح عميقاً لحد لعمقه ويباعد بين أركانه وأطرافه الذى كان يربط بينها الضوء ويدنى بعضها ببعض . فيبدو ذلك الجسد معلقاً فى الفراغ المظلم العميق .

صورة لا ينقصها إلا الشيطان ولعله كان مشغولاً كعادته فى أذهان المتفرجين ينتظر الفرصة السانحة لاستفزازهم واثارتهم ومن هذه الفرص السانحة عندما يسدل الستار وتعمل إحدى الأيدي المجهولة لتضع ذلك الوشاح على جسد هذه الفاتنة فى مكانه الملائم من الشديدين المشرعين فى السماء منزلقاً فى غير عناية على كتفها الأيمن معلقاً بين نخذيها ليستر ما يمكن أن يستر فلا ينحرف يميناً أو شمالاً بل يبدو فى وضعه الرأسى معلقاً فى الفراغ . ثم يرفع الستار ويظهر الوشاح وقد وضع بشيء من العجلة أو من العمد من يدري . يبدو فلك الوشاح وقد انحرف وكان يجب ألا ينحرف وكشف وكان يجب ألا يكشف . وهنا تبدأ هذه الفرص السانحة للشيطان لعبه فى العقول ويؤثر فى الأعصاب والأذهان وكأنما قد اجتمعت أبطال

القصة الثلاث أبطال كل ملحمة ومعركة للشيطان والمرأة والظلام .
وكان ميدانها الغرائز الدقيقة القوية وخصمها العقول الانسانية
الضعيفة والأعصاب المرهقة المكدودة .

ترى من الذى يضع الوشاح فى عجلة أو ابطاء فى عمد أو غير عمد
رجل أو امرأة ترى ما الذى يحدث خلف الستار .

ثم يأتى دور ممثلة أخرى تمثل فى غير قصة متصلة أطوار المرأة
والفتاة فطوراً هى الصبية الساذجة البكر ، وطوراً هى المرأة المدللة
الجميلة وقد أخذ دلالها يستبد بها حتى وصل إلى درجة البكاء
والشهيق . وما أبرعها حواء عند ما تمزج الغضب والدلال والبكاء
والشهيق وطوراً هى الكهلة العجوز المتصايبة تحب الناس وتفرط
فى هذا الحب ولا يحبها أحد .

وكان كل ذلك التمثيل البسيط السليم غير كاف ليمعنى من التفكير
فى الممثلة الأولى العارية وقد عرفت بعد خروجى أنها انجليزية فانتة
واسمها لورا وقد عجزت عن أن أحصل على صورتها العارية بأى
ثمن كان .

سوثبورت South Port

ما أشد اختلاف الصور عندما تتمثل ليفربول بدخان مصانعها
وسواد مبانيها وذلك الطريق الطويل الممتد على طول الميناء المزدحم

بالسفن من جنسيات مختلفة يفصلها عن الطريق سور عريض ممتد .
وفي داخل هذا السور نرى البحارة من جميع الجنسيات ونسمع
أحاديث مختلفة اللغات واللهجات فكانها مدينة دولية تجمع داخل
أسوارها دول العالم المختلفة . وخارج هذه الأسوار طريق طويل
نصف ممد تقطعه العربات الخشبية التي لا ينقطع ضجيجها وعجيجها
ذاهبة جائية تجرها بغال في مثل ضخامة الجمال ساعية بما تحمل من
بضائع . ويغطي كل ذلك الضباب الذي يمتزج لونه الشفاف بلون
مبانيها السود فتأتي صورة من الصور المزججة في عين النائم .

وفي قلب المدينة يشتد الزحام في الطريق ويصل إلى أقصاه في
ساعات النهار حتى يصبح السير في الطريق العام مجهداً ثقيلاً حتى إذا
أقبل المساء ترى المدينة في سبات أقرب إلى الموت .

ما أشد اختلاف الصور عند ما تتمثل ليفربول وتتمثل هذه
القرى الانجليزية التي تحيط بها . ففي سوثبورت مدينة أقرب
ما تكون إلى المدن الإيطالية أو الأمريكية التي تطيب فيها الحياة .
ومن لم ير هذه القرى الانجليزية البعيدة لا يستطيع أن يحكم حكماً
سليماً على بلاد الانجليز فللباني هناك طابع أقرب ما يكون إلى الطابع
الإيطالي . رصيف طويل ممتد تقوم في نهايته أعمدة من الحديد
المنزخرف يرسم كل عمودين اتصل أعلاهما قوساً من الأقواس

من الأقواس الأنيقة البديعة وتحمل هذه الأقواس مع أطراف
المباني سقفاً مائلاً من زجاج لتتحدّر عليه مياه الأمطار .

وعلى جانبي الطريق شجيرات متراصة كأنها وضعت بحساب
دقيق عارية أطرافها مجردة من الأوراق تنبعث منها الأضواء في
مختلف الألوان حيث تحمل كل شجرة عشرات الثريات الملونة فتبدو
على هذه الأشجار التي لا عداد لها الموزعة على جميع طرقات المدينة
كأذن النجوم قد هبطت من السماء واختارت أن تشارك الناس في
أفراحهم .

وقد كنت أظن أن هذه الثريات قد وضعت للاحتفال بعيد
الميلاد ولكني علمت فيما بعد أن هذه هي طريقة الإضاءة في المدينة
في أيام الميلاد وغير الميلاد .

طريقة فريدة تميز المدينة حتى اشتهرت بهذه الآلاف المؤلفة
من النجوم الملونة التي تزحم طرقات المدينة فتخلع عليها جمالا وسحراً
وبهجة وروعة ، وتتحول بفضل هذه الآلاف من الأشجار إلى جنة
يحسد عليها الانجليز .

وذلك غير جنتين أخريين إحداهما في وسط المدينة مستطيلة
الشكل تأخذ طول الطريق الرئيس وتطل عليها جميع المباني القائمة
على هذا الطريق ، تعزف في قلبها فرقة موسيقية كاملة فتمتزج

الأضواء والأنغام ويتكون من مزاجهما رواء وسحر يقربها من
الأحلام القصيرة الجميلة حتى نقضى بها الساعات وكأننا لم نقض بها
شيئاً .

أما الحديقة الأخرى فهي تطل على ساحل البحر ويهرع إليها
الصيادون فتباناً وفتيات عندما يرتفع المد الذى يظهر واضحاً محسوساً
على هذه الشواطئ . وفيها ينفقون الساعات فى صيد السمك .

شستر CHESTER

مدينة الكنائس التى تصل إلى العشرات وهى بقعة صغيرة
لا تزيد حاجتها عن كنيسة واحدة . ذهبت إليها فى يوم من أيام
الآحاد وكان القسيس فى الطريق العام وقد جعل ظهره إلى كنيسة
ووجهه إلى أخرى تقابلها وأخذ يرفع عقيرته بالصياح ويخرج صوته
بكل قوته وجهده لعله أن يبلغ الأذان .

ويقف البعض فتيان وفتيات يريدون الاستماع وينصرف الآخرون
لينفقوا ما تعود أن ينفق من وقته فى الحانات .

والتلوار يحتوى على طابقين بدلاً من طابق واحد يعلو بعضهما
البعض ويصل بينهما درج أنيق بين كل عدة خطوات ، ويزخر كل

طابق بما يعرض من ألوان البضائع والتحف والملابس خلف
الواجهات الزجاجية المضيئة ، ويزدحم بالجميلات والأنىقات يفقن
كثيراً جميلات ليفربول ، فهن فى هذه المدن الصغيرة يجمعن بين
نضارة الريف وحضارة المدينة ، يجرى على وجوههن هذا الغشاء
الرقيق الوردى بدلا من ذلك اللون الباهت الكاوى الذى تحمله فتاة
المدينة بما يسببه لها السهر والتدخين والإفراط فى الشراب .

والمدينة بمبانيها ذات طابع إنجليزى قديم أقرب ما يكون إلى
الطابع الهولندى أو النرويجى ، ولعلها بفتياتها أقرب إلى فتيات
هولنده أو النرويج كذلك .

ولم يكن فى هذه المدينة وفى هذا اليوم يوم الأحد غير السينما
أو الحانة التى لا تخلو منها مدينة ما ، وخرجت من الأولى لأدخل
إلى الأخرى وأنفق فيها ما بقى من ساعات ، وإذا كان لا بد أن
أشرب فليكن ذلك الشراب الخفيف الذى يسمونه الجعة ، والذى
لا هو بالخم ولا هو بالماء وإنما هو شىء بينهما . ليكن ذلك الشراب
الأسود المر الذى لا أسيغه لمرارته التى لا تشبهها غير مرارة حياىى
والنشوة الخفيفة التى تعقبها هذه كالنشوة التى تعقبها حياىى إذا كانت
لحياىى نشوة ما .

جرعت أول كوب ، وامتدت يدي إلى ثان وثالث ولم أدرى
هدد إلا كواب التي جرعتها بعد ذلك ، وبدأ جزء من نفسي يفلت
من الرقابة والتحفظ اللذين فرضتها نفسي على نفسي ، ورأيتني أميل
لأهمس في أذن غاده على أبواب الأربعين تحمل في وجهها أثراً من
جمال لأقول .. إلى أين تذهبين ؟ فأجابت إلى ويلز . وأنت ؟ قلت : إلى
ليفربول . وما اسمك ؟ قالت فرانسيس ، قلت اسم جميل يا فرانسيس
ومكان جميل هه ؟ ولكن ألا تحبين أن تريني في ليفربول في يوم ما
فأجابت وهل تحب أن تراني في ويلز في يوم ما ؟ وأضافت يحسن أن
نلتقي في شستر هنا في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم وأجبت
نعم وأنا أعرف انني لن أوفي بذلك .

وأرسلت نظرة أخرى إلى رواد الحانة أدرس هذه الانطباعات
التي انطلقت والسبب في إطلاقها الخرف بدت على القطرة . انطلقت
كما ينطلق الجواد الذي فك من عقاله لا يقيده شيء ولا يحده شيء .
ولعل حالي كان خيراً من حالهم . فلست أحس في رأسي غير صداع
شديد وإن كنت متمالكا واعياً . فخالي خير من حال هذه العجوز
وقد أطار الخمر صوابها . تترنح وهي جالسة كأنها في حلقة من
حلقات الذكر ، وعلى فمها ابتسامة كليله بلهاء تتحدث يمينا وشمالا ،
ولن يكون حديثها غير ثرثرة تافهة فارغة كعقلها التافه الفارغ .

وأخرى فى مثل طهارة العذراء مزهوة بجمالها تتأق فى لفتها
وحركتها كما يتأق الغزال ، وكان هذه السموم الصفراء والسوداء
لم تلعب برأسها بعد ففى تدرس القاعة ومن فىها ترقب هذه وتلك .
وترقب من يدخل القاعة ومن يخرج منها فكأنها تقارن جمالها
بأولئك وتأثيرها وفتتها فى هؤلاء .

كانت الساعة تشير إلى العاشرة ولم يبق غير دقائق على آخر قطار
يغادر المدينة إلى ليفربول ، وبين القطارين . الذهاب أحدهما إلى
ليفربول ، والذهاب ثانيهما إلى ويلز . كنت أصافح فرانسيس
وزميلتها وهى تعتقد أنى آت فى الأسبوع القادم وأنا أعتقد عدم الوفاء

بلاكبول BLACKPOOL

ليت شعرى متى أرى فى مصر هذه الحياة الراقية التى يتمتع بها
رجل الشارع هنا ، وفى مصر والشرق حياة راقية نظيفة ، ولكنها
كانت وما زالت وقفاً على بعض أفراد وعصبيات قليلة . ليت شعرى
متى أرى فى مصر حياة راقية نظيفة كالماء والهواء المشاع يتمتع
بها كافة الناس . متى أرى مصر قطعة من أوروبا ويخدعنا من يقول
أن مصر ستفقد ميزتها ، وستفقد كل ما يجب الأوروبيين فىها متى
صارت كذلك .

وفي هذا القول — ومعظم قائله أوروبيون — خداع كبير فإن مصر إذا صارت قطعة من أوروبا ، فليس معنى ذلك أنها ستفقد لغتها ودينها وتقاليدها ، فلسنا نريد لها ذلك ولكننا نريد لها بجانب هذه العمد الثلاثة حياة راقية نظيفة كالحياة التي تمتع بها أوروبا وانجلترا .

وليست أوروبا بلداً واحداً وإنما هي بلدان مختلفة يتمايز هذا البلد عن ذاك باختلاف هذه العمد الثلاث كلها أو بعضها فتخلع هنا لوناً من ألوان الحياة نتعشقه في بلد ما ولا نجد له نظيراً في سواه .
ففي هولنده حياة ليست كما في انجلترا فهما متدانيان في الروعة ، ولكنهما مختلفان على كل حال كما تختلف ملامح الأشقاء .

وقد يختلف مذهب هذه الدولة عن تلك إذا كانت كاثوليك أو بروتسنانت فيحدث هذا الاختلاف كما يحدث الاختلاف في اللغة شيئاً متغيراً مثيراً يشعرنا عند ما ننقل من هذه إلى تلك كأنما انتقلنا من حياة إلى حياة ومن جو إلى جو .

ففي إيطاليا حياة مريحة صاخبة ولغة جميلة سهلة ذات جرس موسيقى ، وشمس حارة دافئة ، وطعام وافر كثير ، وشراب يسيل أنهاراً وخاصة النبيذ .

وفي اسبانيا كما في إيطاليا جمال النساء واللغة والموسيقى ويزيد على ذلك جمال عشرتهم وروحهم الأليفة الودود ، وفي انجلترا برودهم

التقليدى ، وانطوائهم على أنفسهم ، وحبهم للسكون والصمت ،
ولا يدخل فى ذلك النساء فهن فى كل من هذه البلاد يملن إلى الثرثرة
ولا يطقن السكوت والصمت .

وللإنجليزية المرأة طريقة نادرة للإلقاء والحديث ، وطريقتها
تميزها عن غيرها فى السلوك والاتصال بالناس . طريقة تميل إلى
الاناء والبطء ، وسلوك يطبعه طابع الاعتدال والتحفظ ، فهى
ترسل الإيماء والتحية والكلمة العابرة بطريقة مصنوعة ، ولكنها
لرقتها وجمالها تفوق ما ترسله غيرها على سجيّتها بغير عناية .

وقد اتصلت بينى وبينهن أحاديث كثيرة أبدأها أنا فى غالب
الأحيان معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التى توحى بالحديث
عن الجو أو المدينة ثم يتدفق الحديث وتتدفق الابتسامات ، وأغلب
هذا يحدث فى صالونات القطار الذى ينطلق ساعة أو ساعتين كما حدث
وأنا فى طريقى إلى بلا كبول التى تبعد ساعتين كاملتين عن ليفربول .

ولعلى ضقت بهذا الكذب الذى كنت أكذبه على نفسى فى
بعض الأحيان ؛ فكل فتاة أو امرأة يتصل بينى وبينها الحديث ويجمعنى
بها مكان واحد أقول لها إن صدقا وإن كذبا إنك أجمل إنجليزية
رأيتها للآن وقد أقول إنك أجمل من رأيت حتى الآن . والعجيب أن
هؤلاء الحمقاوات يصدقن ذلك وينطلقن معى فى الثرثرة وقد تبوح

إحدا من في دقائق قليلة بالكثير من أخبارها وأسرارها مشفوعة
بما تحمله من صور ، صورة زوجها وابنها إذا كانت أم ، وصورة
أبيها أو أخيها إذا كانت فتاة .

وطبعي ، أن أنسى أسماء هذا الجيش الكبير وأشك في أني
أسطيع أن أعرف على واحدة من هؤلاء إن رأيتها بعد ذلك .

أما صاحبتى هذه فكنت أرى في وجهها ونظراتها الرغبة في
الحديث ولكنها تنتظر مني أن أبدأ أنا الحديث ، ولكني لم أنشط
لأى حديث ، فقد كانت جميلة وأشفقت على نفسي أن تترك في أثرأ ما
بعد مفارقتها ، فانا أريد أن أكون بعيداً عن ذلك الأثر الذي يجب
أن نفكر ونزوى قبل أن نعرض أنفسنا له فليس جميلاً كله ذلك
الأثر . . . أعرضت عنها ساعة أو بعض ساعة منصرفاً إلى القراءة
في جريدة الديلي اكسبريس التي لا تخلو من خبر سيء تنشره عن
مصر أو عن صلاح سالم التي تلقبه بوزير الرقص في مصر .

ثم انصرفت إلى الكتابة ، وكأنما أثار فضولها وأنا أكتب
من اليمن إلى الشمال فألقت ما في يدها من خيوط الصوف
الذي كانت تنسجه . وراحت ترقبني في صمت . وانقطع ذلك
الصمت عندما مددت يدي إلى باب الصالون أريد أن أغلقه
فقال كآنما كنت أغلقه لأجلها : أشكرك . وراحت

تساعدنى فى إغلاقه . وهكذا امتد بيننا الحديث ولم أكن بحاجة إلى أن أقول لها كاذباً إنك جميلة فقد كانت من أجمل الجميلات . وحدث ما كنت أخشاه فقد غادرت القطار قبل أن أغادره تاركة ذلك الأثر الذى لم أكن أريده ولسكنها كتبت لى بخطها الآثار التى تنصح هى لى بزيارتها فى بلا كبول كما كتبت اسمى مدينتين يقصدهما السائحون الأجانب فى شمال ويلز عندما طلبت منها ذلك . ثم غادرت القطار وجلست وحيداً فى الصالون وطففت وحيداً فى بلا كبول بعد ذلك . وكان أروع ما فى بلا كبول برجاً حديدياً ضخماً تبدأ قاعدته فوق بناء ضخم كبير وتتسع هذه القاعدة اتساعاً كبيراً من أسفل وتنتهى من أعلى بقمة مدبية شاهقة الارتفاع على نظام برج إيفل الفرنسى ، والمصاعد الكهربائية صاعدة هابطة بين القاعدة والقمة حاملة الزوار الذين يشهدون البحر والمدينة من ارتفاع يدانى ارتفاع السحاب . وفى الطابق الأرضى لذلك المبنى متحف جميل من متاحف الأسماك أعد ليكون كهفاً ضخماً كبيراً كأنما أخذ من جوف البحار أو من قم الجبال والأسماك فى موطنها خلف واجهات من الزجاج . أسماك الملايو وبورما مخططة كالنمر أو الحمار الوحشى ، وأسماك

البحر الكاريبي والامازون ذات سيقان طويلة كطائرة هليكوبتر
وأسماء شفافة من جيانا والبرازيل وكأن جلدها من الزجاج الشفاف
تستطيع العين أن تخترقه . والأسماء الضخمة كالتماثيل تسير على
زعانفها كما تسير الماشية على أرجلها تحمل على رأسها زعانف ملتوية
كما يحمل الوعل قروناً متشابكة متداخلة . ويضم هذا الطابق الأسماء
من جميع مياه العالم وقد وضعت الأسماء الدقيقة في أحواض صغيرة
دقيقة والأسماء الضخمة في قاعات كبيرة ضخمة .

وفي الطابق الثاني حديقة حيوان كاملة من القنفذ إلى التماسيح
والكراكي والنمور وعصافير الكناريا .

وفي الطابق الثالث جوقة موسيقية كاملة ومسرح أنيق وقاعة
نخمة مذهب ثم طابق للآنتيكات الدقيقة الصنع التي تمثل الحياة
متحركة متعددة الصور يقوم بها أشخاص من التماثيل الخشبية الدقيقة
الصنع .

وتقوم كل صورة في صندوق خشبي مستقل عندما نضغط على
مبجلته تتحرك هذه التماثيل وتقوم بأدوارها المرسومة لها تروح
وتجىء وتشرب وتأكل وتلعب وتعمل ، تمثل لنا الحياة في أطوارها
المختلفة والأساطير حقيقة ماثلة والمعارك والحروب التاريخية كما
أستطاع الانسان أن يتخيلها .

وفى داخل هذه الصناديق التى لا حصر لها الحياة الانجليزية فى البيت والحقل والكنيسة والمدرسة . ثم الأساطير ومنها أسطورة سندريلا ومن الحروب غزو نابليون لميناء جنوا .

وفى الطابق الأخير ينظم الصعود لذلك البرج الضخم ، وبين كل هذه الطوابق تنتشر (الكافيهات) والأماكن الهادئة وحدائق السطح تقوم بالخدمة فيها عاملات أنيقات . ومع إحداهن وكان النهار أوشك أن ينتصف تقدمت لتقول من أى مدينة أنت ؟ فأجبت . ماذا تخمين ؟ فأجابت بعد تفكير قليل لعلك من جمايكا .

قلت وهل يحضر عندكم أناس من جمايكا (وجمايكا مستعمرة انجليزية بالقرب من البحر الكاريبي وتتكلم اللغة الاسبانية) .

قالت — هل زرت حدائق الشتاء ؟ إنها مكان جميل يجب أن تراه . وهى هنا غير بعيدة من مكاننا الذى نحن فيه وتفتح أبوابها كل مساء . وأضافت وهى تبسم نصف ابتسامة عذبة : وسأكون هناك هذا المساء . .

وتذكرت ذلك الاسم الذى كتبته لى فتاة القطار فقلت : متى تفرغين من عملك ؟ أجابت : فى الرابعة . قلت : سأكون هناك فى السابعة وستكون لى زميلة تراقصنى فى حدائق الشتاء .

حدائق الشتاء . . لم أر أجمل من هذا الاسم ولا أشد انطباقاً

على ذلك المبنى الكبير المسقوف وبداخله حديقة يشيع في جنباتها
الدفء والجمال والأضواء ، متعددة الغرف والدهاليز والردهات ؛
فهنا مسرح وسينما ومركز كبير تحيط به طوابق متعددة للنظارة .
لا ينقصها شيء لتكون حديقة ولا ينقصها شيء لتكون مدينة داخل
المدينة .

نجد فيها الجلسات الهادئة الحاملة التي يعشقها ذوى الأمزجة
الهادئة الحاملة ، ونجد فيها الجلسات الصاخبة التي تفعم بالنشاط
وتزخر بالحركة والانطلاق . ولراغى المشى الطويل طرقا واسعة
مسقوفة أنيقة مفروشة بالرخام الأبيض وعلى جانبيها الأزهار
والورود .

في شمال ويلز North of Wales

مدينة لانجلن أو لانجوثن كما تنطقها لغة الوالش التي تختلف
عن الانجليزية تمام الاختلاف ، فهي أقرب ما تكون إلى لغة النرويج
وهولنده منها إلى اللغة الانجليزية وهذه اللغة لا يعرفها غير الشيوخ
والمسنين فهي بذلك في طريق الانقراض .

ولانجوثن التي تبعد ٣٨ ميلا عن ليفربول يقطعها القطار في
ثلاث ساعات ، وكانت هذه أطول مسافة قطعها في قلب الأراضى

الزراعية والغابات فى صباح يوم صاف ، فأما الأراضى الزراعية كأنها بساط باهت ممزق تناثر فيه البقع ، والبقع هنا هى هذه المساحات الشاسعة المجذبة غير أعشاب كليله صفراء .

أما الغابات فمنها ما هو فوق الروابى العالية المرتفعة ، ومنها ما هو فى واد سحيق ، وأروعها ما كان فى ذلك الوادى السحيق تتخلله قناة ضيقة لم تصل إلى أن تكون نهراً ، وعلى جانبي النهر وفى أطراف الوادى أشجار طوال متجاورة متماسكة . تتلاصق فروعها المنظمة كما يتلاصق العشب والقطار على جانبي ذلك المنحدر السحيق ، وعلى جانبي هذه الرؤوس الخضر الرجراجة يسير على حذر .

وكان على فى هذه الرحلة أن أستقل قطارات ثلاثة فى طريق الذهاب بدلاً من قطار واحد مباشرة وبما يحيرنى بالرغم من ذلك هو سهولة السفر وسهولة قطع الأميال الطوال وسهولة الحياة نفسها فى هذه البلاد المتمدنة ، فى كل صالون من صالونات القطار خريطة بسيطة للبلاد التى يمر بها القطار ، ويكفى أن ينظر المسافر إلى هذه الخريطة ثم ينظر مرة أخرى إلى اللافتة المضئنة على هذه المحطة أو تلك ليعرف كم بقى له من محطات ، ولا يغادر القطار محطة إلى أخرى إلا إذا تلقى السائق إشارة خضراء من مصباح أخضر بالليل أو قطعة من القماش الأخضر بالنهار ، ويكون الحارس قد توثق

من غلق جميع الأبواب ، وهذا الحارس يصاحب القطار في رحلته كلها ، ويقوم بعمله هذا في كل محطة من المحطات ولا نجد له أثر في صالونات القطار ، فيكفي أن يجتاز المسافر بوابة السفر ومعه تذكرته ولا يتعرض لأى تفتيش بعد ذلك .

وفي مدينة روك فيرى كان على أن أنتظر القطار الثانى الذى سيصل بعد ساعة كاملة أتيح لى خلالها أن أجوس خلال المدينة التى تشبه مدينة نيوبريتون متجولاً فى طرقاتها الانيقة النظيفة ومنفقاً مابقى من وقت فى كافيه يقدم لى أقداح الشاى الأبيض المر الذى يستسيغه الانجليز ، وأصبحنا نستسيغه كذلك بعد أن أكثرنا من شربه وكأنى بهم فى أزمت التموين الحادة خلال الحرب الماضية قد اضطروا إلى احتساء الشاى خالياً ، من غير سكر ، ثم اعودوا ذلك ولم يستطيعوا الرجوع عنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

ارتقيت القطار الثانى إلى مدينة روابن Rowabon ماراً على مدينة شستر التى رأيته من قبل ، وفى مدينة روابن شاهدت أول منجم من مناجم الفحم ، وقد كسى الغبار الأسود هذه المباني التى تختلف اختلافاً تاماً عن مثيلاتها فى انجلترا كسى الفحم هذه المدينة رداماً خاصاً ولوناً مميزاً فتغيرت الحياة والأشياء والمشاهد فكان الأرض كتلة كبيرة من الفحم لفظها المنجم من جوفه ، ثم تناثرت

عليها الأشجار والأغصان والفروع ، واختلط اللونان الأصفر والاسود وامتزجا عليها . والعربات الصغيرة المحملة بالفحم ذاهبة جائية خلف الأكوام التي ترتفع كالتلال وتلتف كالسور حول المنجم .

ولا تخلو هذه المنطقة الصناعية من الغابات التي ترتفع أشجارها الضخمة في السحاب شاهقة عارية من الأوراق والغصون . تسير خلالها العربات المحملة بالجدوع كما تسير الديدان بين الأشجار التي تتخيل أنها طويلة عالية في مصر .

عاد بي القطار الثالث إلى مدينة لانجوثن ورأيت أول مارأيت نهراً لا يزيد عمقه عن قدم أو بعض قدم في عدة نواح ، عريضاً كالبحيرة تتناثر في وسطه الصخور والجنادل ، والماء يتحدر فوقها في هدير وهرير ، وقد اختلطت ألوانه الثلاثة وامتزجت . فهو أبيض كاللبن ، وهو ينحدر من أعلى إلى أسفل وصاف لالون له في المناطق الساكنة الهادئة ، وأسود عندما يقل عمق الماء فوق الصخور المتناثرة ، والطيور البيض بين هذه الألوان الثلاثة في متسع كالمستنقع العريض يشطر المدينة شطرين ، وتصل بين الشاطئين قنطرة عريضة تحمل الناس ، ويتجمع الماء من فتحاتها الثلاث ليهدأ بعد ذلك ويستقر في مجرى هادئ سليم .

ويميز المدينة ذلك الصوت الموسيقى الذى يحدثه هدير الماء
ويسمع على بعد فى أى مكان من المدينة التى تحوطها الجبال العالية
وقد لمست السماء . فكأن هذه الرؤوس الجبلية قد ارتفعت حتى
مست السماء أو أن السماء قد هبطت حتى مست هذه الرؤوس وجثم
الضباب على أنفاس المدينة كالخيمة البيضاء . وتعاون الضباب
والجبال ليغنف البرد القارس بالمدينة فتقفز الطرقات من المارة
ويخيم على المدينة هدوء شاحب وبرود عميق .

اخترت أول كافيه صادقى وأخذت مقعدى بجوار النافذة أرقب
الطريق خلف زجاجها المغلق وجلس بجوار المدفأة عجوز صامت
حتى دخلت الكافيه عادة هيفاء فى بنطلون أنيق وأخذت مقعدها
بجوار الشيخ الذى سرعان ما نشط للحديث . ثم تنهت على قولها
لماذا لا تدنو من المدفأة ، فنهضت وأخذت مكانى كما أرادت وأخذت
معهها فى حديث وكان الشيخ لم يرتح له فغادرنا مودعا .

وخلت القاعة بعد أن ازدحمت بالرواد والطاعمين وأخذنا فى
حديث طويل مستعينين بأقداح الشاي المرة ولفائف التدخين
والشطائر الخفيفة فى الغرفة خير من الخارج ، ففيها الدفء والابتسام
العذب والمرح الجميل الذى ينطلق على طبيعته الصادرة من أعماق
القلوب .

ورأيتنى بعد ذلك مدعواً إلى منزلها لتقدمنى إلى بعض قريباتها

ولأول مرة دخلت منزلاً ريفياً تبدأ غرفة بغرفة الطعام تتوسطها
مائدة كبيرة ويتصدر الغرفة مقاعد وثيرة بجوار الموقد وجهاز
التلفزيون . وقدمتني إلى سيدة كبيرة مسنة ووقفت ربة البيت تقلب
الفحم في المدفأة وراحت صاحبتنا واسمها آن تجهز أقذاح الشاي .

وكان أن عدنا إلى السينما بعد أن دار حديث عادي لا غناء فيه .
وكانت بجوارى انجليزية فاتنة فرحة مرحة لا تشبه الانجليزيات
في العزلة وحب الانطواء . وعندما قلت لها ذلك ، عادت تروى لي
النكتة التالية :

تجمع عدد كبير من الجنود من جنسيات مختلفة في قطار تائه
وكان ذلك في وقت الحرب العظمى الماضية ، حتى رسا بهم على مدينة
ما وقيل لهم ليقيم كل منكم بأى عمل كان حتى تضع الحرب أوزارها .
وتقدم كل ليؤدي العمل الذى يتقنه ، فعمد الألمان إلى تشكيل
الطواير الحربية من شباب المدينة والإسبان إلى تشييد المباني
والطلبان إلى الفنون الجميلة والأمريكيين إلى تمويل كل هذه
المشروعات بالمال . بينما انطوى الانجليز على أنفسهم وعندما سئلوا
عن ذلك كانت إجابتهم We are not yet introduced أى أننا لم
نقدم بعد .

وكانت آن جميلة كأروع ما تكون الانجليزية جميلة عملاقة الجسم

تشبه فتيات النرويج رشيقة في مثل رشاقة راكبات الخيل وان كان عملها التمريض وليس ركوب الخيل . فهي أقرب إلى فتيات الشمال منها إلى الانجليزية في طباعها الباردة .

وقد عرضت علىّ أن نلتقى في مدينة شستر وهي تقع في منتصف الطريق بين سفيتي في ليفربول وقريتها البعيدة في شمال ويلز .

وتذكرت أن هذا العرض قد عرض علىّ قبل ذلك ، وتذكرت فرانسيس التي تسكن في مدينة من مدن هذه المنطقة لا أذكر اسمها .

عرضت علىّ هذه كما عرضت تلك أن نلتقى في شستر ولكني تجاهلت الاجابة بنعم أو لا ، وأجبت سألتقى بك في هذا المكان إذا عادت الباخرة مرة أخرى إلى ليفربول أو أراك في أى مدينة أخرى تنتقلين اليها بحكم عملك .

وهكذا اخترت أن تظل هذه الصداقة الجديدة سليمة . من يدرى ماذا ينخبىء لي الغد أو ماذا تنخبىء لي الرحلة . خير لهذه الصداقة أن تظل بعيدة عما يشينها ، وقد ألتقى بها في شستر مدينه لا يعرفني ولا يعرفها فيها أحد . وسيحدث لا بد شيء أو أشياء وسيؤثر هذا الشيء أو هذه الأشياء على هذه الصداقة فيذهب بها بعد أن يذهب بأثرها التنظيف الذي أريد له البقاء وطول العمر .

انتهى الفيلم الانجليزي وانتهت هذه اللحظات كما ينتهى كل شيء وكل شيء إلى انتهاء ثم كان الوداع وكانت آخر كلماتي سأذكرك يا آنـ

وست كيربى WEST KERBY

هذه هي المدينة السادسة التي أختتم بها هذه السياحة القصيرة والتي تشبه مدينة نيوبريتون ويفصل المدينتين عن ليفربول نهر ميرزى وتطل كلاهما على مياه بحر أرلندا ويصلهما بليفربول نفق تحت قاع النهر أو باخرة صغيرة تربط هذه الشواطئ بعضها ببعض. ومن نفس المحطة التي ذهبت منها إلى شستر وشمال ويلز انتظرت القطار الذاهب إلى وست كيربى ، ومن النظم البديعة لافته مضيفة تحمل أسماء بلاد عدة وأمام كل بلدة رقم ما فإذا كانت وست كيربى وأمامها رقم ٣ فعنى ذلك أن ثالث قطار يمر هنا هو الذى يتجه إلى هذه المدينة فإذا مر قطار ما يتغير هذا الرقم إلى ٢ ثم إلى ١ من تلقاء نفسه .

وفي مدينة وست كيربى أتيج لى أن أشهد رواية مسرحية ويشاء الحظ العاثر أن تكون هذه الرواية قد شهدتها من قبل فى مدينة سوثبورت والقصة تدور حول بؤس الفنان الزوج الذى تورطه زوجته فى أعمال المطبخ ويورطه صديقه فى بيع لوحاته بثمان بخس وهى نادرة الثمن ثم ينتهى به التوريط إلى أن يتنكر من

المشترى الأول فى زى امرأة فلا تعرفه زوجه عندما ينسى نفسه
فى هذا الزى ويصعد إلى مخدعها حيث تكون أسرع منه إلى
الاستنجاد بالبوليس .

قصة فكاهية تعرض لونا من ألوان الحياة ، وتعرض بجانب
ذلك كيف ينمو الحب بين الفتى والفتاة وتكتمل شخصية كلا منهما
بسبب ذلك الساحر العجيب ، الحب ، الذى يتم تحت سمع الناس
وأبصارهم لاليتستر عليه ، ولا يجاهد فى إخفائه ، ولا يستخذى منه
أحد . تعرض كل ذلك فى قصة بسيطة سليمة تؤدي على المسرح
بالبساطة نفسها التى تؤدي بها فى الحياة . ولم أر كالمسرح لسان صدق
فى رسم صورة المجتمع الذى يعاصره ، وعادات الناس وتقاليدهم
وطباعهم . فزى من لون الفكاهة الراقية العذبة مدى ما يتمتعون به
من عاطفة وذوق ، ومن هذه الصورة المرححة على خشبة المسرح
نستطيع أن نفهم شيئاً عن الحياة الحقيقية لهؤلاء الناس فى عقر دورهم .
وإذا علمنا أن لكل قرية أو مدينة صغيرة مسرح مثل هذا لا يقل
نفخامة عن دار الأوبرا المصرية ، وجمهوره المزدحم هنا فى بطن
الريف فى مثل نظافة ذلك الجمهور القليل من رواد مسرح القاهرة .
عدت بعد ذلك إلى ليفربول أعجب للفرق الشاسع بين حياة
الإنجليز فى المدن الصناعية الكبيرة التى نسمع فيها كل اللغات ،

ونرى فيها كل الوجوه من بيض وصفر وسود ، وفي طرقاتها كل ما يخطر بالبال من أزياء العالم القديم والحديث .

ففي مدينة مثل ليفربول حياً كاملاً يسكنه الصينيون ، وحياً كاملاً يسكنه الهنود وينتشر بين ذلك الزوج واليمنيين من عدن ، ويلبس كل من هؤلاء الزي الوطنى الذى يحرض عليه ولا يظهر إلا به ، وأغلب ذلك الزي ظهوراً السارى للمرأة الهندية والعامة المتفخخة التى تشبه عمام الدراویش لبعض الرجال الهنود .

وليس كل هؤلاء زائرون ثم راحلون بعد ذلك . بل كلهم أو معظمهم مقيمون دائمون يخلعون على المدينة طابعاً غريباً متناقضاً مشيراً لا أثر فيه للانسجام الذى يسود الجماعة الواحدة ، والفئة الواحدة فى القرى والمدن الصغيرة .

وبعد ذلك فالحياة فى ليفربول حياة عابثة ولعل أصدق وصف لتصويرها هو ما حدث مع ادنا Edna . وقد كانت تنتظر صديقاً كما كنت أنتظر صديقة ، وقد تأخر عنها صديقها كما تأخرت عنى صديقتى ، وليست الصداقة فى ليفربول ذات كيان ثابت بل هى مجنونة تنمو كأسرع ما يكون النمو وتزول كأسرع ما يكون الزوال غير تاركة أثراً ما .

كانت تقف قلقة ومعها زميلة لها كما كنت قلقاً ومعى زميل لى ،

وليس قلقي على هذه الصديقة التي لم تحضر ، وإنما قلقي ذلك أن
أحصل على أى صديقة قبل أن يتقدم الليل ، وكان أن رسم الشيطان
في ذهني الصورة واضحة لا ينقصها إلا أن تكون لي غرفة خاصة في
ليفربول أجهزها بما يلزمها من طعام وشراب ووقود لأنفق في هذا
المسكن المستقل ساعات الصباح الأولى من كل ليلة - والأيام التي
تنقطع فيها عن العمل ، وهذه الأمسيات الجميلة إذا اقتصرناها على
فتاة واحدة ، والقانون أو العرف الذي اصطلح الناس عليه هنا
لا يسمح إلا بفتاة واحدة ، ولكننا لم نكن نعثر على فتاة واحدة
بل بفتيات كثيرات أنفق ليلة مع هذه الفتاة أو تلك لا أدري
سأراها إذا كان الغد ، أم سأرى وجه آخر جديد ؟ .

وكانت إدنا هي ذلك الوجه الجديد ، وقد اعتذرت بادیء
الامر بأنها تنتظر صديق ، فأخرجت من جيبي بنساً وقلت هل
تقبلين هذا الرهان بيني وبين صديقك ، فوافقت على ذلك وعمدت
إلى الرهان أريد أن أخدع فيه ولكنني لم أفلح ، فقد جاء الرهان
يؤيد حق صاحبها فيها . ولكنها صحبتني رغماً عن ذلك ، وأخذت
صورتى مكانها بين صور أصدقائها ، ولا أقول عشاقها الكثيرين ،
ورأيت فيها صورة صديقها اليوناني الذي كانت تنتظره . على هذه
الصورة كانت الصداقة تنمو وبمثل هذه الصورة كانت الصداقة تزول ،
وعلى هذا النحو كنا نمضي ليالينا في ليفربول .

ولعل أعجب ما كانت تخبؤه هذه الرحلة أن تقف الباخرة على
ميناء جنوا قبل أن ترسو على الاسكندرية ونكون بذلك قد ختمنا
الرحلة بهذه المدينة كما بدأناها بها ، ولعلك تنتظر منى أن أحدث
بشيء عن سيلفانا وعن حبي لهذه التريستينية الجميلة الشقراء ،
ولكن لن أحدث بشيء عن هذا الحب لسبب واحد بسيط وهو
أن هذا الحب قد مات .

لا اتنى أخدع نفسى الحق أنى أردت له أن يموت ، وما زلت
أريد له ذلك ، ولكن هل سيموت بمجرد أن أريد أنا ذلك .

جواب ذلك عند الزمن ، ذلك البلسم العجيب والطبيب الساحر
الماهر الذى يرقأ الدموع ويمس الجراح برحمته ويفعل الأعاجيب
وأنا فى الانتظار .



الرحلة التاسعة

قرطاجنة

لقد أصبحت كالجمرة التي ألقيت في الماء. إلقاء - فهل تصبح
الجمرة جمرة بعد ذلك أم تتحول إلى شيء خامد هامد تختلف عن
الجمر الملهب تمام الاختلاف ، وإذا تركت الجمرة لتكون جمرة فهل
ستكون خالدة وهي تحرق نفسها بنفسها إذا لم تحرق الآخرين ،
توهج ثم تنطفئ ثم تصبح رماداً ، وهل سيكون ذلك الشيء الهامد
الخامد خالداً ، كلاهما إلى انتهاء. إلا أن هذه أحرقت وتوهجت
وتلاشت أما تلك فلم تحرق ولم توهج ، وإن كانت تلاشت أيضاً
وما لي أطيل الحديث عن الجمرة التي أطفأها الماء. إلا أنني أريد أن
أقول إنني هذه الجمرة نفسها ، وليس الماء هنا هو هذا البحر العريض
العميق الذي نسير فيه ، وإنما العكس فإن ذلك البحر يزيد هذه الجمرة
حرارة ولهباً واشتعالاً . أما ذلك الماء فهو الشاطئ - شاطئ. أي بلد
كان . ذلك الشاطئ. الذي يفجئني كما تفجأ الماء بالجمرات . وما بالك لو
كان ذلك الشاطئ. شاطئ. إسبانيا التي تعيش للذة واللهو والاستمتاع

بالحياة . وهذه قرطاجنة أو كرتاخينه كما ينطقها الاسبان قادمين إليها من فالنسيا . والحياة في هذه المدينة أو تلك حياة اسبانية متشابهة تعيش للذة تقدمها وتفتن في تقديمها ، وإذا بنا نشبع منها بأسرع مما نتصور بعد أن كنا نتصور جوعا . وما أسهل أن يشبع المرء من شيء مباح لا يلح في طلبه ولا يجهد نفسه في الحصول عليه . وكيف نلح ونجتهد في طلب شيء سهل المتناول يحاصرنا ويلح علينا ويدعونا بدلا من أن نحاصره ونلح عليه ندعوه .

لا غرابة في أن نزهد في ذلك الشيء . ونمل منه وننصرف عنه ولا غرابة في أن تطفأ الجمرات وتخمدمهما كانت ضراوتها وشدتها في الوهج والفتك .

لم تكن نفسى مهياة للعاطفة ، وما أكثر ما كانت نفسى مهياة للعاطفة من قبل ، وما أكثر ما كان يؤثر في ذلك القصص السخيف قصص الوفاء والحب العذرى الذى كان يبكى من قبل ولكنه اليوم لن يبلغ من نفسى الجامدة شيئا . إتنى أبحث عن نفسى الشاعرة فلا أجدها ، وإنما نفسى الماجنة هى التى تبحث عني وتأخذ على كل سبيل . ونفسى الماجنة مهياة اليوم للذة ، اللذة الحسية ، فليكن كما تريد . وهى لا تريد إلا أن أغرق إلى أذنى في هذا البحر الذى لا يفنى حتى إذا كان ذلك صرت كهذه الجمرة التى صورتها آنفا .

ماذا أريد أن أكون ؟ هل أكون كما كان جميل بن معمر ؟ أم
أكون كما كان عمر بن أبي ربيعة ؟ لست أريد أن أكون شاعراً كما
كانا وإنما أعنى أن أسير في الحياة كما سارا وأختار الطريق التي اختارها
هذا أو ذاك . لقد كنت كما كان جميل في يوم مضى وجر على ذلك
ما جر من قلق وعذاب وتعب . لقد كنت كما كان جميل ليس مرة
واحدة بل مرات ثلاث — أعنى ثلاث فتيات ، كنت في كل منهن
صادقاً غير متكلف الصدق محباً غير متكلف الحب والغرام . وكانت
كلا منهن إما أن لا تشعر بهذا الحب ولا تحس بما أحمل لها من عاطفة
وما يضطرع في صدرى من عذاب — وإما أن تحس ذلك ولكن
لا تبادلنى به وتقف دونى شامته أو كالشامته — وإما أن تحس ذلك
وتبادلنى به ولكن ليس بالمقدار الذى يرضينى وليس يرضينى القليل .
واليوم سأكون كما كان عمر بن أبي ربيعة ، سأختار لنفسى ذلك
الرأى فى المرأة الذى اختاره عمر — والنظرة التى كان ينظر إليها
بها — ولست مبالغاً إذا قلت إن هذه النظرة نفسها وذلك الرأى
نفسه تحبهما المرأة أصدق الحب لأنهما جزء من طبيعة الأنثى مهما
كان لونها . ولست مبالغاً إذا قلت إن نساء كثيرات يضقن بهؤلاء
العذريون الذين يخلعون عليهن صفات الملائكة . وليست كل امرأة
ملاكاً ، بل ليست المرأة ملاكاً . وإذا وجدت امرأة عميقة العاطفة
مثالية النزعة رقيقة الحس والشعور والتفكير فستكون بجانب ذلك

أتى لها ما للنساء من هذه النزعات الغامضة العميقة القوية الملحة التي تزهيها أن تؤثر في الرجل بفتنتها وجسدها ، كما تؤثر فيه بجانبها المعنوي . قد تكون شعلة ملتهبة من الحس والشعور والعاطفة ، وستكون بجانب ذلك شعلة ملتهبة من اللذة والرغبة والفتك .

هذه حالى اليوم ولعلها كانت حال ابن أبي ربيعة في يوم مضى إذا كان هذا قد فعل كل ما قال ، وإذا لم يكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون . هذه حالى اليوم وقد تنتهى بي إلى الزهد كما انتهت بها إليه - قد يكون ذلك ثم يكون زهداً متشائماً طويلاً لا حد لتشاؤمه ولا نهاية لطوله .. وكل ما استطعت عمله الآن أن أجنب نفسى الخمر أو أجنب الخمر نفسى ولعلى أثرا في ذلك أريد أن أحصل على اللذة وعلى أكبر مقدار من اللذة وأنا واع غير سكران . فكما أننى أحصل على مقدار ما كتب لى من شقاء وعذاب ومحنة وجهد وأنا فى أتم حالات الوعي واليقظة فلا أشعر باللذة كذلك وأنا فى أتم حالات الوعي واليقظة . فنحن لا نرى إلا فى جالين : إما أن تضرب الباخرة فى أعماق المحيط أو أن ترسو على شاطئ . ما ، وعلى ذلك الشاطئ حياة كلها إثم وفى البحر حياة أقل ما توصف به أنها كفارة عن ذلك الإثم .

فحياتنا فى البحر إثم واحد طويل متصل ، يبدأ عندما ترسى الباخرة مرساها الثقيل على الشاطئ السعيد ، ولا ينتهى إلا فى يوم

الرحيل ، حيث نجد في عبث الأمواج والأنواء كفارة عن ذلك الإثم . ونحن بين هذين الإثم والكفارة عن الإثم ننفق أيامنا في عذاب متصل وجحيم مقيم .

والعجيب أن هذه اللذة في الإثم وهذا الألم في الكفارة عن الإثم غير منفصلين انفصالا تاماً . فهما وإن كانا منفصلين في بعض الأحيان فانهما ليمتزجان امتزاجاً تاماً في كثير من الأحيان . فكثيراً ما أشعر بالألم وأنا مع اسبانية ، فتاة أعرف اسمها أو لا أعرفه .. كثيراً ما أشعر بالألم في هذه اللحظات التي كان ينتظر أن تخلو من الألم . كثيراً ما أشعر بالألم لذلك الجمال المباح أو الألم لهذه النفس الماجنة — نفسى طبعاً — التي تريد فلا أستطيع أن أقف بينها وبين ما تريد . تنطلق ولا أستطيع منعها من أن تنطلق .

هذه هي اللذة التي لا تخلو من الألم ، والألم الذي أشعر به واعياً — فليس بيني وبين الخمر سبب حتى الآن ولا أريد أن يمتد بيني وبينها سبب فيما يجد من أيام — وما زلت أكتفي بأقداح القهوة التركية أو الفرنسية مع أكواب الماء القراح تاركاً لصاحبتي أقداح النبيذ أو الزبيب مشفوعة بأقداح الصودا . وقد أتغزل يوماً ما في جمال هذه القهوة التركية أو الفرنسية كما تغزل أبو نواس في الخمر . ولعل هذه القهوة هي التي تزيد في انتباهي بدلاً من أن تزيد في ذهولي فأشعر بالألم في ساعة من ساعات الصفو كان ينتظر أن تخلو من الألم .

وعكس ذلك يحدث عند ما تفتقم منا الأعاصير والأنواء .
الأعاصير التي تعبت بنا وبسفينتنا ، وحصوات الثلج التي تحصبنا
وترتطم بالأبواب المغلقة كما يرتطم الرصاص المنهمر في معركة تسفك
فيها الدماء . في وسط هذه الأمواج كثيراً ما نشعر باللذة ، اللذة
ما نجتاز امتحاناً عسيراً كان لا بد أن يجتاز ، واللذة عند ما نقتل
الساعات بدلاً من أن تقتلنا الساعات في امتحان بطيء طويل
يضاعف العذاب من بطئه وطوله .

وسأرسم صورتي على قدر الإمكان في وقت من أوقات الكفارة
عن الأثم هل رأيت وجهاً ضامراً معروفاً . إختلطت شعرات رأسه
وذقنه وشاربيه ونمت كما يريد البحر لها أن تنمو . وتهدلت على
جسده الضامر بدلته السوداء التي يرتديها في وقت العمل يتكلم همساً
عند ما يحسن الارتفاع بالصوت . ويتكلم بالإشارة عند ما يحسن
إلهمس تعبت به الصفراء والسوداء عبثاً شديداً ، والأولى يعرفها
أصدقاء البحر . أما الثانية فيشترك في معرفتها الجميع . والصفراء هي
ذلك السائل الأصفر المر يشبه الصدا . والذي يجعل الطعام لا يثبت
في جوفنا لحظات - ويرحمنا من الصفراء والسوداء الصيام الطويل
المتصل عن الطعام . ولكن أين نحن من الصيام والباخرة يراد لها
أن تسير ولكي نعمل على أن تسير يجب أن نعرف نحن كيف نسير !
أين الصيام الذي يفتك بهذين العدوين الداخلين مع ما نقوم من

جهد مرهق ثقيل . وقد استطعت أن أكسر حدة الصفراء . بعد عامين
في وسط الأمواج كما كسرت حدة السوداء في البلاد الكثيرة التي
مررت بها ليس في ذلك شك . ولكن ليس هناك شك كذلك
في أنه ما زالت بعض آثارهما تطيف بي وتزور كلما حلا لها أن
تطيف وتزور .

والحق أننا في البر نكسر حدة السوداء حيث نملك ذلك
الشيء . أو يملكنا ذلك الشيء الذي يكسر حدتها . حتى إذا خيل
إلينا أن هذه الجذوة قد خمدت تعود في وسط الأمواج لتثبت لنا
أننا كنا واهمين .

ومثل ذلك عن الصفراء أو عكس ذلك عن الصفراء . فهي
تنمو في البر كما يحلو لها أن تنمو حتى إذا استقبلتنا الأنواء راحت
تعبث بنا نصرعها حيناً وتصرعنا في غالب الأحيان .

ولطف الله بنا أن لا نجتمع السوداء والصفراء ونحن في وسط
الاعاصير حتى لتصبح حياتنا بين هذين اللونين سوداء صفراء .

وقد أنسيت الحديث عن قرطاجنة وهي التي جعلتها عنواناً لهذا
الحديث . ولعل فيها كان يتغنى ابن زيدون . ويتعذب مع صاحبه
ولادة . ولكني لم تكن لي صاحبه هناك . وإنما لي صاحبات
كثيرات أحبهن كما ينبغي أن يكون الحب حتى إذا أقلت الباخرة

قطعت ما بيني وبينهم من أسباب ونسبتهم كما ينبغي أن يكون النسيان .
وقرطاجنة مدينة محصورة بين جبلين أو بين جبل واحد
متصل يقف دونها ويحيط بها من كل جانب حتى يحجبها عن الأنظار
فتختفي خلف الجبال لا يبين منها شيء ولا يظهر منها ما يدل على
وجود مدينة ما . ولعل هذا ما جعلها مدينة القرصان في العصور
الوسطى والذي جعلها تزرع البحار عدة قرون فنحن نمر عليها في
طريق العودة وفي ضوء النهار فلا نراها . أما بالليل فكانت تدل
عليها وتنبئ . بوجودها شعلة ملتهبة محترقة تصدر من معامل البترول
تنعكس من خلف الجبال فتصطبغ السماء كلها بلون الورد يخلع على
المدينة سحراً رائعاً جالماً . ولعلها الوحيدة في المدن الاسبانية
المنفردة بذلك الاستتار الطبيعي . ولعل هذا ما جعل البحرية
الاسبانية تتخذ منها ترسانه ومرفأ لأساطيلها كما كان يتخذها
القرصان مكاناً حصيناً لمغامراتهم الراحبة .

ومن أروع الآثار في هذه المدينة التي أثرت وتأثرت بالرومان
والعرب . وعادت بعد ذلك كما عادت غيرها من المدن الاسبانية ذات
طابع فريد لم يخلص لأن يكون رومانياً أو عربياً .

من أروع الآثار في هذه المدينة كنيسة كانت مسجداً قبل
عدة قرون . كنيسة تعرف باسم ملوك توليدو . ولعلها طليطلة كما
نعرفها فهي لا يميزها عن مساجد المسلمين غير ما نرى من مسوح

الرهبان واختلاط الرجال بالنساء ، وما أضيف على البناء العربي من تماثيل ورسوم .

وسأترك إسبانيا وقد استقبلنا خليج بسكاي في طريقنا إلى ميناء هامبورج الألماني والباخرة تتقدم ويكاد الموج أن يقفها في مكانها فكانت قوة السفينة تريد أن تدفعها إلى الأمام وقوة الموج تريد أن تردها إلى الخلف . وكأن هاتين القوتين قد تعادلتا فوقفت السفينة في مكانها بينما آلاتها دائرة تصارع الموج الذي تزيد قوته عن قوتها في بعض الأحيان فيردها رداً عنيفاً إلى الخلف . قطعنا ذلك الخليج في أربعة أيام وكان لا يقطع من قبل في غير يوم وبعض يوم وما كنا إلا لنبتعد عن غايتنا بدلا من أن نقرب منها وعدد الساعات التي أمامنا يزيد بدلا من أن ينقص ويثبت بغير زيادة ولا نقصان في الأحوال التي نحسد عليها . ونحن نخيل إلينا أننا نسير ما دامت الآلة تزأر وتهدر وهكذا يمر الزمن ونحن خارج مدار الزمن وتمر الساعات ونحن خارج نطاق الساعات حتى فقدنا ما فقدنا من أيام . وهكذا تكون الكفارة عن الآثام . فقد كنا نسير على ظهر الباخرة مهطعي رؤوسنا وقد انحنى أعلانا على أسفلنا حذر الموج العالي الذي لا ندري أهو الذي يجذبنا إليه أم نحن الذين نتجذب إليه فما هي إلا أن يغوص من السفينة أحدا الجانبين حتى نجد أرجلنا تسوقنا إلى الجانب المنحدر حيث الحاجز القليل الارتفاع فلا ينجيننا من ذلك

الطوفان المسلط ، والريح التي تصفر في الأذان حتى ليكاد يصيبنا الصمم . لا ينجينا من ذلك إلا أن ينحن أعلانا على أسفلنا حتى تنخفض رؤوسنا أثناء السير أو الجرى ولا تعلق عن ذلك الحاجز بأى حال . يمثل هذه الطريقة كنا نسير على ظهر الباخرة نخطف الطريق خطفاً بين الأمواج التي تريد أن تخطفنا من يمين وشمال . ومثل ذلك الحال عند ما نسير في جوف السفينة فكأنما ننحدر من علٍ حتى لنكاد ننكفئ . على وجوهنا عند ما يغوص مقدم السفينة في الماء ثم نجد أنفسنا نسير مصعدين كأنما نرقى سفح جبل أو تل عند ما يرتفع مقدمها في السماء ، وإذا علمت أن مقدم السفينة هذا يغوص في الماء ويرتفع في السماء بأسرع مما نأخذ أنفاسنا ، وإذا علمت أن هذه هي أخف أنواع الموج وأبسطها ، وأصعب منها أن يميل أحد جانبي السفينة حتى يكاد يحرف من الماء ثم يرتفع ليغوص جانبها الآخر مع أن ارتفاع الجانبين يزيد على عدة أمتار ، وأصعب من هذه وتلك موجة يسمونها المدفونة ، وهي منخفضة قليلة الارتفاع ولكنها تدور بسفينتنا كما تدور الرحي فكأنها فقدت محورها ، أو أصابها الدوار ومن ثم تكون إصابتنا أسرع ما تكون إلى الدوار وكيف إذا اجتمعت هذه الأنواع الثلاثة ، وكان ذلك ما حدث في خليج بسكاي ، فكانت الباخرة تميل على جانبها الأيمن كما يميل الأعرج . ولا تكاد تهتم بالارتفاع حتى يغوص مقدمها ويحرف ما شاء

أن يحرف من الماء ، وهى بين هذين تسير فى حركة رحويه فكأنما أصابها الدوار أو الثمل . كما أصاب رؤوسنا الدوار والثل . وتصفر الريح كأنها تريد منا أن نظير فى السماء بدلاً من أن تسير على الأرض إذا كانت هذه أرض ، وتهمر حصوات الثلج كما ينهمر الرصاص حتى يترك فى سطح الزجاج الصفيق الغير قابل للكسر آثاراً كوخز الإبر ، وهذه سفينة بعيدة ترقص كما أن سفينتنا ترقص وهى فى وسط ذلك الظلام المتراكب لا يبين منها غير نقطة كالنجم تعلو حتى نخالها نجماً من نجوم السماء فنحن لا نفرق بين النجوم والبواخر فإن النجوم ذاتها ترقص فى السماء ما دامت سفينتنا ترقص فى الماء فلايس حالنا بخير من حال هذه السفينة البعيدة المنكوبة ، ولعل ركاب هذه السفينة وملاحوها يرون فى سفينتنا ما نرى فى سفينتهم ذلك النجم الصاعد الهابط يرقص بين السماء والماء .

وسأترك هذا العذاب على ظهر السفينة وأشرك نفسى مع هؤلاء السمار فى أحد صالونات الباخرة ، وكان أحدهم يروى قصة غرق الباخرة زمزم التى أعطبها الألمان فى المحيط الأطلسى فى الحرب العالمية الماضية . وقصة الأسر الطويل مدة خمس سنوات فى جوف المعسكرات للذين اختاروا أن يمحووا هذه الحياة الفارغة السهلة تحميمهم السلطات .

والحياة الأخرى الشاقة المجهدة للذى اختار أن يعيش بين

الطلاق من الألمان يعمل كما يعملون ويلهو كما يلهون ويخاف ويفزع كما يخافون ويفزعون ، وإن كانت حياة هؤلاء وأولئك ، هؤلاء الذين آثروا حماية السلطات وعاشوا في كنفها ، وقد ضمن لهم الأسر شيئاً من الأمن والراحة ، وأولئك الذين آثروا أن يعيشوا مع الألمان في المصانع يكدحون لأنفسهم يتعطلون حيناً ويعملون حيناً آخر حياة قوامها الاعتماد على أنفسهم غرباء ، في بلد يضيق العيش فيه بأهله أثناء الحرب .

حياة هؤلاء وأولئك الطلقاء والأسرى ، كانت لا تخلو من الفزع والخوف وما تحمله الطائرات في جوفها من عذاب مسلط ونقمة مروعة يطعنون يوماً ويفزعون في أكثر الأيام ، ولكنها تركت فيهم أثراً واحداً باقياً وهو حبهم للألمان وتأثرهم بهم برغم ما سببوا لهم من ألم وما نال سفيتهم على أيديهم من اعتداء ، فكأنما السنوات الخمس كانت كافية لتنسيهم ذلك الألم وتنسيهم ذلك الاعتداء كما أنستهم عقوق أهلهم وتهاونهم في العمل على تخليصهم أو حث المسؤولين على تخليصهم من الأسر قبل أن تباد مصر ألمانيا بإعلان الحرب .

كأنما أنستهم هذه السنوات الخمس عدوان المعتدى ، وإهمال الصديق والأهل ، وأبدلتهم الميل لذلك المعتدى والعطف والاشفاق والحسرات للصديق والأهل تساوى الجميع في حبهم الشديد لألمانيا

وعطفهم الذى لا يجد للألمانيين . حتى اقتحم الحلفاء برلين وفتحت
المعتقلات أمام الأسرى ، وفتحت أبواب العودة أمام الغرباء
والطلقاء ، ومنهم من أثر الرجوع إلى وطنه ، وبعضهم هؤلاء الذين
يديرون هذا الحديث ، ومنهم من أثر البقاء . كانت الباخرة قبل
دخولها هامبورج بعدة ساعات تشق طريقها فى بحر متجمد من
الثلج كأنما هى عربة تسير فى اليابسة تشق الصخور بمقدمها المدبب ،
ثم ينساب باقى جسدها العائم العريض ، وتتحطم على جوانبها
صحائف الثلج المبسوطة كما تتحطم الصخور ، وينطلق منها أزيز
وقرقة وأنين .

وننظر إلى ذلك النهر التى كانت تتركه الباخرة فى الماء كما تترك
القوافل بعض آثارها فى الرمال . ننظر إلى ذلك النهر فإذا به فعلاً
كالرمل أو الطريق المطروقة . فلا تكاد تملحظات حتى ينطبق
شاطئيه ويركب بعضهما بعضاً فإذا به قطع عائمة متهاكة من الجليد
الأيض ، وإذا الفضاء كله هذا الجليد الأبيض الذى كمل تجمده ،
والجليد فى لون الزجاج التى لم يكمل تجمده بعد ، وبين هذين اللونين من
الشقوق التى التفتت والشقوق التى كادت تلتئم وأشعة الشمس الضعيفة
النامية تبرز من خلف الغمام فلا تبلغ من هذه المياه المتجمدة شيئاً
إلا أن تبعث فيها شيئاً من الأضواء تنعكس فى لون الطمى بين هذه
الشقوق البيض فتخلع على الجليد المتكسر صورة اليابسة .

كانت أول زيارة للباخرة منذ إنشائها إلى ألمانيا - وكلنا فرح ،
وكلنا مسرور ، وكلنا سيقابل صديق أو صديقة في هذه المدينة أو
تلك من مدن ألمانيا . فمننا بعض هؤلاء الأسرى ، أو الذين كانوا
أسرى يرون ألمانيا لأول مرة بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

وكلهم مشوق لرؤية صديقه الألماني أو المصري الذي أثر البقاء
في ألمانيا وأنا أيضاً مشوق إلى رؤية صديقة ألمانية ، ولعل تعجب
من ذلك فأنا لم أكن أسيراً أو طليقاً كما كان بحارة الباخرة زمزم ،
ولأنما هي صديقة ألمانية كانت تراسلني يغير أن أرى لها وجهاً أو
أميز لها سحنة أو أعرف لها صوتاً . كانت تراسلني طيلة سنوات
أربع بدأت وقت أن كنت في أول عملي بشركة السهاد ، وما زالت
حتى الآن لم تنتهي بعد وكانت خطاباتنا تصلني في السويس والقاهرة
والاسكندرية قبل أن أختار حياة البحر ، ثم كانت تصلني في الموانئ
الخارجية التي أرسو عليها وأكثرها ليفربول بعد أن اخترت حياة
البحر . كانت خطاباتنا مثالية النزعة صوفية في بعض الأحيان لا تخلو
من الدعابة والفكاهة والعبث في كثير من الأحيان حتى تولد بين
قلبين شيئاً أكثر من أن يكون صداقة ، وأقل من أن يكون حباً .
فلمست أريد أن أكون مثل بشار أحب قبل أن أرى شخص من
أحب ، وقد يكون شاعرنا قد سمع صوت صاحبه ويميز نبراتنا .
أما أنا فلم أسمع صوت صاحبتى وكنت في قراءة كلماتها أسمع نبرات

صوتى أنا لا نبرات صوتها هى . وليت الكلمات تستطيع أن تنقل
إلينا كما ينقل الأثير نبرات الصوت بجانب ما تنقل من صور
القلب والعقل والعاطفة .

هامبورج

كان أقى ما يحدث فى إسبانيا عند ما أُلج داراً من دور الرقيق
وتقبل على عجوز شطاء ، أو قهرمانه كما تسميها كتب ألف ليلة ،
تقوم بالاشراف على ذلك الجمال المباح ، فأطلب منها أن تحضر لى
فتاة ، وقد تسألنى هل تريد ما بدنية أم نحيلة و كأنها قد أخذت
على دارها عهداً ألا يساء داخلها ولا يرداد على غير ما يحب . كم
كنت أحس بالآلم الشديد عند ما أطلب ذلك الطلب كما أطلب
أى لون من ألوان البضائع بدلا من أن أعتمد إلى شىء من المجاملة
الكاذبة أو الغرام الكاذب ليرضى غرور هذه الانسانة التى نكبتها
الأيام فى مصيرها ، وقد تخفف عنها هذه المجاملة الكاذبة أو الحب
المكذوب ، وإن علمت أنه مكذوب قد يخفف عنها ذلك بعض
ما تحمل من ألم . أما فى ألمانيا فلم يكن هناك شعور بالآلم ، وكان
الرقيق يعرض خلف واجهات من الزجاج كما تعرض ألوان البضائع
المختلفة ، فهن جالسات على المقاعد كما تجلس التماثيل الخشبية التى
تعرض أزياء النساء ولكنها لا تعرض الأزياء هنا ، وإنما تعرض

الأجساد عرضاً رخيصاً ممجوحاً ، أشهد أنى رأيتك وأشهد أنى
خضت به وتألمت منه فانصرفت إلى الحان لعلى واجد فيها شيئاً
لا تمجه نفس ولا تثير فيها ضيقاً ولا ألماً .

وكانت إريكا فى هذه المرة شقراء جميلة ذات وجه مستدير
وعينين فى مثل لون الخمر كنت لا أمل من التحديق فيهما ، فتجيبني
ها ذا تريد أن ترى إتنى فتاة رديئة هل يكفيك هذا ؟ فأجيبها
فلتكونى كما تظنين ، ولكن عيناك تحكى عكس ذلك قد تكونى
منحرفة وقد أكون أكثر منك انحرافاً . قد تكونى آثمة وأنا
أكثر منك إثماً ولكن عيوننا مسلطة على عيوب الآخرين أكثر
مما هى مسلطة على عيوبنا .

وقد كنت أريد كريست وهى التى كنت أراسلها طيلة سنوات
أربع ، كنت أريد كريست وأراد الله إريكا ، واكتفيت بإرسال
برقية رداً على خطابها — وقد كان يفصلنى عنها سفر يوم كامل .
لم أستطع أن ألبى رغبته كذلك فى أن نلتقى فى منتصف الطريق بين
هامبورج ومدينتها جلادباخ القريبة من حدود هولنده .

ولأنصرف عن كريست الآن وحسبى أن أنفق أيامى القليلة
مع إريكا ، وهل ستبقى صداقة كريست أو إريكا .

هل ستبقى صداقة كريست التى أنشأتها الرسائل ، أو غرامها

الذى أنشأته الرسائل — ما أتفه هذه الرسائل ، وقد كنت أقرأ لإريكا خطاباً غرامياً من ضابط لاثنين بحار يشرح لها عاطفته وهيامه وعذابه وصدقه في الوقت الذي كانت تلتصق بي تمسح وجهها بوجهي ، وقد أسندت كتفيها العريضتين على صدرى لقد كنت أقرأ هذه الكلمات في غرفة ما ، فكأنى بها تعتبرني كاتبها ، وكاتبها يكثر من كلمة البائس ، وصدقيني وغير ذلك فأعلق على قوله ضاحكا . صدقيني أنا أن لا تصدقنى أى إنسان !

هل كانت تؤثر فيها هذه اللهجة التى تعرفها فى صاحبها أم تؤثر فيها لهجتى التى أقرؤها لها بها ، ما أتفه هذه الخطابات التى يسمونها الغرامية ، وما يدرينى لو أن خطاباتى مع كريست يفعل بها مثل ذلك : أكتبها مخلصاً ويقرأها لها عشيق قد يكون مخلصاً كذلك ، ما أتفه هذه الخطابات التى أعتقد أنها لا تساوى ثمن القصاصات التى كتبت عليها ، فثلها مثل الحب الذى ينمو فى لحظات ويزول فى لحظات لا يثبت لمحنة أو تجربة . ينمو اعتباطاً عند ما يصطدم الفتى بأى فتاة ثم يسمى ذلك حباً ويعتقد أن الأقدار هى التى نظمت له هذه المصادفة السعيدة أو المقابلة السعيدة . حتى إذا التقى بفتاة أخرى أخذ يحبها كذلك ، فهو يحب كل فتاة يراها . لا يستطيع أن يثبت أمام أى فتاة بغير أن يحبها ، فإن الأقدار كما يعتقد هى التى

تنظم له أمره كما يحب تعباً بغرامه وعبه ولذته وأوجه حياته العقيمة
التافهة ، والأيام آخذة في سيرها لا تلوى على شيء ولا تنظر إلى
شيء لا يهمها من أمرنا قليل أو كثير تدور كما يدور الرحي كما يقول
الشاعر وهل تنظر الرحي إلى ما تحدثه من أثر عند تأخذ في الطحن
والجرش هكذا الأيام تسير كما يحلو لها أن تسير لا تعباً بالضاحك
أو المتضاحك ، الفرح المرح ، أو البائس الحزين .

ولم نكن في ألمانيا بائسين محزونين وفي ألمانيا جيش جرار من
النساء كفيل لأن يبعد عنا ذلك ذلك البؤس والحزن ينتشرون بين
السفن يلبون دعوة أي داعي ، ويتبعن إشارة أي مشير ، وقد
أصاب سفينتنا بعضاً من ذلك الخير أو الشر كما أصاب غيرنا من
السفن المجاورة ، وأصاب كل من يريد ذلك الخير الوفير الذي
ساقه بؤس ألمانيا وفقرها ، حتى ذلك الذي يقوم على خدمتنا رائجاً
جائياً لم يعدم له صديقة تقف معه في كنفه الذي يشرف منه
على تقديم الصحون وأواني الطعام ، وقد تطلعت أساريه السمراء ،
ونشط كأروع ما يكون النشاط ، وأمسك بيده النصف سوداء
تفاحة في لون الخد يلصقها بخد صاحبة النضير فتفرق ألوانها في
ألوانه وتفتني فيه كان كما وصفت فرحاً مرحاً ، يستخفه الفرح والمرح
والنشاط حتى أفلتت من يده صفحة الطعام محدثة على الأرض
ضجيجاً روعاً ، فوقف جامداً كما يجمد الخشب يحدق في الطعام

المراق لا يكاد يتحرك . . . ولكن تحرك كما يتحرك النزيرك عند ما ربت أحدنا على ذراعه أن لا بأس .

وكان صاحبنا مصاباً بالصرع وقد صدمته هذه اللسنة الرقيقة كما تصدم المحارب القبلة فانثني أعلاه على أسفله وأربد وجهه وأطلق صرخة تمثل الخوف والرعب وتقلصت أطرافه وتقبضت كما تتقبض أطراف الميت ، وسال الدم من فيه وانطلقت عنه غزاته نافرة مذعورة ، ورحنا ننظر إلى ذلك الجسد الهامد الذي كان يرسل الدعابة والمزاح منذ لحظات وهو الآن بين الحياة والموت بل هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .

ما أتفه هذه الحياة التي تملكنا ولا نملك منها شيئاً ، وما أعجز الإنسان الذي يظن في نفسه القدرة والبطش والفتك وهو عاجز من أن يقي نفسه ما كتب عليه أو يمنع عنها عادات الأيام .

وهل تؤدي هذه الصدمات التي نراها ونفجأ بها والتي تصيبنا وتصيب غيرنا - هل تؤدي هذه الصدمات إلى الزهد أو الرغبة عن الحياة المطلقة التي لا يحدها شيء . نعم قد يؤدي ذلك إلى الزهد ولكنه زهد قصير العمر ، قصير الأمد . ثم نعود إلى الحياة الأولى أكثر إنطلاقاً وأشد رغبة ، فلم تفطر طبيعتنا على الكمال ، وإنما الكمال شيء . نتكلفه ونحاوله ونجهد وراءه كما يقولون . وقد نلحق

منه شيئاً أو لا نلحق في أغلب الأحيان . ونتيجة ذلك أن يشهد الصراع بين طبيعتنا الضعيفة الفاسدة وشوقنا إلى الكمال . ويشهد ذلك الصراع شدة وعنفاً في شخص ما عن الآخر . أما أنا فأشعر بذلك الصراع يشد حيناً حتى يدنني من الهوس فينغص على حياتي، ثم يضعف حتى لا يكاد يحس أو يحس بعض خلجات لا تكاد تظهر حتى تتلاشى وتنحسر كما يتلاشى وينحسر ضوء العربة يخطف الطريق المظلم خطفاً سريعاً . أو يتوسط بين هذين - بين الشدة والعنف حتى يصبح جزءاً من حياتي لا يفصل عنها لا يدعى منفرداً أو ملتجئاً إلى الجماعة يتعقبني في ساعات الليل وفي ساعات النهار .

هذه هي حالي اليوم ، ذلك القلق الذي أدرى جيداً كيف بدأ ومتى ؟ ولست أدرى كيف ينتهي ومتى . وسأعود الآن إلى إريكا والتي لم تستطع أن تمنع عني ذلك القلق . وكيف تمنع عني القلق وهي مصدر ذلك القلق . وكيف يمتنع الأثر ومصدره باق مستمر . سأعود إلى إريكا وقد أتيح لها أن تلج غرفتي بالسفينة ، وكم كنت أود أن تتاح هذه الفرصة لكريست بدلاً من إريكا .

ولو كانت هذه النظرة التي تنظر بها هذا النوع من المرأة هي النظرة التي تنظر بها المرأة العفيفة إلى الرجل العفيف لكانت ساعة خلوة وصداقة كريمة تترك في النفس أجمل الأثر . ولكن لهذا النوع

من المرأة نظرة أخرى للحياة ، ورأياً خاصاً فيما يليق ومالا يليق .
وتفكيراً منحرفاً مختلفاً تمام الاختلاف عن تفكير زميلتها التي لم
تعرض كما تعرضت ولم تأثم كما أثمت ، ونحن مضطرون إلى أن
نعالج الأمور مع هذه بطريقة تختلف عندما نعالجها مع تلك ويحدث
ما يحدث من أزمات وتتعدد ما تتعدد من أمور عندما نخطط في المعاملة
بينهما . فلا يجوز أن نعامل الرقيق معاملة تليق بالملكات أو نعامل
الملكات معاملة فتيات الرقيق .

وقد يبهج الملكات أن يعاملن معاملة الرقيق ولكن لا يبهج
الرقيق بحال أن يعاملن معاملة الملكات . فلن يبلغ ذلك من نفسه
الغليظة شيئاً . وقد تجرد من نفسه الحرّة التي وهبها له الله فنبذها
من صار رقيقاً فوجب أن يعامل كذلك . وينطبق هذا على الرجل
فما أكثر الرقيق من الرجال الذين يملأون الدنيا وضاعة
وخسة ولؤماً . ويخطئ من يظن أن المعاملة الكريمة النبيلة ستؤثر
في نفسه شيئاً | وقد فقدت نفسه القدرة على التأثير كما فقدت القدرة
على التأثير ، وسأترك الرقيق من الرجال الآن إلى عود قريب ،
وحسبي الرقيق من نساء المانيا ، وحسبي منهن إريكا التي جلست
تعاثني وأعابها ويعبث الحب أو الشهوة بنا ، وبين يدي خطاب
رقيق يسيل رقة وعذوبة كتبه لها بحار مقيم بها معذب في غرامها
كأنما أسال عاطفته بين السطور ، وسكب مياه قلبه على الكلمات .

بجاءت جذابة ذات نغم حلو معنى حزين ، ولكنها كانت في شاغل
عن ذلك النغم الحلو الحزين ، وقد يكون أليق بها لطات عنيفة
سريعة ، بدلا من هذه الكلمات المستعطفة البائسة التي يلح بها عليها
ذلك البحار البعيد .

ولكن البحار البعيد لم يكن يعرف أن صاحبه قد صارت إلى ذلك
النوع من الرقيق . لعله لم يكن يدرى ذلك ، ولعله كان يدرى .

ولكن لا يريد أن يفهم ماترى عيناه . ومثل هؤلاء كثيرون
يريدون أن يروا بأعينهم ما يسبق أن يحسوه بقلوبهم وعواطفهم
الرقيقة المريضة ، وعلى عيونهم أن تبطل الحق وتحقق الباطل وتلغى
مايسوء وتثبت مايسر على عيونهم أن تكون في خدمتهم أو في خدمة
عواطفهم تخلع على الأحياء والأشياء الصور التي تخلعها عليها قلوبهم
المريضة . ماأسوأ أن أكون كذلك ليس من ناحية المرأة فحسب بل
في كل وجه من أوجه الحياة . ماأسوأ أن أسير بعاطفتي أنظر إلى
الأشياء كما أحب أن تكون ويسوءني أن أراها كما أرادها الله أن
تكون . أحب فأخلع جمال الدنيا على من أحب ، وأكره فأخلع
مساوئها على من أكره يمنعني الحب والكراهة من هذه النظرة العاقلة
المجردة من الغرض والتي تعقب دائما الحكم السليم .

إمدن EMDEN

تقدمت الباخرة إلى إمدن تشق طريقها في جبال من الثلوج كالصخر تفرقع على جوانب السفينة . وقد تزول هذه الجبال ، تزول وتتحول إلى ظلام أبيض كثيف عندما تصير ضباباً يرد أبصارنا عن أطراف السفينة القريبة ، ظلام لا يميزه شيء عن ظلام الليل ، غير اختلاف اللونين وإن كان ظلام الليالي الصافية لا نشعر به ولا نحسه لما ينبعث من بريق الثلوج التي تحول الليل إلى نهار . أما ذلك الضباب فهو الذي يحول النهار إلى ليل ويضطر السفينة أن تنتظر يوماً أو أياماً ، حتى إذا أراد الله لهذه الغمة أن تنكشف وتزول . فانها تتجمع أو تتجمد لتعود كما كانت أجبال من الثلج ولكنها على كل حال لا تعوق السفينة عن السير كما تعوقها أجبال الضباب .

استقرت الباخرة في ضاحية من ضواحي إمدن تسمى اسنهافن ثم لا يمر يوم أو بعض يوم حتى يتجمد الماء حول سفينتنا وما يجاورها من السفن وحتى نرى العمال في أكثر من مكان يقفون على الجليد كما يقفون على اليابسة أثناء قيامهم بإصلاح بعض الصنادل الصغيرة . وفي الطريق كان الأطفال يتقاذفون بكرات الثلج وينزلقون على زحافات خشبية يقلدون بها إسكيمو كندا .

وفي طريقنا إلى المدينة كان البرد الذي يخلع الآذان ، والريح

التي تسفع الوجوه ، وأقدامنا تسوخ كما تسوخ أقدام الاعراب في
الرمال ، والرمال هنا بيضاء تقتلع أقدامنا منها اقتلاعا ، ويمسكنا
الإشفاق أن نطأ مياه البحر ونحن نظنها اليابسة وقد امتزج الأرض
والبحر امتزاجا حتى صعب التمييز بينهما ، ولولا هذه السفن الصغيرة
وقد جمد حولها الماء كأنها العربات أو المركبات قد آوت إلى أفريز
الطريق في مدينة مزدحمة ولولا هذه السفن لما استطعنا أن نميز بين
البر والبحر ، وفي الفضاء العريض كان يضاعف لنا العذاب حتى إذا
ولجنا الطرق المطروقة وحالت بيننا وبين الطبيعة العاتية ، المباني
القائمة والشجيرات المتراسة البيضاء - خف عنا بعض ذلك العذاب -
كالاعراب الذين تحميمهم المباني والأطلال القائمة من عسف الرمال .
حتى إذا اتهمنا إلى غايتنا وولجنا حانة أو كافية قضينا أجمل
الساعات ، نشعر بالفارق الكبير بين الجنة والجحيم وليس بينهما
غير بضع خطوات ، بل ليس بينهما إلا أن نعبث الباب ، من
منا يستطيع أن يفرط في النزول إلى البر كما كان يفعل في البلاد
الدافئة .. من منا يستطيع ذلك ؟ والنزول هنا ضرب من الانتحار ،
ويكفي أن يرتاد أحدنا المدينة ليلة حتى يعتكف بضع ليال .

ولم يطل حظنا مع الجرمانيات ذوات السيقان الغليظة
والوجوه المشرقة . وأنا لم أروجوها أكثر إشراقا وأنصع لونا
يميزها ذلك الطابع الذي لا أستطيع وصفه ، فكأنه صفة ملازمة

لهذه البلاد ذات الطقس البارد وكأن البرد يخلع على بشرتهن لوناً
رائقاً كشعاع الشمس ، ولم نر الشمس في هذه المدينة إطلاقاً ،
وإن كانت كل جميلة تحمل في وجهها شمساً لها ما للشمس من
نصوع وإشراق ، وما أكثر ما نرى الشمس ، وإن كنت قد
اكتفيت بشمس واحدة فإن نفسى لتنازعنى لأن أحترق بشمس
آخرى . وكانت إريكا هى هذه الشمس التى اخترتها ولا أريد
أن أقول - اختارتها لى الظروف - ولكن على شريطة واحدة هى
أن أنظر إليها النظرة التى تريدها والتى اختارتها لنفسها ، وقد اختارت
لنفسها حياة الرقيق .. فلتكن نظرتى لها كذلك . فاذا كانت هذا
هو ما تريد فلا تنزل عند إرادتها ، وقد حاولت أن أنظر إليها نظرة
غير هذه فساءها ذلك . فلنضع فلسفتنا ومشاليتنا جانباً ولاكن كما
تريد الفتاة أن أكون ، مادام ذلك فيما يتعلق بها ويمس شأننا دقيقاً
من شئوننا .

وإن بنى وبين إريكا صحفة لم تتم ولم تحتم فصولها بعد ويقينى أنتى
سأراها فى يوم ما . وستتم هذه الفصول على أى وجه كان .
ويشهد الله أنتى قهرت نفسى فى هذه المرة وهى التى كانت تقهر فى
فى معظم المرات ، واستطعت أن أمنع نفسى حتى عن أن أقول كلمة
غرام واحدة صادقا أو كاذبا . واكتفيت بهذه اللذة الهينة اليسيرة
التي لا تعقب ألماً .

ولولا جوع ألمانيا وعيث الاستعمار بها لما كانت هذه المذمة الآثمة
التي حملت الربان على أن يشق طريقه بين الغرف ليستوثق من عدم
وجود فتية - قبل أن نزمع الباخرة على الرحيل من أرض
ألمانيا كلها .

وألمانيا تشبه هولنده إلى حد كبير ولست أقارن الأخلاق في
البلدين فبينهما فارق كبير فقد عيث الاستعمار بألمانيا عيثاً فظيماً
والاستعمار يجر في ذيله الجوع - الجوع الذي يفتك بأعراض النساء

وألمانيا في هذه الصفة أشد بؤساً وفقراً من اسبانيا التي كنا
نظنها في مؤخرة الصفوف . وليس معنى ذلك أن ألمانيا هي التي
في مؤخرة الصفوف بل العكس هي في مقدمة الصفوف الآن في
أوروبا ولكنها تتجرع بالرغم من ذلك ما كتب على المغلوب من ذل

والعجيب أن في ألمانيا تأمين اجتماعي شامل كالذي يجرى في
بلاد الانجليز يتيح للعاطلين عن العمل شيئاً من الكفاف يمنعهم من
السؤال أو النوم في الطرقات . وليس في اسبانيا شيء من ذلك .
وليس للعاطل أو الجائع في اسبانيا غير الاسـتجداء والنوم في
الحدائق العامة . ولكن مظاهر البؤس في ألمانيا بالرغم من ذلك .
تفوق أضعافاً مضاعفة مثيلاتها في اسبانيا وقد يكون تعليل ذلك
هو بساطة الحياة في اسبانيا ورخص أسباب العيش وتكاليفه فبأي

مقدار تائه يستطيع المرء أن يعيش فهو أن عاش على الفاكهة وما أرخص
الفاكهة حتى كادت أن تكون طعام الفقير يساعده على ذلك شمس
دايمة توفر عليه الكثير من نفقات التدبئة التي لا يستغنى عنها الألمان

فالفقير في اسبانيا يستطيع أن يعيش بالقليل ولكنه لا يجد هذا
القليل . وعال العكس في ألمانيا قد يكون في جيبه الكثير بالقياس
إلى بلد آخر ولكنه في بلده يقصر عن أن يفي بحاجته . وهذه هي آثار
الحرب أو على الأصح آثار الهزيمة وما تركته في الأخلاق والطباع
والعادات تلبس بوضوح وتدل على نفسها بوضوح كما تدل على نفسها
آثار التخريب الواضحة في كل مكان .

ولم يكن التخريب الذي رأيته في أودسيا الروسية أو روترام
الهولندية شيئاً يقاس إلى جانب التخريب في ألمانيا . وأعجب ما رأينا
في وسط هذه الأبقاض والخرائب المهدمة، جبال من الأسمنت في
حجم العماير الضخمة جعلت لتكون خنادق تحمي المدنيين
بما في جـ، وف الطـ، آثار من دمار . فـ، كانت كما أريد
لـ، أن تكون فـ، كل شيء قد تخرب حولها ولم
تتخرب هي فما زالت قائمة . وماذا لو كان أصابنا من ولايات الحرب
مثل ما أصاب ألمانيا ماذا كنا نعمل بهذه الخنادق ذات السقوف
الرقيقة من الأسمنت التي كنا نظنها شيئاً وهي ليست من الخنادق

فى شىء ولا عجب أن نظمها شيئاً فقد كان درأما
أن تسقف البيوت بالأسمنت فى الأحياء الوطنية بمصر وكانت
إلى عهد قريب تسقف بالأخشاب وما زالت تسقف بالسعف
والجرید فى بطن الريف فمهدنا بالأسمنت ما زال حديثاً وهو الذى
جعلنا نعتبر هذه السقوف الرقيقة شيئاً، ما دامت هذه السقوف
ليست فى البيوت أو ليست فى كل البيوت !

وقى الله مصر ويلات الحروب وما يصاب الآدميين فى أعقاب
الحروب فى أعراضهم ومثلهم، وقى الله الانسانية جميعها من أعدائها
الكثيرين الذين يتناوشونها من كل جانب لهم إلا أن يصلوا
بها كما يصلوا بأنفسهم إلى درك الحيوان .

وسأترك ألماننا الآن التى تعيش فى فناء وانحلال ولعل أروع
ما يملها هو هذه الصورة التى تطبع على بعض عملاتهم المعدنية
الصغيرة صورة فتاة تكاد أن تكون عارية. وألمانيا اليوم هى هذه
الفتاة، فهى تعيش فى هذا العرى وليس العرى الذى يمس الأبدان
فقط خلف الواجبات الزجاجة ومنازل اللهو . ولكنه العرى الذى
يمس الوجوه كذلك فلم يترك الفقر لهم شيئاً من الحياء أو الخجل
يشترك فى ذلك الرجال والنساء ويكفى نكراً من القول أن يكون
رجالهم قوادون إلا القليل منهم وكانهم وهم يأتون ذلك الأمر المنكر

يأتون عملاً جليلاً نبيلاً أو ليس الكرام الضيف عملاً جليلاً نبيلاً .

والحق أنى أضيق هؤلاء الألمانين، أضيق بادعائهم وغرورهم ووقاحتهم وليست مدنيّتهم بالشىء النادر المثال . وإنما هى مدنية عادية كأي مدنية أخرى فى أوربا .

أشهد أنى أضيق هؤلاء الأدعياء المغلوبين كما أضيق بالأمريكين الغالبين . ولو غلبت ألمانيا لرأينا من ادعائها وغرورها ووقاحتها مثل ما نراه من أمريكا اليوم . ما أفبح الغالبين المغلوبين فكلاهما وقع مغرور . الوقاحة والغرور صفتان متلازمتان يصاب بهما الأفراد كما تصاب بهما الجماعات والشعوب .

سأترك ألمانيا البائسة التى تدفع ثمن هزيتها من الأخلاق والأعراض والمثل ، أنتقل إلى فرنسا وقد انتقلت الباخرة إلى مدينة روان واستقرت فى ضاحية من ضواحيها تعرف باسم كوروفى .

وكوروفى قرية صغيرة هادئة تصدّر الدقيق وبها معمل لتكرير البترول وآخر لصناعة البوناس وبين هذين المعملين منازل القرويين ، وعلى الشاطئ الآخر من النهر أرض زراعية خصبة وجمال أنيق خصب . وايست الفرنسية جميلة ذلك الجمال الأخاذ الذى يفتن من نظرة واحدة ، وقد يكون ذلك فى الاسبانية أو الايطالية . أما الفرنسية فلا فهى كالألمانية ليس جمالها

فاتنا أخاذاً . وفي ذهني صورة الألمانية عرفتها عن قرب وفي ذهني صورة للفرنسية لم بأن الحديث عنها بعد، وأنا من هتين الصورتين مفتون بهما معجب بكلاهما ولكني غير واجد فيهما ذلك الجمال الطاغى الذي يفتن في نظرة واحدة . وإنما فيهما ذلك الجمال الذي نبحث عنه في نظرات كثيرة حتى نجد ونفتن به افتتاناً .

والحق أن في كل بلد جمال وكان إرادة الله قد وزعت الجمال بالقسط بين البلاد والعباد حتى ليصعب أن نقصر الجمال على بلد واحد أو تصبح هذه المدينة أو تلك مستفردة بما فيها من جميلات ففي كل زمان ومكان جمال وجميلات ولو بحثنا بين السود في جهايك أو الصفر في جزر الهند الشرقية لرأينا ما نريد وفوق ما نريد من جميلات

وليست الفرنسية مستفردة بهذه الإناقة التي تروى عنها ويبالغ فيها فهي لاتزيد عن الأسبانية أو الإيطالية في شيء والمرأة في كل من هذه البلاد الثلاثة متشابهة تقريباً حتى كادت أن تكون ملاحظتهم واحدة يصعب التمييز بينها وعاداتهم متشابهة مشتركة لا يميزهم غير ما في الاختلاف بين لغاتهم الثلاثة .

أما الفارقة بين إحداها والألمانية فهو فارق كبير كذلك الفارق الكبير بين اللغة الألمانية وإحدى هذه اللغات .

فللألمانية سحنة خاصة وملاح معينة كما أن لها هذه اللغة الجافة
التي تنبو في السمع وتقرع الأذن بحروفها الضخمة وخاماتها الكثيرة
والفاظها التي تمتلئ بها أفواه الحسان الضيقة الأنيقة وجرسها الذي
يخلو من العذوبة على كل حال، فالفارق كبير بينها وبين اللغة الفرنسية
الأنيقة التي تترك في الأذن أثرا جميلا وصدي حلو الرنين. ولا
أدرى أين قرأت أن الفارق بين الملاح يبعد ويقرب كما يبعد ويقرب
الفرق بين اللغات. وغفر الله لي فقد تحدثت عن المرأة كثيرا وكان
كل بلد لا يحوى غير المرأة فعلها أفصر اتبهاى وحديثي وعليها
يقصر سعي عندما تظأ قدماى أرض الشاطيء.

سأترك المرأة مؤقتا وأتحدث عما رأيت في متحف الفنون بمدينة
روان. وماذا أعمل وقد أبت الفنون إلا أن تمس المرأة كذلك
وتتحدث عنها بالألوان والرسوم، كما أتحدث عنها بالألفاظ والمعاني
ثم يصح حديثي عن المرأة متصلا سواء رغبت ذلك أو رغبت عنه
وفي ذلك المتحف وقفت أمام لوحات ثلاث، كانت الأولى تمثل
موكباً من العاريات أحطن برجل أو بعدة رجال وقد اختار الرسام
لأقدام الرجال حوافراً أقرب ما تكون إلى حوافر الحملان وأبعد
ما تكون عن حوافر الذئاب.

وأى غرابة في أن يتحول الرجل إلى حمل أو إلى ذئب بين

النساء العاريات، إلى حمل إذا شبع وإلى ذئب إذا جاع، أى غرابية في أن تتحول الغريزة إلى حنان أو إلى طوفان. فاللوحة واحدة وليفهمها كل كما يريد فهي كالسكأس مرة في فم وحلوة سائغة في آخر أو النغم حلوا رائعا يبعث البهجة ويدفع إلى الرضى عند قوم وحزينا ألما يثير الحزن والأسى عند آخرين .

ولوحة أخرى تمثل الحب بين الاعراب في جوف الصحراء وقد اتخذ كل إعرابي فتاة يبادلها الغرام بين الخيام والجمال الرابضة والناهضة والتي تريد النهوض، وقد انطبقت أفواه العيس واستطالت كأنها لا يعجبها ما ترى . وأخرى عن الحلاقة في حمام من حمامات ألف ليلة، نافورة كبيرة وحوض رائع في ظل الشجر الوارف والأغصان اللدنة الخضر وأجساد المستحلمات اللدنة في ضوء القمر. ومن الألوان البارزة التي تبرز عن قماش اللوحة بروزا ما يخيّل إلينا إذا قربنا منها أننا لا نرى شيئا وكما ابتعدنا عنها رأينا شيئا وفهمنا أشياء رائعة مبدعة فهي عن قرب عـدة أخلط قد انتشرت على اللوحة في غير عناية، ومن بعد غابة كثيفة نضيرة وعاشقين يختلسان القبل وما بين القبل من حديث وشوق. وسأعود إلى كوروني مرة أخرى وأنا واجد فيها الحياة والحركة . وليس السكون والجود على قماش اللوحة مهما كانت رائعة مبدعة ونحن في هذا الجمال الحقيقي نشترك

مع الطبيعة ونصبح جزءا منها، ونحن نقف في مسرحها ونقوم بأدوارنا المقسومة لنا كما يعمل الممثلون على خشبة المسرح . بدلا من أن نقف خارج هذا المسرح مع المتفرجين المعجبين .

وأنأريد أن أرسل بعضا من نفسى أو أرسل نفسى كلها التفتى فى هذه الطبيعة السمجة اليسيرة الحلوه فنحن نسير أياما وأسابيع بسفينتنا، لا نرى الماء الذى يأخذ عدة ألوان، قد يكون جليدا متماسكا أو مياهها زرقاء شديدة القتمة تكاد تقرب من السواد تنتثر على سطحها البقع البيض كما ينتثر الحباب فى كأس من الخمر قد تكون مياه حمراء أو خضراء أو بين هذين اللونين عندما تلج السفينة نهرا من الأنهار أو بحرا من البحار الساكنة المغلقة .

ونحن بين كل هذه الألوان نتحرق شوقا إلى ذلك اللون الحبيب اللون الذى تتمشقه نفوسنا وتتعلق به أفئدتنا مشاعرنا ذلك هو لون الأرض الطيبة وليست تفتننا منظر المدن المزدحمة والبيوت القائمة والجمهور الكثيف من الناس بقدر ما تفتننا منظر شجرة قائمة ودغل كثيف متراكب أو دوحة عملاقة تعكس ظلها على صفحة مياه جارئة نقية . وعلى جانب السين ربضت السفن . ومنها سفينتنا . وفوق كل سفينة واحد من هذه الكبارى المعلقة مقاطعها مرتفعا عنها تجري عليه عربات مقلوبة كعربات الترام . تحمل فى جريها أعدال الدقيق تفرغها فى

جوف السفن ، وعلى الجانب الآخر البساط الأخضر الجميل يرتفع فيه دغل من الشجر الكثيف المصمت ، مرتفعاً كما يرتفع الجدار ومتضاماً كما يتضام العشب ويمتداً كما يمتد الجبل المزروع . لا ينفذ منه الضوء . ولولا أعالي الأشجار وأطرافها المشرشرة لما كانت غير جبل مصمت ، وإن كانت هذه الأشجار تنفرج سوقها قليلاً لتكشف عن الطرق المطروقة والمنازل البيض متناثرة على قمم الروابي البعيدة . ومتناثرة على البساط الأخضر القريب حمامات بيض كأنها يرمن للأبقة والوداعة والأمان . فعلى أحد الشاطئين الريف خالصاً وعلى الطرف الآخر الريف والمدينة ، المصانع وبيوت الفلاحين . وكنا نشق طريقنا في قلب مصنع البوتاس لنستقل الأوتوبيس إلى مدينة روان ، كنا نشق طريقنا بين الماكينات والآلات ، ثم بين قرقرة الدجاج وغناء الطيور ورنين الفؤوس ، تقطع في الأرض الرخوة أرض الحرائق الصغيرة الملاحقة بأفنية البيوت .

كنا نقطع هذا الطريق نهاراً وليلتاً - بون مبصرة كما يقولون - فشهدنا هذه الطبيعة كأروع ما تكون . الأطفال في صخب والعداري يأخذن الطريق عدواً وقد التهمت الحدود حتى كادت أن تشتعل ومنهن من آثرن المشى الهادي الرفيق ليمتض من الطريق والسابلة بمنظرهن الهادي الرقيق أما في الليل . فقد كنا نتوقع الشر من الأحياء .

ويتوقع الأحياء الشر منا. ذلك الشر الذي يكمن في اعطاف الطريق والطريق مظلمة قائمة الحلمة إلا من ضوء ضئيل قليل يظهر لنا خوف الناس من بعضهم البعض . وقليل ما يظهر الناس بالليل حتى ليندر أن تقابل فتى أو فتاة تنظر إلينا كما ننظر إليه يخشى كل منا صاحبه ولا يظهر له ذلك . فتمنح نتوقع في كل خطوة كمين وفي كل نبأه لص أو قاطع طريق ولا غرابة في ذلك فقد حذرنا البواليس من إرتياد هذه المنطقة ليلا . وحذرنا من السير فيها بعد الغروب وأين يغنى النذير والتحذير ونحن لا نملك غير هذه الساعات بعد الغروب نشترها من أنفسنا لنملأها باللذة والشعور أيا كان لون هذه اللذة ونوع ذلك بالشعور .

باريس

ما أشد شوقى لرؤية بغداد وباريس، ولا أدري لماذا هتين المدينتين بالذات . ولعل ذلك من كثرة ما قرأت عنهما حتى إشتقت إلى رؤيتهما . وما أعرف أنى قرأت كما قرأت عن بغداد حتى كان يخيل إلى أنى أعيش فى حى من أحيائها بن الرصافة والجسر كذلك الشاعر الذى كان يتغزل فى عيون الحسان بين الرصافة والجسر . كأنى كنت أعيش فى بغداد، ومصر بلد يساق إلى حديثها ولست أعيش فى مصر وبغداد هى التى يساق عنها ذلك الحديث .

وكذلك الحال عن باريس . قرأت كثيرا عن باريس واشتقت أكثر من مرة أن أطلب العلم في باريس وما كنت لأشتاق أن أطلب العلم في بغداد ولعل باريس اليوم هي بغداد الأمس كما يقولون وها أنذا قرأت باريس وعشقت باريس قبل أن أراها .
أو على الأصح عشقت باريس وأنا في الطريق إليها ولم أصل إليها بعد فبينى وبينها ساعة وبعض الساعة والقطار يطوى هذه المسافة أو هذا الزمن وقد تركزت في ذهني وتجسمت في خيالي صورة واحدة متخيلة عن باريس . ماذا سأرى فيها ، وماذا أريد منها ، وكيف ستكون وكيف سيكون حكمي عليها . لم يكن في ذهني غير باريس وكان باريس هذه فتاة أعشقتها على السماع تأخذ على كل سبيل وتبرزلى في كل لحظة ولفته إذا كان ذلك حالي ولم أرها بعد فكيف إذا رأيته وعشقتها . ولكنى لن أطيل إقامتي في باريس حتى لا يحدث ذلك العشق الذى لا أريده . وماذا أصنع بعواطفي فأنى وإن طالتي إقامتي مع فتاة ليس فيها ما يفتن أو ينهر فأنا لا محالة عاشقها لا يهم أن تكون جميلة أو غير جميلة وإنما طول إقامتي معها سيخلق هذا العشق خلقا أو على الأصح سيظهر لى ذلك الشيء الذى يفتنى حقا . وأنا كما كنت أعيب على بعض الناس أعيش بعاطفتي في بعض الأحيان ، فإذا رأيت العاطفة رأيا أسرعت عيني تؤيده تأييدا . وتثبته تثبيتا ومعنى ذلك

أنتى أحس أولا، ثم أنظر ثانيا فنظرى تابعا لا متبوعا، ومثل ذلك إذا كرهت نفس شيئا ووقر فى ذهنى الأعراض عنه والنفور منه فما أسرع ما يتجسم لى قبحه وبشاعته .

وقد يكون ذلك الشيء جميلا فى نظر الغير فمن أين هذا القبح ومن أين ، هذه البشاعة - لست أدرى - ولكننى أدرى أن طول إقامتى مع الفتاة وكذلك طول إقامتى فى المدينة ليست هى التى ترينى هذه جميلة أو هذه المدينة رائعة . وإنما يأتى ذلك فى المحل الثانى وما يأتى فى المحل الأول . أن أشعر بأن هذه الفتاة جميلة أو أنتى واجد بها شيئا فأتنا جميلا ، حتى تتحول بعد ذلك التفكير قبحها إلى جمال دماستها إلى فتنة، وإذا كانت جميلة فإتنة فيتضاعف جمالها وفتنتها مرة ومرات، فإذا أننا مفتون بها غارق إلى أذنى فى ذلك الافتنان . إذا كان ذلك يحدث مع الفتاة والمدينة فهو الذى يحدث مع الأحياء والأشياء أيا كانت ألوانها . فلننظر إلى ما حولنا من أشياء جميلة ولنحس أنها جميلة ولننظر بعين الرضا بدلا من عين السخط إلى كل ما يحيط بنا من أحياء وأشياء، حتى ننفق وقتا سعيدا فما أضيع العمر الذى ننفقه فى الهم والبؤس والشقاء وبأيدىنا نحن لا بأيدى غيرنا نستطيع أن نكون سعداء وبقلو بنا لا بقلوب غيرنا نستطيع أن نرى ونحسن ذلك الجمال الذى أسبغته الله على الأحياء والأشياء . ولتنقطع الآن أحاديث القطار التى أحدث بها نفسى وقد أقبلت

باريس تسمى إذا صح هذا التشبيه وطوى القطار هذا الريف الذى لم يخاص للريف وإنما امتزجت به الصناعة وطغت عليه . فقول هذه المزارع الصغيرة وخلف بيوت الفلاحين مصانع لا تعد للحديد والصلب والآلات الدقيقة . يفصل أحدهما عن الآخر نفق من الأنفاق الطويلة أو كبرى من الكبارى الضخمة أو مربض من مربض الطائرات .

وهكذا كنت أرى الزراعة والصناعة على طول الطريق أو على الأصح كنت أرى الصناعة تطغى على الزراعة وتأق عليها لا تكاد تترك لها شيئاً . وبين هذه وتلك بيوتنا تختلف ضيقاً وسعة وغنى وفقراً . تتضامل حتى تصير أكواخا تدل على بؤس بئس وعيش فقير . وتضخم حتى تصير فيلات ضخمة تدل على عيش هائل رغيد ، وبين الحياة البائسة والعيش الرغيد ، القبور . القبور والصلبان المعلقة فوق القبور . وفى مثل هذه القبور سيسترخ القلب يوماً ما بعد نهاية مشواره الطويل أو القصير . كما يسترخ القطار بعد نهاية مشواره الطويل أو القصير . فليسرع القطار أو يبطل . وليسرع القلب فى دقائقه أو يستأنى حتى يأتى ذلك اليوم الذى هو خاتمة العناء . وحتى يأتى ذلك اليوم فإننا أخذ له أقصى ما نستطيع من عناء . ها هي باريس تسعى اليها ، وهذا الفيلا التى يخطفها القطار خطفاً سريعاً ترتفع

في السماء وتزيد في الإنساع بعد أن كانت ضئيلة الإرتفاع والإنساع
وكان ذلك ايذانا بقدوم باريس وقد انتصف النهار أو كاد وسأضع
قدمي في باريس المزدحمة فاقصد أول قصد إلى متحف اللوفر وعسى
أن أرى برج إيفل في الطريق وليس عندي من الوقت ما يكفي
لإرتقاء قمته وقد يحور ذلك على الوقت الذي أريد أن أنفقه مع
اللوحات . وقد يحور ذلك على هذه الدقائق التي أريد أن أقضيها
مع اتباع جان بول سارتر من اليهودين، وإذا استطعت أن أحقق
هذا الشيء الكثير فيما عندي من وقت قليل فأنا سعيد.

وفي متحف اللوفر رأيت أول ما رأيت آثار المصريين واليونان
القدماء آثار طيبة ومفيس وتمثيل ديموسين وارسطوفان وبندار
وما تخيله هؤلاء القدماء عن أبولون وأفروديت آلهي الشعر والحب
والجمال مررت مرورا سريعا على آثار نابليون ولويس الخامس
عشر لأقف طويلا أمام عدة لوحات . وكانت الأولى تروى قصة
الحب الذي لم يتم، لم تدعه الظروف ولم تتركه الأفار يصل إلى غايته،
أو هو قد وصل إلى غايته قصيرا سريعا كما يصل البرق إلى غايته،
فماتت المرأة، وماتت الزوجة، وماتت شقيقة نفسه، وأمسك القسيس
بها من كتفها وعلى وجهه حزن وقور أليم وأمسك هو يضم ساقيها ويسكب
في هذه اللحظات كل ما يملك من عاطفة إذا صح أن تسكب العاطفة

وعلى وجوهها جمال الحبة وجلال الموت، ووجوهه ينطق بالجزع والخسرات والأين . وتحت أقدامهم آله تشقها اللجود .

ومن فرجه الأسستار المسدلة على كنههما - الذي زره الموت . من فرجه هذه الأسستار ترى الصايب والحد والقمر في الفضاء القريب .

ولننتقل إلى هذه اللوحات المضاحكة أو التي تنقل صور الحياة المضاحكة، ومن هذه لوحة تمثل الحانة في حياة الرجل الفقير . قطعة من خبز جاف وكأس نصفها فارغة و غلام رث ينفخ من ماره وقد انتفخ فوه والجماعة يختلسون من بؤسهم لحظات ويتخطفون من أنف الزمان دقائق يعيشون فيها مع النغم ويبعدون فيها عن الواقع المر إلى الأخيلة التي يبدعها سلطان النغم واعتدال المزاج وهدوء الأيام .

وأخرى تمثل الحظ في حياة الغنى إذا كانت السابقة تمثل الحظ في حياة الفقير . فلم ينتقل هذا الغنى إلى الحانة وإنما انتقلت إليه الحانة، ولم يعزف له غلام رث وإنما أحاطت به النساء والإمام إحداهن تعزف له وتغنى وقد اتسع فيها ونحراها ونفرت عروقها من شدة ما تعزف وأخرى تدله وتلاعبه وتمرر أناملها الرخصة على سوقه الهزيلة المعروفة، وثلاثة تسقيه من فمها خمر أو من يدها كما يقول

أبو نواس، وكانه في وسط كل هؤلاء، في وسط جحيم لا نعيم - أليس
الافراط في النعيم كالافراط في البؤس عذابا ليس بعده عذاب .

ثم قصة الحرب في نهايتها - وفي نهايتها تختطف النساء ويردن
على ما يكرهن فأحدهما يجذبها يريد أن يحملها من الأرض ويشاركها
ظهر جواده وهي تضرب في شعر رأسه في غضب ويأس وجنون .

وأخرين يتنازعان فتاة وكأنما يريدان أن يفتسماها إفتسا ما وهي
بين المختصمين جزعه وليس يغني الجزع ، ذنبها أنها جميلة والجمال
ذنب أكثر حولها الطلب وأكثر حولها المختصمين ، وهذه عجوز قد
وجدت من يطلبها وإن لم تجد من يختصم فيها .

ولوحة خامسة رأيتها من قبل في متحف روان ولاكنها هنا
كمعظم اللوحات في متحف اللوفر قد رسمت على جدار كبير حتى أن
شخوص اللوحة تتضاعف مرة أو مرتين عن الحجم الحقيقي . وكانت
هذه صورة الشراع المحطم والسفينة التي نكبتها العاصفة فنصفها في
الماء ونصفها على الصخر وقبع ركابها بين الأمتعة وفوق جثث
المصروعين على الواح مغرقة من الخشب . قبعوا يائسين متضرعين
ووقف أحدهم على قمة الصاري المهشم يلوح بردائه يطالب
النجدة والنجاة ،

ولا أستطيع أن أفى هذا المتحف حقه من الشرح فلكل لوحة

قصة تكاد أن تنطق وتتحرك وأنا أعيش مع أبطال هذه القصة لحظات لألح قصة أخرى .

وهكذا أخرج من قصة إلى قصة . ومن حياة إلى حياة، وما أكثر القصص وما أكثر الحياة . وما أشبه هذا المتحف بالحياة نفسها نضرب في مجاهلها ونغوص في أعماقها ولا نصل إلى نهايتها . ففيه انفق الساعات ولا أبلغ من نهايته شيئاً . وكأني لن أبلغ نهايته كما أحب وأبلوها كما يجب إلا أن أنقطع له أياماً وشهوراً . حتى استنفذ ما فيه وأظهر عليه فهو مدرسة أو أكبر من مدرسة . يعرض كما تعرض المدرسة اللذة والروعة والمتاع . وليس المتحف متحف بما يعرض من الآثار والرسوم والصور التي تقاس أطوالها بالأمتار .

ليس هو متحف لذلك فحسب بل هو متحف أيضاً بأرضه المفروشة بالخشب الثمين ومقاعد الوثيره وسقفه المذهب المغطى بالزجاج الثمين والأخشاب المطعمة بالذهب والرسوم .

ثم انتقل من ذلك المتحف إلى برج ايفل ماراً على المسألة المصرية التي تزين قلب باريس . وما أجمل باريس عندما ننظر إليها من أعلى قمة في باريس ، يلفها الضباب كالعروس الفاتنة يلفها وشاح أبيض أنيق فعلى بعد قريب كان الضباب يلتهم أطراف المدينة ويأني عليها كلها أو بعضها فتختفي اختفاء تاماً وتصبح فراغاً من الفراغ

أو تظهر خلف غلالة رقيقة كما تظهر الحسنة — أو تأتي بين
الظهور والاختفاء كما يأتي الحلم في عين النائم . فالسين يسعى هادئاً
رفيقاً يشق طريقه بين العمائر الضخمة وأطراف قصر شايبو وأبنية
التي لا ترى ضخمة من ارتفاع السحاب . عدت إلى الباخرة
بعد أن فتنتي باريس وأصبحت لها عاشقاً ، وإن لم أفاجأ بذلك
العشق فقد كان شيئاً أتوقعه . ثم كنت أغالب الشوق الشديد لرؤية
باريس مرة أخرى وانفراق يوم كامل مع الوجويين . ولكن ما
منعني من ذلك أن الباخرة تتأهب للسفر إلى مدينة الهافر حيث
تستقر ساعات معدودة ثم تغادر فرنسا كلها .

وقد أعود من باريس فلا أجد الباخرة في روان وقد لا ألقها
في الهافر وماذا أعمل في روان أو الهافر بعد ذلك . إذن سأعود إلى
باريس وأكون أحد هؤلاء الكثرين الذين أضاعتهم باريس
أو أضاعوا أنفسهم في باريس ، لم اتصل بالمرأة الباريسية من قريب
أو بعيد . والمرأة في روان أو الهافر أو في هذه الضاحية الريفية
كوروني لا تقل عن المرأة في باريس فهي تختفي دائماً فيما ترتديه
من جلد الحيوان كما تختفي المرأة في باريس . وهذه الحقائق الجميلة
الخضراء في كوروني لا تقل عن حقائق باريس ،

فلا تسلي بهذين عن باريس وعشق باريس ولأنفق ما بقي لي

من ساعات في هذه الطبيعة السهلة الجميلة على شاطئ السين وبين هذه
الأشجار التي لا نعرفها في مصر فكأنها غصن واحد نضير سترت
جذوعه النابتة من الأرض الأوراق والفروع ، ترسم على صفحة
المياه الشفافة تهاداً إذا هدأت وترتعش إذا ارتعشت .

وهذه الزهور الصفراء على سوق مجردة عارية من الورق تعطى
لهذه الأرض لونا من ألوان الابتسام . أليست هذه الزهور
البيضاء والصفراء على أرض معشبة ، منحدر أو منبسطة .
أليست هذه الزهور ابتسامة كهذه التي ترقص على ثغر العذراء .
أليست تستطيع العذراء أن تبتسم عدة ابتسامات وأن يأخذ
وجهها عدداً عديداً من الألوان والإنطباعات تنطبع في إشراق
ويسر على صفحة وجهها الصريحة البيضاء ، فطوراً نذوب رقة
وحناناً ، وطوراً ترسم الحب والوجد والهيام وهي تفتن في كل هذه
الطوار . كذلك الأرض الطيبة وما ترقشه عليها الزهور من تعبير
يفتننا حيناً ويروقنا حيناً ويبعث فينا التفكير في غالب الأحيان .

في هذه الضاحية الجميلة عند ما ترقى العين إلى سفح غير قليل
الارتفاع أو تهبط إلى منحدر غير عميق ، أو تمتد على أرض سهلة
أو تأخذ صورة السفح والسهل والأرض العميقة في صورة واحدة
ملتئمة الأجزاء في هذه الأرض التي خلقها الله ولم تمسها يد الإنسان

إلا مسأ هيناً رفيقاً لا يغيرها ولا يعيث بها . في هذه الطبيعة الفاتنة
اليسيرة التي لا تعقيد فيها ولا تكليف ، سنجد الجمال المثالي والصحة
الجيدة والأناقة البسيطة المعتدلة . وقد أفرطنا على المدينة أو
أفرطت المدينة علينا وحرمتنا من الريف والريفيات .

أما نهارى فقد أنفقته في الريف وأما الريفيات فليس لهن
سبيل ، وفي هذه الحانة الريفية تظلم هذه الأعواد التي اتخذت سقفها
وإن كانت لا تخلو من أناقة ، وهذه الريفية التي تذهب وتجيء ،
تجيء بالزجاجات ملاءى ، وتذهب بها فارغة ، تحمل العصي الطويلة
من الخبز متنتلة بأنوثتها وطهرها بين الحاسين والطاعمين وتشرف
بين ذلك على موقدها المكتظة بالبباطس الساخنة .

حسبي من هذه ابتسامة يسيرة حتى تصبح في نظري رائعة
الدلال والفتنة ، ثم أحتال في أن يتصل بينى وبينها الحديث ، وقد
يترك حديثها ووجهها في نفسى بعض الأثر وقد يكون ذلك الأثر
كبيراً حتى يصل إلى درجة الألم عندما أمنع نفسى من الإسترسال
وأقطع عليها ما تريد . وليتنى لم أقطع عليها ما تريد فأنا في حانة
أنفق يوماً قد يعود وقد لا يعود ، وأغلب الظن أنه لن يعود .

وفي الصباح الباكر كانت الباخرة في طريقها إلى الهافر ، والهافر
مدينة شعبية بسيطة تخلو من الأناقة ولعل السبب في ذلك هو أنها

ميناء كبير يرسو عليه العدد الكبير من السفن وناقلات البترول.
ويختلط البحارة في هذه وتلك بأهل المدينة إختلاطاً مستمراً
ولا عجب في أن تسفل مدينة وتسمو أخرى بفئة من الناس
يزورونها لما أو يزورونها دوماً . والتي يزورونها لما هي روان
فهي مدينة أنيقة تغلب عليها أناقة باريس بل هي صاحبة من ضواحي
باريس ، فهي مدينة فرنسية ، أعني أنها تصح أن تكون عندنا
لفرنسا أو عنونا لباريس وقد يكون في باريس أحياء أمهلة فقيرة
ولكنها لا تؤثر في الصورة الجميلة التي ترسم أمامي عند ما أذكر
باريس فلا تحضرني صورة مهلة بل تحضرني صورة أنيقة رشيقة
لأحياء أنيقة رشيقة . وعلى هذا فالفارق بين رواهن والهافر فارقا
شاسعاً كبيراً فالأولى مدينة إرستقراطية ولست أعني الأشخاص
الأحياء فقط وإنما الأشياء كذلك .

وما أعجب أن تفرق الارستقراطية بين الأشياء كما تفرق بين
الأحياء ، وكأن الهافر مدينة شعبية كهذه المدن الأسبانية على شاطئ
البحر الأبيض فالحياة في هذه كالحياة في تلك ، فما أكثر الحانات
ولا أقول المبهات التي تكثر فيها ليالى القصف واللهو والسمر ، وأنا
الآن في طريقى إلى القصف واللهو والسمر .

كنت أخرج من حانة لاليج أخرى كما أنى أبحث عن شيء أو
الح في طلب شيء . وذلك الشيء جمال يستريح له القلب ويهفو إليه

الفؤاد ، جمال لا يفتو عن الذوق ، ومادا أعمل بهذا الجمال الذى إستنفذ ذلك الجمال الذى أنى عليه الاحتراف فلم يترك منه شيئا . وإنما تمثال لا يميزه غير ذلك الشعر الطويل المرسـل والجورب الأنيق الشفاف والشفاه المخضبه والحركة الضئيلة الهزيلة التى تدل على آثار من الحياة ضئيلة هزيلة .

ومادا أعمل فى عزيزتى ومادا أعمل فى شيطانى ومادا أعمل فى ذلك الجسد الذى يحملنى مالا أطيق ويسير بى على غير ما أريد ، ويريدنى على ما أكره ، إلى أن صار بى إلى ذلك المصير المؤلم وأى مصير أشد ألما من أن تقود المرء غرائزه كالبعير فى يد الطفل الصغير ، كنت أخرج من حان إلى حان — حان ينطلق منها الضجيج والعجيج — ويرى غيرى أن الحان لا تكون حان بغير الضجيج والعجيج ، حتى رأيت أخيرا عشا هادئا جميلا ومثاة فى مثل جمال الأسطورة وجلس ثلاثتنا — وثالثنا هو ذلك الغلام المراكشى الذى تطوع لإرشادى فى هذه الأزقة الطويلة الملتوية .

أليس يعجبنى الهدوء . أو ليس يعجبنى أن أكون بعيدا عن أنظار الناس وأصواتهم ، أو لست أسمع الموسيقى كأصنى ما يكون بعيدا عن الضجيج والعجيج وقرقة الزجاجات ورنين السككوس . ما أروع هذا النغم الذى يعلو حتى يقرع الأذن ويخفت حتى ينأى

ويرقص بين ذلك — يدخل بنا دخولا عنيفا قويا حتى يهيننا للذة
عذيفة قوية ، ثم يخفت حتى يصبح كالصدى أو رجع الصدى .

وهذا الصدى هو جمال ذلك اللحن الإسهاني كما أن الظلال
هي جمال الصورة الزبدية الملوثة ، ذلك الصدى الرقيق الذي يثيرني
ببطء وخفوته أكثر مما يثيرني بعنفه وقوته، وهل أطمع في أكثر من
ذلك وقد اجتمع لي ثلاث الحسناء والشراب والنغم وإن كنت مفرق
النفس بين هؤلاء الثلاث، أما النغم فقد أرادت أن يكون مصريا
بعد أن علمت أنني مصري ، ثم كان ذلك يجذبني بشيء من العنف
يحملني من حان في الهافر إلى مكان بعينه وغرفة بعينها في مصر .
يدفعني إلى التفكير ويصرفني عما أنا فيه ليرسم صورة واحدة هي
الدار — وسؤال واحدا — كيف حال أهل الدار — والشراب
البارد الذي يلسع الحلق لسعا بارداً — ويقبض الإمعاء قبضار فيقا
ويشير بين ذلك ما يثير من النشوة الهادئة القلقة التي لم تخلص لأن
تكون هدوما كلها أو قلقا كلها وإنما يمزج الهدوء والقلق امتزاجا
وإن لم يتعاورا صفيحة وجهي فقد تعاورا عيناى رغما مني .

والحسنة هي موضوع ذلك الصراع القصير الأمد بين عقلي
وغريزتي ، وبين شيطاني وما في أعماق نفسي من عاطفة ووجدان
وسرعان ما تنتهي هذا الحرب القصيرة وتجتمع لي نفسى المفرقة

أو نفوسى الثلاث حتى تصبح نفسا واحدة تريد أن تفنى فى لذة واحدة مع جانيت . ولكن جانيت لا تريد أن تصل بى إلى النهاية من غير تشويق وتزويق — تريد أن تجعلى كصياد الأطباء الذى يلقى من صيد الجهد والمشقة والعناء . وقد كنت فى ألمانيا صائدا أضاع وقته فى مداعبه الصيد والعبث به والعطف عليه حتى إذا وصل إلى صيده عافته نفسه والتوت عليه، فأطلقه ليعود إلى العبث به والعطف عليه ! وليسكن فى فرنسا عكس ذلك فهو يريد أن يفرغ من ذلك العناء — ليعود بعد ذلك حزينا أسفا على ما أنفق من وقت وجهد وعناء .

لقد تحدثت عن نفسى وأطالت الحديث ولأعود إلى فرنسا وما يعجبنى وما لا يعجبنى فيها . وليس فى فرنسا عطف كبير على المصريين وإنما هناك إزورار كبير عن المصريين يزيد كثيرا عن نظيره فى بلاد الإنجليز . ولعل ألمانيا وأسبانيا هما الدولتين الوحيدتين فى أوربا اللتين تلمس فىهما الود الصادق الذى يحمله الصديق للصديق .

وتعجبنى فى فرنسا المرأة الريفية ولعل لورأيت الريفية الإيطالية أو الريفية الألمانية لا تعجبتنى كذلك . وأنا بذلك معجب بالريفية أيا كان بلدها . وإعجابى بالريفية لا يحد — إعجابى بهذه البساطة التى تتميزها فى كل ألوان حياتها فى دهاوسمتها وحديثها . فكأنها تمثل هذه

الطبيعة البسيطة الحلوة التي ترعرت فيها أصدق تمثيل .

وما لا يعجبني في فرنسا فهو هذه المواكب البائسة من الجزائريين
والمراكشيين وقد عبث بهم الفقر عبثاً شديداً ، وعبثوهم بفرنسا
عبثاً شديداً كذلك ، فقد احضرهم الفرنسيون ليعملوا في البناء
والتعمير في المدن الفرنسية المخربة وما أكثر المساحات الشاسعة
التي مسحت مسحا ونسفت نسفاً حتى لتبدوا مساحات بيضاء في
خرائطهم الإقليمية .

أحضر الفرنسيون هؤلاء — وربما حضر الكثيرون من تلقاء
أنفسهم سماع وراء الرزق من بلادهم التي استنزفها الإستعمار ، ثم لم
يجد هؤلاء وأولئك إنشاء ولا تعميراً وأضيفوا إلى الفرنسيين
العاطلين حتى أصبح في مدينة الهافر وحدها ١٠ آلاف من هؤلاء
العمال العاطلين انصرف بعضهم إلى الجريمة يقطعون الطريق ويشربون
الرعب في قلوب الفرنسيين — لقد نسيتهم فرنسا وأهملتهم إهمالاً ،
ونبذتهم المجتمع المتكلف يتقحمهم في ضوء النهار بالشهانة والسخرية
حتى إذا أقبل الليل تحولت النظرات التي كانت تشمت وتهزأ إلى
نظرات تخاف وتشفق — يتناولون عليهم بنظرات وقحة كالسياط
إذا كان النهار — حتى إذا أقبل الليل انحسرت هذه النظرات .
وتجنبت أن تقع على هؤلاء المردة بعد أن كانوا بالنهار صعاليك

وهؤلاء الصعاليك بالنهار المردة بالليل هم الجزائريون والمراكشيون الذين ثارت حفيظتهم على فرنسا كما لم تثرأي حفيظه قط — ولو طالت أيديهم الأسلحة المنظمة وسيطرت عليهم إدارة منظمة لأمكن أن نجد في بلادهم التي أوجدت لها نيبال والتي زحف منها الأبطال المسلمون يفتحون أسبانيا وجنوب فرنسا . لو طالت أيدي هؤلاء طرفا من السلاح المنظم الذي تعرفه أوربا بدلا من المدى لأمكن أن ترعب في فرنسا حكومتها وجيشها، لاشعبها وبوليسها كما ترعب من الثوار في الهند الصينية. وإن يومالآت — يتقلص فيه ظل الإستعمار البغيض عن قارتنا المعذبة كما هو آخذ في التقلص تحت ثقل الضربات التي تنال عليه من الآسيويين.

إننا نعجب ونرتجى لهؤلاء الغرباء في محاولتهم الفاشلة للازعاج في فرنسا — ولستنا نعجب بكل الجزائريين المقيمين في بلادهم — وقد كنا نرى فيلما سينمائيا يعرض علينا صورا من عاصمة الجزائر صورا لمؤكب كالقطيع أو لقطيع كالمؤكب — في حلقة من حلقات الذكر يسرون بين صفين من الفرنسيين الرسميين ، يحتفون بهم أو يحتفون بشيء لست أدريه يهزون الرؤس مترنحين تحت عمائمهم الثقيلة متخذة وجوههم السود التي زادها الذل سوادا . والذل الذي يسمون إليه بدلا من أن يسعى إليهم كنا ننظر إلى هؤلاء الآدميين

وقد أخذتهم الجلالة - وأى جلالة فى أن لا يعبد الله فى الطريق وأن لا يعبد بغير هذا الضجيج والعجيج كنا ننظر ونستخذى - ننظر إلى الرواد... الذين يحيطون بس ذلك الجمهور السارق وإن عظم حظه من العلم والمعرفة - ثم ننظر إلى ذلك الجمهور المسروق وليس له مثل ذلك الحظ من العلم والمعرفة. وليس كلهم ثائرين حاقدين بل إن معظمهم خائعين راضين وفى هذا فقط ما يكفى لتحطيمهم بالإضافة إلى ما هم فيه من جهل وتأخير والخطوة الطبيعية. أن يقفز الممتازون من هؤلاء الناس ببلادهم فى ظل عدة أعوام من السلم يهيئون أنفسهم لليوم الذى يحاربون فيه حربا ضروس متكافئة النواحي مأمونه العاقبة. فى هذه الأعوام ينهضون على أكتافهم معتمدين على أموالهم وليس على أموال الإحتلال ، وعلى أنفسهم وليس على سلطات الإحتلال ، ناهضين بالتربية والتعليم والصحة ومستوى الحياة ، حتى إذا وصلوا إلى القمة فى ذلك كان الاستعمار كالدمل الذى يطرده الجسد السليم أو المرض الذى ليس له سبيل إلا على الأجساد الشاحبة الهزيلة .

وهم إن وصلوا إلى بعض من ذلك التقدم هيأهم ذلك للعراك والنضال والصمود، أطول وقت ممكن للعراك والنضال، بدلا من أن يحاربوا بعواطفهم إذا صح هذا التعبير ، ولست أعرف حربا

أشد خيالاً من حرب تقودها العاطفة وما أسرع ما تخمد العاطفة
ويصيدها الكلال ولخير منها حرب عاقلة مبصرة وليست العاطفة
عاقلة مبصرة في قليل أو كثير .

جلاسجو

كانت هذه أول مرة أشهد فيها مدينة أسكتلندية وقد ذهبت
أبحث عن طرف فقير من أطراف المدينة حتى إذا عدت إلى هذه
الأطراف الجميلة الرائعة التي نقصر عليها وقتنا دائماً ونسكتفي بها
عنواناً للمدينة التي نريد الحديث عنها — حتى إذا رأيت هذه الأطراف
الفقيرة وعدت إلى هذه الأطراف الفخمة الجميلة — أكون قد
رأيت المدينة من جميع أطرافها ، سأجد في أحياء الفقراء الذين
لا تخلو منهم مدينة من المدن أو بلداً من البلاد ، سأجد في هذه
متاعاً ولذة لا تقل عن المتاع واللذة في هذه الأحياء المتأنقة .
فالجمال الذي نبحث عنه ونعجب به موجود هنا كما هو موجود
هناك ولعله في هذه الأحياء الفقيرة أروع منه في الأحياء التي يعظم
حظها من التكليف والآفة .

وفي سوق كبير تشبه سوق عكاظ ، أقيمت على بضعة أعواد
سطحت عليها قطع من الصفيح لتكون سقفاً وبين كل عمود وآخر
أقيم دكاناً . ومن إحدى هذه الدكاكين تنطلق موسيقى ضخمة قوية

ترتج منها الدكاكين والأعواد . وبين الممرات الضيقة المزدحمة —
النساء والعذارى يشترون الهدايا الرخيصة والمتاع الرخيص . في
ذلك الزحام الكثيف حتى أن الوجوه لتكاد أن تلتصق مادامت
الاجساد تلتصق — في ذلك لزحام الكثيف ترى الوجوه أو
الشموس المشرقة التي لن نستطيع أن نراها بمثل هذا القرب في
مكان آخر . وكأن كل حسناء تحمل في وجهها شمساً صافية الأديم
وأنا بين هذه الشموس التي تأخذني من كل جانب وتشرق من كل
ناحية وتبتسم في كل مكان . وكأنى بالحسناء عندما تبتسم وتنفرج
شفاتها القمر من يتين عن ثناياها الناصعة البيض ولا يتخذ وجهها من
هذا الابتسام بل تسيل عليه من نفسها المرحاة الطروب رقة وحناناً ،
وترينا عيناها — والعين نافذة كما يقولون — ترينا عيناها لو نامن
هذه الألوان العديدة التي تحفظها الحسناء في نفسها كما يحفظ البخيل
كنزه . كأنى بالحسناء عندما تبتسم وتكشف عيناها عن هذه
الكنوز ، كالشمس عندما تفجأ بإشراقها الدرة الثمينة الغالية
الركن المعتم المظلم .

وليس يعينني أن أرى التجار وما يتجرون فيه أو هؤلاء السود
الذين يبيعون العطور في صخب وضجيج ، والبيض الذين لا يقلون
عنهم صخباً وضجيجاً مرغين فيما لديهم من سقط المتاع . ليس يعينني

شيئا من هؤلاء وإنما تعينى السوق التى أقيمت للجمال ، الجمال الذى لا نستطيع أن نشترى منه شيئا غير الاعجاب والرضا إذا صح أن يباع ويشترى الاعجاب والرضا . وما يدرينى إذا كان غيرى من المقيمين يبحث كما أبحث ، لآعن متاع يشترى ولكن عن الجمال الفذ الذى لا يباع ولا يشترى . وسأختم هذه الجولة القصيرة فى حى فقير ولكنه غنى بما فيه من جمال وذوق ، سأختم هذه الجولة لألج متحفنا من المتاحف ثم آخذ فى حديثى عن الفن والتاريخ .

وليس الفن الانجليزى شيئا نقيسه بالفن الايطالى أو الإسباني ، ولم يعجبني فى هذه المتحف غير لوحة واحدة ، أما غير ذلك فهى من رسم المدرسة الايطالية أو الفرنسية ، وقد خصص اكل منها طابق كبير . وقد إختار الرسام الانجليزى موضوعا فريدا وهو الشعر والحب والجمال ، وفيه تخيل الجمال صبية عارية تجرى وقد إنكسر القوس فى يدها فأصبح لا يعنى عن شيء ولا يدفع مكروهه ؛ والشعر صياد يجد وراءها وقد أصمها سهم لا يدرى من أين ، أمن ذلك القوس المحطم أم من ذلك القضاء الذى تخيله طفلا يسبح فى السماء بجناحين وفى يده وتر مشدود وخلف ظهره جمعبه من السهام . وعلى الأرض الخضراء عجوز شيع أمال جذعه على قيثارته فهو يرسل إلى الأرض العزاء كما ترسل السماء القضاء . والشاعر الصياد

أو الصياد الشاعر بين العزاء والقضاء يحد في غير هوادة ولا رفيق .

أم المدرسة الإيطالية فقد إختارت مصرع كليوباتره وكليوباتره
حسنا عارية تقبضت إحدى يديها على صدرها وبسطت الأخرى في
الهواء كأنها تداعبه ، ولسان الحية الذرى قد إختارت من الجسد أجمله
لترسله إلى الموت .

والتف ذيلها الدقيق المرقش كما يلتف السوار على المعصم .
وفانته التاريخ عارية أو شبه عارية بين وشاحها الأزرق وستارها
القرمزية وجسدها الملتهب المضى بالدماء الفوارة . وأختارت
المدرسة الفرنسية قصة طرد دم آمن الجنة وإن لم تكن رائعة التفاصيل

وأجمل ما في ذلك المتحف — متحف للتاريخ الطبيعي — نخلف
الزجاج مسرحا من مسارح الطبيعة الصامتة ، يسهولها وجهها وأنهارها
والغزلان والوعول ترعى الأرض المعشبة ، وتخطف النظر إلى السماء
وتتأهب للصراع والنضال بين ذلك ، والأرانب الجبلية في وثباتها
الآخيرة إلى جحورها مروعة مفرعة ، ولا عجب في ذلك ففي السماء
عقاب قد ملكه الجو وتقبضت مخالبها على أرنب ذليلة مسكينة .

ومثل ذلك عن الوحوش في مساوحها والطيور في وكناتها ،
والقنابر بين فراخها ويضها وحوها الأعشاب والصخور أو الأعشاب
التي تفتت بين الصخور ، ووحوش البحر على شطآنها وخليجانها ، كل

يروى قصة حياته الذاهبة وكأنها لم تذهب بعد . وكل هذه الحيوان والطير مخنطة وكأنما أدركها الموت وهي تؤدي ما تؤدي من أدوار طبيعية .

وكم كان المي شديد أن أرى بجانب ذلك الموميات المصرية المسروقة لقدماء المصريين وكان أولى أن تحفظ في أوطانها . فمن حق الأجداد أن تحفظ جثثهم التي استطاعت أن تقاوم البلى آلاف السنين وأياكمها لم تستطع أن تقاوم السرقة . هذه هي حضارة الأجداد التي تصرم حبلمها وتلاشت بعدان وصلت إلى قمتها . فطيرتها العصور كما طمرت الرياح السافيات آثارهم في الرمال . وعاد الأحفاد بعد ذلك يبدأون من جديد وليس تمت الشمس جديد وما أعجب المتحف الذي يحفظ لنا كل ذلك فهو مدرسة للتاريخ بكل فروعه وفنونه وهو في رأي كالمسرح ، وإن كان المسرح مدرسة للحياة الحاضرة فكلاهما مدرسة لا بد منها ولا يستغنى عنها أحدا . فحضارة الأمس ممثلة في المتحف أصدق تمثيل وحضارة اليوم ليس غير المسرح يستطيع تمثيلها .

وقد انفقت في مسرح جلاسجو ساعة جميلة مع الممثلين الكبارين لوريل وهاردي .

وما كنت أظن أن أراهم رأى العين على خشبة المسرح وقد فتنت بهم أو فتنت بأطيانهم من قبل على الشاشة .

فهذين الفيلسوفين يمثلان صورة واحدة أو فلسفة واحدة يكاد أحدهما أن يكمل الآخر لا يناقضه في شيء، ورأيهما أن يعبثا بالقدر كما يعبث بهما القدر . فهم يمثلون الرضا بالواقع والتسليم بما كان لا يتكلفون يقظة أو إحتراسا ولو أحاط مايسوء ، كالغريق الذي يسلم نفسه للموج وكأأنما كان يعنيه بن زيدون وهو يقول .

ولقد ينجيك إغفال . . ويردك إحتراس وفي هذا المسرح رأيت
الاسكتلنديين كيف يلهون ، وكيف يخرجون من جد الحياة إلى
المرح الذي لا بد منه . وكان أحدهم في ملابس الفرسان يروض
الحصان ليزر رأسه أمام الجمهور محييا وأمام صاحبه متسائلا مستفهما
كانه يسأله — ما رأيك — . فهو يمرض عن صاحبه إعراض
الصديق إذا ساءه الصديق بشيء ، ويتودد إليه ويهدى التبيلات —
ويكاد يشب في السماء فرحاً مرحاً حتى ليخيل إلينا أنه سيفتك بصاحبه
في وثبة من الوثبات — إذا سره صاحبه بشيء . وكنت أذكر
قول عنتره :

فازور من وقع القنا بلباسه

وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاربة اشتكى . . وإمكان لو علم الكلام مكلمى
والكن حصان اليوم غير حصان عنتره فهو يدري ما المحاربة

ويعرف كيف يشكو ويألم ويسر ، ويعبر كاحسن ما يكون التعبير
عن الشكوى والألم والسرور . ثم يقبل فتى فى ملابس العشاق فهو
فارس من فرسان الليل يروق أحلام العذارى ليس معه قوس
ولما يصحبه كلب أنيق رشيق — أو ليس صاحبه أنيق رشيق —
ثم فتاة كأنها حورية هبطت من السماء فى ثوب أبيض وما أجمل
البيضاء فى الثوب الأبيض وفى صحبتها كابة أنيقه ، حتى إذا خاصر
الفتى طيبته الأنيقه الرشيقه ، إرتفع المكلب على خلفيته وخاصر
رفيقته كذلك الأنيقه الرشيقه .

وتقدم فنان آخر يصور بفمه وحنجرته كيف تسير العربى فى
طريق السفر ، يقلد بصغيره كيف تصطفق الأبواب وترتفع كلمات
السائق التى يتبادلها مع أصوات الركاب الناعمة والغايضة والممتلئة ،
والتي ليس لها حظ إمتلاء .

أصوات الشبان والشابات والعجائز . والأطفال عندما يتبادلون
الحديث بينهم وبين السائق من جهة وبينهم وبين أنفسهم من جهة
أخرى يقطع ذلك هزيم العربى — ضعيفا متقطعا — ثم طويلا
مستمر لا ينقطع إلا لىسترد أنفاسه حتى تقف العربى مرة أخرى
وتصطفق الأبواب من جديد . كل ذلك بفمه حتى يخيّل إلينا أن
عربى تسير — أو عربى تسير بنا ، ثم يفعل مثل ذلك ، مع القطار

فى سفره الطويل الشاق، حتى يتسلط علينا ذلك الشعور الذى يشعره كل منا عندما يستقل قطار ، ويبذل من الجهد ما يبذل لبدأ السفر .

ثم ينتقل إلى خطرات الحصان الأنيقه المتتابعة حتى يرسم إلينا بحنجرتة — هذه الصورة الجميلة فى الريف والمدينة ، هذه الصورة التى يجهد الكاتب نفسه ليحدثها بالكلمات ولا يبلغ مثل ما يبلغ هذا الفنان بالحنجرة والصوت . هذه جلاسجوى عندما تجدد — وعندما تهزل ، وأشهد أنها أعجبتنى فى الجدد والهزل ؛ وليس هناك وجه للمقارنة بين جلاسجوى وليفربول فالفرق بعيد واضح بين الشمال والجنوب . فإذا كنا نعجب بالشمال دائما فى أى بلد من البلاد، فتمعجبنا تريستا فى شمال إيطاليا عن جنوا فى جنوبها وتروى و قناروان والهافر فى شمال فرنسا عن مرسيليا فى جنوبها، إذا كنا نعجب بالشمال دائما فى أى بلد وبأهل الشمال ليس فى الحضارة والمدنية فقط بل فى الطباع والأخلاق كذلك ، إذا كنا نعجب بالشمال فإن اسكتلنده هى هذا الشمال فى بلاد الانجليز وجلاسجوى هى المدينة المأدبة الحاملة التى أريد أن أقصر عليها الحديث . فأنا لم أر عربية الترام كما رأيتها فى جلاسجوى صالون مذهب السقف موسى كما نذهب السقوف وتوشى فى دور السيدات والمتاحف ، والمقاعد الوثيرة كهذه التى تعد لاستقبال الزوار فى بيوت المترفين من الناس ، والثريات التى حجبها ولم يحجب ضوءها ، فكان النهار لم يرتحل أو كأنهم يشفقون على أبصار الناس

ليس من الضوء ولكن من مصدره ، فهم يقدمون الحضارة أو على
الأصح يحاولون تقديمها مصفاة ، خالية من المشقة كالكأس خالية
من الشوائب .

ولكن الحياة لا تخلو من المشقة في مدينة مهما كانت حضارتها
ولن تخلو عما يخزى كذلك — في مدينة مهما كانت مثاليته .

ولعل من صور هذه المشقة الصفوف الطويلة من المنتظرين على
أبواب السينما ، وهى نفسها التى تقف على أبواب الحمامات فى ليفربول
هذه الصفوف التى تزدوج مرة أو مرتين وتمر على جدران الدار
الخارجية — حتى يسير المسافر فى الطريق بين هذه الصفوف من
المنتظرين . وأغلب الظن أن هؤلاء المنتظرين سيرون على الشاشة
قصة حياة سهلة ناعمة أطلقها خيال مؤلف هادى . ناعم ، لن تعرض
مهما كانت صراحتها لهذه المخزيات وما أكثرها التى يتعرض لها
النظارة أنفسهم فى غالب الأحيان . وقد لا يجد غيرى غضاضة أو
خزيا فى أن يقف على باب سينما أو حانة أما أنا فأجد غضاضة كبيرة
وأجد خزيا كبيرا كذلك ، فإذا كنت أريد أن أختلس اللذة إختلاسا
— ليس خوفا من إنسان — وإنما لأشارك البعض الذين يرون أنه
لن تصبح اللذة لذة بغير إعلانها .

إذا كنت أريد أن أختلس اللذة لا يرانى أحد ولا يشعر بى
إنسان ، فأولى بى أن أخطف الطريق إليها خطفا . فليس الناس فى

الطريق هازلين ، بل منهم الجاد والهازل ، والفرح والحزين ، أما
في الحان فلا أستحي أن يراني الناس داخلها — وليس على بابها
فهي كالحمام لا يعنيني أن أكون عاريا ما دام كل رواده عراه .

وسأنتقل من الحانه والسينما إلى دار من دور الإيرلنديين الذين
يكادون أن يكونوا جماعة منفصلة ، تحيا حياة منفصلة في كل بلد
من بلاد الإنجليز ، فهم يأخذون في هذه الحياة المشتركة وجه النهار
حتى إذا أقبل الليل خلوا إلى أنفسهم في أحد هذه النوادي الخاصة
يرقصون ويتسامرون .

كنت أنأمل داخل كنيسة كاثوليكية قديمة ، وكان المصلون
في صلاتهم ، وظى أن تكون خالية ، فلم أر بدا من أن أتمم ببعض
كلمات ، قد تكون قرآنا وقد تكون شيئا آخر ، ولم أر بدا من
أن أغمس يدي في هذا الماء المقدس الذي يمسح بأياهم الداخلون
والخارجون . لم يكن يعنيني أن أرى المصلين في ركوعهم عند
الدخول والخروج وتتمتهم القصيرة المستمرة بين ذلك . وإنما كان
يعنيني أن أقضى ساعة مع الرسوم والآثار ، وأنا أذكر قول
أبي نواس :

عاج الشقي على رسم رسائله هـ وعجت أسأل عن خمارة البلد
ولست شقيا عندما تعجبنى الأطلال والرسوم لأجد فيها أخبار
الحياة الماضية كما تعجبنى خمارة البلد هذه لأجد فيها صور الحياة

الحاضرة عارية كما أراد الله لها أن تكون ، فليس إعجابي مقصورا على إحداهما وإنما أنا معجب بكلهما ، أبدأ بأحدهما ثم أنتنى إلى الأخرى ، حتى إذا أخذت من كليهما بطرف فأنا سعيد .

لقد بعدت كثيرا عن دار الإيرلنديين وكنت أريد أن أقول أن صديقا إيرلنديا دعاني لزيارة هذا النادي ، وسأضرب صفحا عن جمال الإيرلنديات وطلاقة وجوههم وجمال طبيعتهم ، وسأعرض عن جمال العازفه وقد ظللها العلم الإيرلندى المثلث الألوان وكادت أن تحجبها صور ديفاليرا الذى يتعشقه الإيرلنديون ، وسأضرب صفحا عن جمال هذه وتلك وسأتحدث عما أعجبنى فيهم — وقد أعجبنى منهم الكثير وأعجبتنى هذه الرقصة الإيرلندية الوطنية ويشترك فيها شباب وفتاتين أو أكثر من ذلك . يقفون صفوفامتقابلة ، يقابل كل فتاة فتى ، ثم تعزف الموسيقى وتشتبك هذه الصفوف ثم تفرق جماعات ، وبين الإفتراق والتجمع ترسم الأقدام الرشيقه مع أنغام الموسيقى دقات منسجمة متتابعة ، وقد وضعت كل عروس يدا فى خاصرتها وأسلمت الأخرى لرفيقها يدور بها ثم يرسلها .

ليت شعرى متى أرى فى مصر رقصة وطنية يرقصها الشبان والفتيات كهذه الرقصة المهدبة — وأقول المهدبة لأنى لم أر شابا يخاصر فتاة . وقد يزعم قولى هذا الشيوخ — ولكنى أزعم أنهم لو رأوا مثل ما رأيت لأعجبوا كما أعجبت ليت شعرى متى أرى

الفتى والفتاة فى مصر مشتركين فى المسجد وخارج المسجد كما أراهم
هنا مشتركين فى الكنيسة وما فى خارج الكنيسة من هذه المجتمعات
السليمة المهذبة. ولست أدعى أن كل هذه المجتمعات التى فى الخارج
سليمة مهذبة ، لا لست أريد أن أقول ذلك ، بل أن ما فيها من
المجتمعات المنحلة ايزيد كثيرا عما فيها من المجتمعات السليمة المهذبة ،
ولكن إختلاط الفتى والفتاة شىء واقع يحدث حتما راضين أو
كارهين ، وما يحدث بينهما فى جماعة عامة أخف كثيرا مما يحدث
بينهما منفردين .

ليفربول

ماذا أجد فى ليفربول غير الحانة وماذا أجد فى الحانة
غير الرقيق ، وليس الرقيق فى أوربا وإنجلترا كذلك الرقيق الذى
يروى عن عصر هارون الرشيد ، وقد كان الرقيق فى عصر هارون
الرشيد شاعرا أو مشاركا فى الشعر والنثر والأدب كما يقولون . وأنا
لم أر الكوفة أو بغداد حتى الآن ، وما أشد شوقى لأرى هذه
البلاد ، وأرى ما فيها من الرقيق وغير الرقيق .

ولكن الرقيق الذى أراه الآن أكثر جهلا وأنجى غباءا مما
يروى عن ذلك .

ويشهد الله أننى ضقت بهذا اللون من المرأة ، أليس لأنى لا أجد

عندها الصداقة الجزلة السمحة الشريفة التي نجدها في الفتاة المحصنة الشريفة فحسب — وكيف نجد صداقة شريفة أو لذة شريفة عند هؤلاء وفائد الشيء لا يعطيه — ليس ضيقى لذلك فقط وإنما ضيقى الشديد — لأننى ضحيتها وليست هى ضحيتى فى شيء، ولأنها جنت على ولست أنا الذى أجنى عليها — ولأنها تعبت بى ويخيل إلى أننى أعبت بها — فأنا أحمل لمن السخريه والإزدراء والبغض الشديد — ولاكنى أنساهم لبضع لحظات — حتى لا تنغص على هذه اللحظات ما أريد من لذة، لأعود بعد ذلك مزدريا ساخرا مبغضا للرقيق وتجار الرقيق ماذا أقول. الحق لا أرى لنفسى أن أسخر من مصائب الآخرين ويحسن أن أرثى هؤلاء الرقيق وأكتم ، فى نفسى الألم الشديد لهذا المصير الذى تباع فيه المرأة وتشترى ، وليكن ذلك الألم قويا ملحا لمن ترثى لنفسها فمنهن من تعيش حيوانه، ومنهن من تعيش بأئسة ، والفرق بين الحالين كبير ، فالحيوانه لا تشعر بشيء ولا تحس بشيء فهى راضية دائما ، مغتبطة دائما ، أما زميلتها الأخرى فهى إنسانة تشعر وتحس ، ولولا شعورها وإحساسها لما كانت بأئسة ولما أمكنها أن تشعر بما هى فيه من بؤس .

ويخطئ من يظن أن هذا الرقيق أجبرته الظروف على أن يكون رقيقا — وإذا حدث ذلك فإنه أقل من القليل ، وإنما يحدث أن هذا الرقيق أراد أن يكون رقيقا ، واتخذ ذلك غاية يسعى إليها

ويلج فيها — كالخادم ليست كل خادما أجرتها الظروف على أن تكون خادما ، وإنما الكثيرة أرادت أن تكون خدما ، واتخذوا ذلك غاية يسعون إليها ويطلبون تحقيقها ، حتى لقد يفخر أحد هؤلاء الخدم ، كيف استطاع أن يخدم كراما وكذا مدعوا ، كما يفخر رجل الأعمال بما قام وبما يقوم به من جميل الأعمال .

وسواء أرادت أن تكون رقيقة أو أجرتها الظروف على ذلك فإن هذه تروقي ، ولا نستطيع إحداهما أن نخدعني عن نفسها وماذا يعينها بخداعي وإنما هي على سجينها سواء . راقني ذلك أم لم يروقي . ولكن تروقي هذه الإنسانية التي تشع ويضفي عليها ذلك الشعور شيئا من الجمال الهادي الحزين .

وسواء كانت هذه أم تلك فأنا مع هؤلاء الرقيق أقضي هذا الطور من حياتي في الخارج ولست أقول أنني لا أدري في أي طور أنا من الأطوار — ولكنني أدري أنني في هذا الطور وأن كنت لا أدري هل ارتقيت بذلك أم انحططت . ارتقيت في أطوار الحب الحسي ما في ذلك شك ، وانحططت عن مثلي الأعلى الذي كنت ألمسه وأحسه في العذراء الطاهرة الشريفة .

وأصبحت لا أرى إلا في غرفتي بالسفينة عاكفا على الكتابة أو القراءة ، ثم خارج السفينة في حانة من الحانات مع فتاة من هؤلاء أنفرد بعيدا عن أعين الناس أحسو هذه اللذة الأئمة حسوا هادئارقيما إذا صح هذا التعبير .

وفي هذه الحانة أو تلك أجد الموسيقى أو الضجيج والعجيب الذي يطلقون عليه هذا الاسم ، يقطعها رنين الكؤوس وقرع الزجاجات وزحير الأنفاس المحمومة التي يتبادلها الروادويدعوننا الشراب ، أخف أنواع الشراب — إلى أن نعجب بهذه الضوضاء المؤتلفة من الرنين والزحير والقرقعة ، ثم نجد ، ذلك الضجيج قد أصبح موسيقى رائعة مبدعة ، تنعقد فوق رموسنا كما تنعقد سحاب التدخين ونجد المرأة التي تدعونا إلى التخميش والتخميش — ثم يعجبنا هذا الظل بعد أن يخلع عليه الغناء كما تخلع هي على الغناء وكما يخلع الشراب عليها جميعا نجد ذلك الظل من المرأة جميلة ليس بعد جمالها جمال وظيفته ليس بعد ظرفها ظرف . ننظر إلى هذا الأفعوان الذي ينادمنا بعين نصف حاملة ، فإذا بها جميلة فائنة تستهوى الحس والشعور والأعضاء . ولست أدعى أن هذا الرقيق لا يوجد في غير دور الإثم التي يبيحها القانون في بعض البلاد ، ولكنني أدعى أن الرقيق خارج هذه الدور كما هو داخلها حتى كدت أن أقول أن نساء بعض هذه الدول يمكن أن يكن رقيقا .

ونحن نرتاد هذه الدور في بعض الأحيان ونأنف عنها في كثير من الأحيان ، إذن نحن واجدون خارجها نساء كثيرات يطلق عليهن القانون اسم الشريقات — ثم لا نجد فيهن شيئا من ذلك اللقب المزعوم وقد يزعم هذا القول السادة الأوربيون والانجليز الذين

ينظرون إلينا من سماواتهم العالية التي لا يرقى إليها الطرف ومن ملكوتهم الذي لا يرقى إليه النقد واللوم .

هذه ليفربول وماذا أجد في ليفربول غير الحانة وماذا أجد في الحانة غير الرقيق — وماذا أجد في هذه المرة أكثر مما وجدت في المرة السابقة ، وعسى أن تكون المرة القادمة خير من هذه فقد اختيرت لي فتاة ، وظنى حسن بهذه الفتاة ، والتي اختارتها لي هي فتاة ويلز التي عرفتني في رحاىي الماضية وقد أصبحت الآن فتاة لندن بعد أن انتقلت إليها ، ولكن لم توفقني الظروف إلى زيارة لندن وكأنها أشفقت على أن أكون وحيداً في ليفربول ، فأرسلت لي عنوان صديقتها وألحت علي في أن اتصل بها وأنفق وقتي معها . وكان ذلك — وإن كان لم يروقني هذا الوجه الذي اختير لي وأى شيء يروق لو نظرنا إليه نظرة عابرة ؟ وقد يروقني إذا اتصلت بي وبينه الأسباب ، وقد أفتن به افتنانا إذا قويت هذه الأسباب وسأدع جيان في بيت الممرضات إلى عود قريب وإقامة أكثر طويلاً .

جنوا

عادت الباخرة تلج البحر الأبيض المتوسط وأشهد أنني أشعر ببعض الحزن وقد أخطأتني زيارة لندن وزيارة أدنبره عاصمة اسكتلندة التي لم يكن يفصلني عنها في جلاسجو غير ساعة زمنية واحدة أشهد أنني شعرت بالضيق — وبالصيق الشديد لأنني لم أوفق

لزبارة هاتين المدينتين وحالت بينى وبين ذلك سرعة الترحال وعسى
أن يسكون لهاتين المدينتين عدد آخر، وعسى أن يكون عدد قريب
ولأعرد مع البـاخرة وأجمع نفسى المفرقة فى جلا سجو
وليفربول ، ولأجمع عواطفى المبددة بين فتيات هاتين المدينتين
لأفنى فى هذه الطبيعة السمحة اليسيرة ، وقد ارتفعت الما و متر
درجات فوق الصفر بعد أن كانت تنخفض عنه ، وهب النسيم البارد
محمل بالآخبار والأسرار — لو كان يستطيع أن يحكى لحكى —
لو كان يستطيع أن يروى لروى ما نحن مشوقون إليه من
الآخبار والأسرار .

هب النسيم البارد فى مهمة يسيرة لعلها لغة تحمل ما يسر
وما يسوء ولا نجد لفهمها سبيلا . وبدأ الماء يسلس قياده وتلين قناته
الصلبة ويبسط أديمه الممهد للسفن تخطر عليه فى أمن وسلام ودعة
وتفرق الغمام تتفا ، وبرزت الشمس وقد كان عهدنا بها بعيدا لتلطف
من ذلك النسيم البارد ولتذوب فى هذا الأديم الصافى الممهد —
والتمعت السماء وابتض سطح الماء وصفا ما بينهما فى حظ كبير من
النصوع والإشراق ، وانطلقت الطيور البيض جذله محبوره تشارك
السماء والماء فى الحذل والحبور .

ونحن الآن على شاطئ جنوا القريب ولى صديقة فى جنوا
أحاول نسيانها فلا أجد لذلك النسيان سبيلا ، وأخذ نفسى بضروب

من الشدة والعنف لأقتلع ذكرها إقتلاعاً وأححو آثارها من نفسى
محواً ، فأوفق لذلك مرة حتى يخيل إلى أننى نجحت فى كل ما أردت
ثم لا يعرض ذكرها ، أو لا يعرض شاطئها — إذا مر شاطئها —
حتى تتلف نفسى وتتفرق منى بدداً كما يتفرق العقد المنتظم وتتفرق
حياته ولا نجد لجمعها سبيلاً .

وهذه الصديقة هى دوتى سيلفانا ودوتى هو اسم والدها ،
فالإيطالية الفتاة تقدم اسم أبيها دواما .

لطف نفسى على هذه الأيام الحلوة على شاطئى تريستا —
وما كانت تحمل دن عاطفة شريفة عند ما كنت أحب حباً عذرياً
عفيفاً يسر يوماً ويسوء أياماً — يضحكنى يوماً ويبكىنى فى أغلب
الأيام . لن تعود هذه الأيام وقد تطورت نفسى تطوراً خبيثاً ،
وأصبحت أهوى كاشفات الصدور والحضور من الغوانى بعد أن
كانت تفتننى العذارى . لطف نفسى على سيلفانا وقد دخل بينى وبينها
العدو والصديق — وقد سمعت فيها قول العدو والصديق — وليس
يدخل هذا ولا ذلك فى أمر إلا أفسده أو شمل إلا بدده .

لطف نفسى على الأيام التى مرت هل تعود . ليتنى كنت وإياها
فى بلد نام بعيد كهذه البلاد التى ليس لها شاطئ . والتى لا تطل على
بحر ما حيث أدع الباخرة بمسافرها ومن فيها الأسوح بعيداً منفرداً ،
ليتنى كنت وجدتها فى أحد هذه البلاد بعيداً عن العدو والصديق
متجنباً المتاعب التى يثيرها العدو والصديق .

لهف نفسي على سيلفانا وعلى ذلك الحب ليس العنيف الذي
ياخذ على كل سبيل وإنما هو ذلك الحب الهادي السكّان الذي
أحمله وكأني لا أحمل شيئا — فهو منزوي ركن من الأركان يخذعني
عن نفسي فأصدق أنني نبذته نبذاً ، وألقيته إلقاء ، وتخلصت منه
إلى غير عود . ولكن يظهر لي من جديد عند فـكـره أو لفته أو
لمحة عابرة ، فتتهار نفسي كلها أمام ذلك الحب العملاق وما كنت
أظنه إلا قزما — تنهار نفسي كلها إذا تذكرتها وهي تلقى إلى جملة
أو حديثاً أو تهدي إلى ابتساماً أو إعراضاً ، فإذا أنا محب لم أستطع
أن أخلص من ذلك الحب ولست أدري أين قرأت أنه ينذر أن
يتفق شخص ما على شيء معين بغير أن يشعر بشيء من التردد والحيرة
فيما يأخذ وفيما يدع من الأمور فكأنه يوافق ببعض نفسه ويرفض
ببعض من نفسه أيضاً . أو أن له نفوساً متعددة متداخلة وليست
له نفساً واحدة خالصة ، فهو يبذل بعض الجهد أو الكثير من الجهد
ليجمع بين نفوسه المتداخلة ويوفق بينها توفيقاً مقارباً ليووجهها
الوجهة التي يريد .

إذا كان هذا صحيحاً وأغلب الظن أنه صحيح فقد كنت أحب
من عام مضى بنفسى كلها ، أو أن نفوسى المتعددة المتداخلة قد
أجمعت على أن تفتن بها وتدور حولها تطلبها وتلح في طلبها —
تجد النعيم في قربها والعذاب الذي ليس بعده عذاب في البعد عنها .

كأن نفوسى هذه المتعددة قد ائتلفت على حبها حتى إذا أصابت من ذلك الحب بعض النجاح ولقيت من الذى تحب بعض التجاوب أخذ يستبد بها الفلق الضئيل القليل عندما يصيبها فى الحب بعض ما تذكره فتتلمس لها المعازير وتخلق لها التعللات والأسباب ، وكأن نفسى تريد أن تحوط هذا الحب من التلف وتحميه من الفناء وتشفق على مصيره إذا كان مصيره الفناء .

لقد اخترت أن أحب هذه الفتاة ولا أقول أن الظروف هى التى اختارت لى ذلك ، لقد إخترتها فى يوم ما — إخترتها عامدا من بين فتيات كثيرات ، وكنت أشفق على نفسى ألا أكون موفقا فى هذا الاختيار .

واليوم بعد عام كامل من مولد ذلك الحب الذى لم يمت بعد — أرى أننى لم أوفق فى الاختيار وأجد هذه النفوس قد تفرقت بعد تجمع واختلقت بعد إئتلاف فكأنى أريدها بشق نفسى وأرفضها بشق آخر — أذكرها ببعض من نفسى وأحاول نسيانها ببعض الآخر ومعنى ذلك أننى أحبها وأبغضها — أريدها وأنفر منها — أرئى لها وأحقد عليها ، أود أن أعنفها أعنف اللوم وأود أن أخلق لها الأعذار والتعللات وأصفح عنها الصفح الجميل . إننى أشعر الآن بكل المشاعر المتناقضة المؤتلفة برغم ما فيها من تناقض حتى ليخيل إلى أننى لو رأيتها أو لو قسمت لى رؤيتها لما دريت بأى نفس

ألقاها من بين هذه النفوس، وليس غريبا أن تجتمع هذه النفوس مرة ثانية أمامها كما اجتمعت في المرة الأولى لتألف على حبها نفسها واحدة تريد لها وقلبها واحدا يهفو إليها، وتنزاق على نفسى كما تنزاق على نفس كل عاشق المساءات الكثيرة التي تتركها النفس الشقيقة للفتاة التي يحبها، ويهفو القلب العاشق للقلب الآخر الذي يحبه ويريده حيث يرقى إلى النقاء والطهر والكمال .

وما أشوق قلبي الما جن في بعض الأحيان البائس في كثير من الأحيان — المعنى دائما — ما أشوق هذا القلب إلى النقاء والطهر والكمال. ويح نفسى فكأننى لم تستطع حياة العابثين التي أحيائها أن تنسينى ذلك الحب أو ذلك القيد الذي يجعلنى بمنزلة الأسير — أو ليس ذلك الجسد أيضا يجعلنى بمنزلة الأسير — أو لست بين أسيرين ، قلب أسير وجسد أسير . قلب فى السماء وجسد يرسف فى الأرض وقوة تريد أن تمزقنى بين هذين الطرفين . ولم أخلص بعد لى أكون تحت سلطان واحد وأسر واحد، أنسى أحدهما بالآخر، أو على الأصح أستعين بأحدهما على نسيان الآخر وأشفق فى الحالين جميعا .

يحملنى قلبي الأسير إلى الماضى لأعيش فى ضاحية من ضواحي تريستا على الشاطئ الصخرى الذى يدمى أقدام الحسان والسفوح المعشب النضير — والقرية المرحاة الساهرة والحبيبة الفاتنة الشقراء أعيش مع كل ذلك راغبا فيه ضائقا به مشفقاً على نفسى منه حتى

يحملنى ذلك الجسد الأسير إلى حياة تأبى إلا أن يكون لها وعيها
ومجونا — أعيش راغبا عنها وراغبا فيها ، وهكذا أنتقل من أسر
إلى أسر ومن سجن إلى سجن لن يخلصنى منها إلا الموت ، لطف
نفسى على سيلفانا لو أراها مرة واحدة وأضمها إلى صدرى ضمة
واحدة — أقبل صليبها الذى تحمله بين نهديها وكأنى بذلك أقبل
ما يحويه رأسها الصغير الجميل من عقيدة وتفكير ، كما أقبل ما تحمله
على رأسها ذلك من الشعر الذهبى القصير . — أريد أن ألصق
خدى بخدها وأستنشق عبير أنفاسها وأسمع نبرات صوتها الخلوه
التي كدت أنساها وعهدى بها بعيد .

أين هذه الأيام التي كنت أمنع نفسى عنها ، أجازيها صدا
بصد ، وهجر بهجر ، وجفاما بجفاء ، وأحبس فى نفسى الشوق
والدموع لأظهر أمامها جلدا حازما مكلفا نفسى مالا أطيع ، مانعا
نفسى عن أحب . أين منى هذه الأيام — لوعادت — لعدت راغبا
مستعظفا أقدم القربان من الشوق والدموع الذى كنت أحبسها
وما أعجزنى الآن عن حبسها .

أن منى هذه الأجفان الناعسة المريضة لو أمرر عليها فى —
أين منى هذه الشيايا البيض التي تحكى برد الشتاء فى تريستا . هذه
الأجفان والشيايا التي منعت نفسى عن تقبيلهما تأدبا وتعظفا عندما
كانت تلتقانى ومعهما والدماء وشقيقتها ، أو تجلدا وامتناعا وقهرا للنفس

عندما كانت تلقاني منفردة أو عندما كانت تتيح لنا بنت شقيقتها الصغيرة فرصة الإفراد .

الحق أقول أننى كنت أصلى وأقرأ القرآن فى ذلك الوقت ، وأن حبها هو الذى جعلنى أصلى وأقرأ القرآن ، والحق أقول أن ما منعنى عن تقبيلها هى الصلاة وقراءة القرآن .

وما أجمل قول الشاعر العاشق وهو يقول :

سألت الفتى المكي هل فى تعاتق • وضمه مشتاق الفؤاد جناح
فقال معاذ الله أن يذهب التقى • تلاصق أكباد بهن جراح
لهف نفس على هذه الأجفان والثنايا ، ولا أعرف أننى ندمت
فى حياتى قط كما ندمت على عدم تقبيلها .

ما أشد غباوة الإنسان عندما يدع للعقل بمنطقه الصارم الجاد أن يذكر عليه صفو دقائق مبتسمة تريدها عاطفته المبتسمة ، وليست عاطفته مبتسمة فى جميع الأحيان .

والآن وقد أقبلت جنوا تسعى إلينا إذا صح أنها تسعى إلينا ولم نتكلف لها السفر الطويل الشاق مدة ثمانية أيام ، من شاطئ إلى شاطئ وما بين الشاطئين من اختلاف الأجواء وجميع ألوان الحياة أقبلت جنوا تسعى إلينا من خلف الضباب وقد ربض السحاب فوقها لا يريم وابتلع قممها وأطرافها المفرقة أو كاد ، ولعل فى قمة من هذه القمم ترقد هذه القرية الهادئة روتالتي رأيتها مرة

واحدة فانطبعت لها في ذهني صورة جميلة كصورة صاحبها الجميلة
لا تريد أن تزول .

واسكني سأخذ نفسي بالقسوة والحزم وأجبرها على أن تنسى
ماليس إلى نسيانه بد ، وسأترك التفكير في فتاة رونا الآن كما تركت
التفكير في فتيات جلابجو وليفربول من قبل . وحسبي أن أنفق
مايتاح لي من وقت في أحياء جنوا الأثرية الضيقة التي تعين على النسيان
الغفران

أقبل المساء وأعقبه الليل في هجوم بطيء ملح وبرز القمر هلالا
كالملك الكريم أحاطت به كوكبة من الجند
يرسل السحر إلى الماء أشكالا وألوانا -- فحولنا هالة من النور
المذاب تسير مع الباخرة لا نستطيع لها فراقا ، وأمامنا أمواه يحكي
سوادها سواد الليل . وخلفنا مثل الذي أمامنا وبين الذي أمامنا وخلفنا
هذه النتف من الحجاب الذي يطفو على سطح الماء . وفوقنا السماء
كالماء الذي نسير فيه فهذه الكواكب الملائكة كهذه الثريات المرتعشة
على هذه الأطواف العائمة التي ترسم الطريق ، وهذه النتف من السحاب
البيض كهذه النتف من الحجاب . والباخرة تداف بين النجوم التي
في الماء والنجوم التي في السماء يحف بها ذلك الطنين عندما تضرب الماء
والهواء مقتربة من شواطئنا المصرية الجميلة التي طال إليها حنيننا وشوقنا .
ولا يستطيع مقيم أن يشعر بذلك الشوق والحنين كما يشعر به

النازح الغريب -- لا يستطيع المقيمون أن يشعروا كما نشعر بالشوق والحنين ليس إلى الأصدقاء والأهل فحسب بل إن شوقنا الشديد إلى معالم الدور والأرض والطريق .

ولكن وجهتنا لم تكن الإسكندرية وإنما كانت بورسعيد وأنا لم أرى بورسعيد قبل الآن . فلتكن مدينة غريبة على كأي مدينة أراها في الخارج وليكن حديثي عنها كحديثي عن إحدى هذه المدن وبورسعيد مدينة تعيش في الظلام وأعني الظلام بمعناه اللفظي وذلك إذا قارناه بالضوء الذي يغمر الأحياء والأشياء في بلدان الخارج -- ذلك الضوء الذي يخضع على الأحياء والأشياء ألوأنا والذي يكسبها جمالا ، فكأنه بحر نسبح فيه مع السابحين ، يغمرنا ويغمر كل ما حولنا غمرا ، ولم أرأ -- صدق من تصوير -- الضوء بالبحر الذي يجعلنا نرى الدقائق تبدو واضحة في الطريق كما هي واضحة داخل الدور العامة التي نلم بها .

أما بورسعيد فهي مظلمة إلا من ضوء خافت ضئيل يؤدي الأبصار بخفوته وضآلته حتى ينذر أن نتبين ملامح الناس في الطريق على بعد خطوات . فكأننا نسير في مدينة الأشباح -- ونحن أحدهذه الأشباح -- لا نتبين من الشخص غير كتلة متحركة مقبلة علينا أو مبتعدة عنا أما تفاصيل هذه الكتلة التي تتحرك زيتها ولونها وسمتها فشيء ليس إليه سبيل . والمدينة بعد ذلك تنقسم إلى قسمين مختلفين

أحدهما للمصريين والآخر للأجانب وهكذا لم تخاص المدينة لأن
يكون لها لون واحد وطابع واحد ، وليس يعجبني هذا ولا ذاك
حتى أن حى الأجانب ينقصه الكثير من الهدوء والنظام حتى يستطيع
أن يقف مع ما يمثله فى الخارج .

لم يعجبني هذا التقسيم الذى لا يغنى من الواقع شيئا ، فإن القسمين
غير منفصلين إنفصالا تاما ، بل على العكس متداخلين تداخلا تاما
فى أكثر من موضع برغم ما بينهما من تناقص .

وأهم ما حدث لى فى بور سعيد هو هذا الغفران الذى جعلته
عنوانا للحديث . ولعل ذلك الغفران قصة من القصص أو
أسطورة من الأساطير ؟ وهلبقى شيء لذلك القلب ، الأسود حتى
تؤثر فيه قصة من القصص أو أسطورة من الأساطير ولكنه
قد حدث ذلك ! وكانت قصة من قصص الوفاء — وليس وفاء المرأة
للرجل أو الرجل للمرأة هو الذى يؤثر فى هذا التأثير — وقد
يثير ذلك الإعجاب والرضا . الإعجاب لهذه المرأة الوفيه إن وجدت
وقد نغبط صاحبها عليها ، والرضا عن هذه الحياة لو اتبع لنا أن
نحيا حياة مثلها .

ليس ذلك الوفاء هو الذى يؤثر فىنا التأثير العميق ، وإنما الذى
يشير فىنا الدموع الغزار حتى نشرق بها وتكاد تنشق صدورنا بما
يحتبس فيها من بكاء . ذلك عندما نرى إنسانا يمنع نفسه عن أشياء
لم نستطع أن نمنع أنفسنا عنها .

يهم بالإثم حتى لا يبق شك في أنه سيأتي ذلك الإثم - ولكنه يترتب
عنه - وهذه هي القصة التي أثارتنى إلى البكاء أو أثارته البكاء في : لقد
أنفق حياته خاطئاً و غارقاً إلى أذنيه في هذه الذات العنيفة البغيضة المنكر
يلتمس إليها الوسائل والحيل ويبذل في سبيلها المال والجهد، وفي إحدى
لياليه المحرام دفع القدر أمامه امرأة محطمة لم يبذل في سبيلها مالا ولا
جهداً ، وما أيسر عليه أن يجعلها تشرب الخمر وهي لا تعرف أن
الخمر ثم تغنى بعد ذلك وتصبح أمامه فريسة سائغة سهلة ويكاديه
بهذه الفريسة السائغة السهلة - ولكنه يتردد - وليس ما يمنعه
عزيمة صادقة قوية - وأشك في هذه العزيمة الصادقة القوية -
وليس ما يمنعه حباً عزيزاً عفيفاً لفتاة عذراء عفيفه وليس ما يمنعه
رحمة لهذه الضحية التي لا تعقل شيئاً وذلك الضعف في المرأة الذي
يغري ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً - ليس يمنعه كل ذلك
وإنما يمنعه الإيمان الذي ينزل القلب فجاءه بعد أن كان عهداً بذلك
القلب بعد ذلك الإيمان الذي يفجؤه عندما يرتفع صوت المؤذن
يشهد أن لا إله إلا الله . ويرتفع بصره أثناء ذلك إلى الجسد النائم
كما يرتفع البصر إلى الجبل أو الطود .

ولكن بصره ذلك يقف على نحرها وبطيل الوقوف لا يرى
حراكاً ولا يقوى على حراك وقد كان نحرها يحمل كتاباً كريماً نقش
عليه اسم الله . عند ذلك يشعر بذلك الإيمان يغمر قلبه فجاءه -

عند ذلك يستشعر الرحمة لهذا الضعف الذى لا يستطيع أن يدفع
عن نفسه شيئاً ثم يستشعر الخوف من عدالة السماء والشوق إلى
النقاء والطهر والكمال .

هذه هى القصة التى أثارتنى إلى البكاء — وذلك أننى مثلتها فى
يوم ما مع اختلاف الزمان والمكان والظروف — فأنا لم أكن خادعا
كما كان بطل هذه القصة ، ولم تلق بها الظروف أمامى على غير رغبة
منها كما ألفت بها إليه . وإنما هى فتاة من فتيات الرقيق فى إحدى
هذه البيوت الزجاجية فى مدينة هامبورج — ثم فاجأنى ذلك الذى
فاجأه — صوتا من الوطن الحبيب يحمله الأثير فى لغة سهلة
وإرسال جميل — وكان أحرى أن يؤثر فى تأثيراً عنيفاً كما هو مؤثر
الآن . ولكنه لم يبلغ من نفسى الجأمة شيئاً ولم يصرفنى عما أنا
فيه . أو أنه كاد أن يصرفنى عما أنا فيه ، حتى أسرع أن أصرفه عن
نفسى وأقطع ما بينى وبينه من أسباب — وكان أن نجحت فى إسكات
هذا الصوت وفشلت فى أن أقوم بمثل ما قام به هذا البطل من إعجاز
فيم البكاء وعسى الله الذى كتب على نفسه الرحمة أن يغفر لى ؟

« تمت »

انتظر الجزء الثانى